الطبعة الثانية

الإسلام السياسي

من عام الجماعة الى حُكم الجماعة

المستشار الدكتور
محمد الدمرداش العقالي



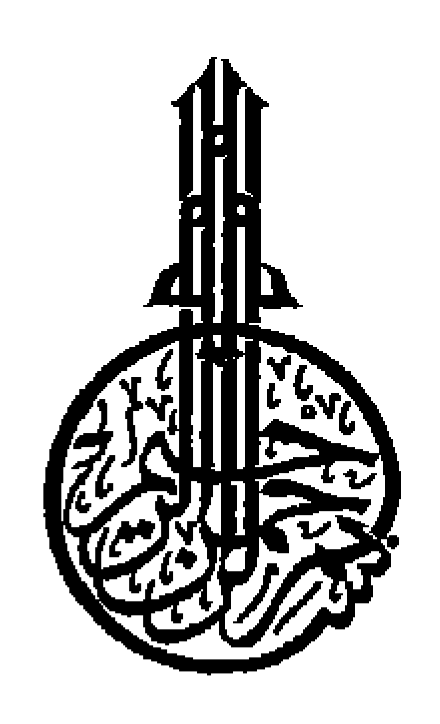
المجموعة الدولية
للنشر والتوزيع

المستشار الدكتور/ محمد الدمرداش العقالي

الإسلام السياسي

من عام الجماعة إلى حُكم الجماعة





العنـــوان: الإسلام السياسي
من عـــام الجماعة إلى حُكم الجماعة

المـــؤلـف: المستشار الدكتور/ محمد الدمرداش العقالي

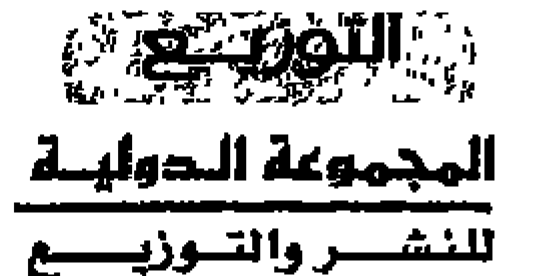
إشراف عـام: نجـــلاء قاســـم

الناشـــر



25 امتداد ولي العهد حدائق القبة
تليفون: 24517300 - 01271919100
emil: samanasher@yahoo.com

التوزيـــع



80 ش طومان باي - الزيتون - القاهرة
تليفون : 24518068 - 01099998240
emil: aldawleah_group1@yahoo.com

تصميم الغلاف: إيمان صلاح
إخراج داخلي: معتز حسنين

الترقيم الدولي: 978-977-6451-42-1
رقم الإيداع: 2013 / 23873
الطبعة الثانية: يناير 2015



﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾.

(الأنعام: 159)

الإهـــداء

إلى شقيقتي الغالية الدكتورة الشيماء الدمرداش العقالي..

لولا كريـــم عونك ما كان هذا الكتاب..
دمتِ لي سندًا.. ودامت لي محبتك.

محمد الدمرداش العقالي

مقدمة الناشر

منذ فجر التاريخ الإسلامي والفقه السياسي من القضايا الشائكة والمهمة عند علماء المسلمين، يطوف بنا المستشار الدكتور محمد الدمرداش العقالي في خبايا وأسرار التاريخ، ينطلق منذ اشتعال الجدل حول شكل الدولة الإسلامية منذ وفاة الرسول ﷺ، وهو ما تعارف عليه المسلمون بعام الجماعة، وحتى الثورة المصرية في يناير 2011 والتي انتهت لتولي جماعة الإخوان المسلمين حكم مصر لمدة عام كامل، ثم ثورة الشعب عليهم في 30 يونيو 2013.

وبين عام الجماعة وتولي الجماعة حدثت أحداث جسام وسطرت مئات الأطنان من الكتب والرسائل حول شكل دولة الإسلام، تغيرت الأسماء واختلفت البلدان والتوجهات، وظل الهدف واحدًا ... الصراع على السلطة. وتحت ستار الدين قُننت الفتن، وطارت الرءوس، هدمت المساجد ودور العبادة.. انتهكت الحرمات وصار الحرام حلالًا والحلال حرامًا، وصار سفك الدماء وسيلة لتأكيد الإيمان، حتى وصلنا إلى

اليــوم الذي صار فيــه الرويبضة الدعي يفتي بشــرعية جهاد النكاح.

يقلــب المؤلف في هذا الكتــاب بعض الصفحات الدامية لمن نادى بالخلافة الإسلامية في كل العصور والبلدان، يلقي الضوء علــى مرتزقة الحروب، وأمراء الفــتن الذين جعلوا جُل همهم إذكاء الصراعات الطائفية والمذهبية على مر العصور. يبحث في مرويات التاريخ الإسلامي، يقف على بعض التجارب المظلمة فيه، ليس بغرض تسلية الوقــت أو البكاء على اللبن المسكوب، بل الهدف والغاية هي العبرة والعظة مما مر بأمتنا الحزينة التي سودت صفحات في تاريخها بصراع كان الدين هــو زاده وهشــيمه، والرغبة فــي لي أعناق النصــوص الدينية لفرض شكل مشوه للدولة الإسلامية.

النــاشــــر

مقدمة

تمر القرون والسنون وتتغير الظروف والأزمان بداية من عصر الخلفاء الراشدين وما تعارف عليه المسلمون بعام الجماعة، وحتى الثورة المصرية في يناير 2011، والتي انتهت بتولي الجماعة حكم مصر لمدة عام. ثم ثورة الشعب عليهم في 30 يونيو 2013.. بين عام الجماعة وتولي الجماعة حدثت أحداث جسام، وسطرت مئات الأطنان من الكتب والرسائل في شكل دولة الإسلام، تغيرت الأسماء واختلفت البلدان والتوجهات. وظل الهدف واحدًا.. الصراع على السلطة. وتحت ستار الدين قُننت الفتن، طارت الرؤوس، هدمت المساجد ودور العبادة.. انتهكت الحرمات واقترفت كل الموبقات، وصار الحرام حلالًا والحلال حرامًا، وصار سفك الدماء وسيلة لتأكيد الإيمان، حتى وصلنا إلى اليوم الذي صار الرويبضة الدعي يفتي بشرعية جهاد النكاح.

نقلب في هذا الكتاب بعض صفحات من الصفحات الدامية لمن نادى بالخلافة الإسلامية في كل العصور والبلدان. نطوف على مرتزقة الحروب، وأمراء الفتنة الذين جعلوا جُل همهم إذكاء الصراعات الطائفية والمذهبية على مر العصور. نبحث في مرويات التاريخ الإسلامي، نقف على بعض التجارب المظلمة فيه، ليس الغرض تسلية الوقت أو البكاء على اللبن المسكوب، بل الهدف والغاية

العـبرة والعظة مما مر بأمتنا الحزينة التي سـودت صفحات في تاريخها بصراع كان الديـن هـو زاده وهشـيمه، وبرغبة في لي أعنـاق النصوص الدينية لفرض شـكلٍ معينٍ للدولة الإسلامية.

هذا لا ينفي ولا يسـقط أن تاريخنا فيه مـن الصفحات المضيئة الناصعة.. وفيه من الأبطال والمواقف الباهرة الكثير.. نحاول في سطورنا الفرز والتجنيب وتنقية ولو أقل القليل مما تعلق به من شوائب المتأسلمين..

نحاول بلغة بسـيطة تُخفف من لغة كتب السـير والتاريـخ أن نقطع الطريق في وجه من يريد أن يسـتخدم هذا الدين الحنيف في تمرير أغراضه في حب الرئاسـة، أو فرض شكلٍ للإسلام الحنيف أو الدولة الإسلامية ما أَنْزَلَ اللهُ بِهِ مِنْ سُلْطَانٍ.. وسـتجد أن مـن امتشـق حسـامه بالأمـس ليقطف الـرؤوس بدعـاوى باطلة – الإسـلام منـه براء – هو نفسـه من يعيـد الكـرَّة في كل أرجاء بلاد المسـلمين من شرقهـا وغربها. اختلفت التوجهات وتعددت المشـارب والأسـماء ولكن هوس الدم واحد. إيمانًا منا أن الدهر كالدهر والأيام واحدة، وأن التاريخ يعيد نفسه...

الإسلام السياسي والدولة الإسلامية

الحديث عن النظام السياسي في الإسلام صار يشغل الحيز الأبرز في اهتمامات المسلمين على اختلاف طوائفهم ومذاهبهم، واهتم الكثير برسم صورة واضحة المعالم لعلاقة الحاكم بالمحكوم في ضوء أحكام الشرعة الإسلامية.

وقد عايش المسلمون خلال عهد الخلفاء الراشدين نوعًا من الحكم المنبثق عن رضا الأمة عبر مبايعة أهل المدينة لأبي بكر وعمر وعثمان وعلي، وإن اختلفت صيغة وشكل مبايعة كل منهم؛ حيث بويع أبو بكر في السقيفة ثم في مسجد رسول الله ﷺ، ثم جاءت بيعة عمر بعد أن قام أبو بكر بتعيينه لخلافته، أو ترشيحه للخلافة حسب بعض الأقوال، ثم فاز ببيعة أهل المدينة من المهاجرين والأنصار بحسبانهم أهل الحل والعقد وسكان عاصمة الإسلام. وعندما قُتل عمر أوصى إلى مجلس شورى مكون من ست قيادات لينتخبوا أحدهم، فاستقر الأمر لعثمان بن عفان، الذي بايعه الناس في حديث يطول فيه الكلام. وعندما قُتل الخليفة الثالث عثمان خلال حركة التمرد التي قام بها الثوار ونهض أهل المدينة بانتخاب علي بن أبي طالب ليتولى مسند خلافة المسلمين.

وبعد مقتل الخليفة الرابع علي بن أبي طالب، قام أهل الكوفة - باعتبارها العاصمة الجديدة لدولة الإسلام - بانتخاب ابنه الحسن بن علي ابن فاطمة بنت

رسول الله (ﷺ)، الذي كان آخر حاكم يتم اختياره طواعية. ومع ظهور مُلك معاوية وتنازل الحسن بن عليّ إثر الصلح بينهما، بدأ عهد من الملك العضود الذي ترسخت أركانه بالقوة والقهر؛ إذ عين معاوية ابنه يزيد من بعده وأخذ البيعة له قسرًا في حياته. وتوالت من بعده الملوك التي تتولى مسند حكم المسلمين بالقهر والغلبة، بدءًا من دولة بني مروان الأموية ثم الدولة العباسية والفاطمية والمملوكية انتهاء بالدولة العثمانية.

وترسخ طوال السنين لدى عموم المسلمين مفهوم جديد لشرعية الحاكم يقوم على القوة التي تتدثر بالدين.. وطارت الفتاوى التي تلزم بطاعة ولي الأمر حتى لو كان حاكمًا فاسقًا ظالمًا، وترسخ لدى كثير من الفقهاء ما يمكن تسميته بالشرعية الدينية.

وعندما نقلّب في دفتر أحوال تاريخ المسلمين نستيقن أن آفة الدين الكبرى ومصيبته العظمى في شتى عصور الإسلام فئتان: فئة أساءت استخدامه، وفئة أتقنت استغلاله. فالتي أساءت استخدامه ضلّلت المؤمنين به، والتي أتقنت استغلاله أعطت الجاحدين والملحدين حجة عليه. ولا ريب أن كلتا الفئتين تبارت في إنتاج صور مشوّهة للإسلام، فأخرجت لنا آراءً تكفيرية وجماعات أتقنت امتهان أنواع العنف والإرهاب كافّةً، وحاربت وشوهت المصلحين والمجددين، واستعذبت شَقّ وحدة المسلمين بإذكاء الخلافات المذهبية وتكفير المخالف ولو في أهون الأمور، وتجييش طائفة على أخرى، مستخدمة سلاح الشعارات الدينية والأحاديث النبوية.

وللأسف الشديد، أدى هذا التيار إلى إنتاج إسلام مبنيّ على تقديس الفقهاء ورفع شعار السلف من دون إدراك لحقيقة مواقفهم من القضايا التي عالجوها في زمانهم، فأدى ذلك إلى انقباض شديد لدائرة المباح، واتساع مدهش لدائرة الإلزام، وتجذُّر التوجُّس من العقل، والنفور من التفكير، وذلك كله من دون أن يزيد بحق من جذوة الإيمان ودرجة حرارته في القلب قيد شعرة. وصار

هذا الإسلام بعيدًا كل البعد عن الإسلام الحقيقي المبنيّ على النص القرآني وما يتفق معه من السنّة النبوية، حيث تتسع دائرة المباح وتتقلص دائرة الإلزام ويرتفع سقف التكاليف نحو فضاء واسع رحيب من الحرية وإعلاء العقل والتفكير، وكل ذلك من دون أن ينقص من جذوة الإيمان وحرارته قيد شعرة.

وفي أتون الثورات العربية وفي ظل ربيعها الوارف، أحرز التيار الإسلامي على صعيد عالمنا العربي نجاحات عدة لم تدم طويلًا، محقّقًا سقوطًا مدويًا بسرعة مدهشة في المشهد السياسي في مصر، ومشتبكًا في صراع مرير في سوريا.

ولا ريب أن الحركات الإسلامية في مختلف البلدان العربية من مشرقها إلى مغربها خرجت بصورة أو بأخرى من رحم ومظلة الجماعة الأم، وهي الإخوان المسلمون. ورغم أن حسن البنا لم يرسم صورة محددة للدولة الإسلامية، فإن معظم الحركات التي بنت فكرها على أدبيات وفكر البنا وجماعة الإخوان المسلمين تُلحّ بصورة أو بأخرى على طرح نموذج إسلامي وشكل للنظام السياسي تصفه بـ «الدولة الإسلامية»، وتكفر أي نموذج أو آلية أخرى غير ما تطرحه، وهو ما أوقعها في صراع مرير وصل إلى التكفير حتى مع عقلاء التيار الإسلامي من جماعة الإخوان المسلمين وغيرهم الذين يعتمدون نظامًا لدولة مدنية بمرجعية إسلامية. والحقيقة التي تتجاهلها الحركات الإسلامية السلفية المتشددة أن الإسلام الحنيف لم يرسم يومًا شكلًا محددًا ثابتًا للدولة أو النظام السياسي، لا في القرآن الكريم ولا السنّة النبوية المطهرة.

فعندما شكّل النبي -صلى الله عليه وآله وسلّم- حكومتَه في المدينة المنورة، كان ذلك بتدبيره الشخصي بحسبانها الأنسب لشكل المجتمع البسيط في المدينة. ويجدر بنا التوقف عند تجربة الرسول (ﷺ) السياسية وعلاقته بالممالك العربية المسلمة التي كانت قائمة في عهده. فعلى الرغم من أن الرسول كان يمتلك بلا أدنى جدال الشرعية السماوية، فإنه أقام دولته في المدينة على أساس احترام دور الأمة. وتضمنت البيعة التي أخذها من المسلمين: الالتزام بطاعة الرسول

(ﷺ) وعدم عصيانه في معروف، بالإضافة إلى نبذ الشرك وتجنب السرقة والزنا والقتل ومساوئ الأخلاق. ولم تكن البيعة تفويضًا مطلقًا من المسلمين للنبي، أو خضوعًا من طرف واحد لحكم فرد مُطلَق، وإنما كانت أشبه بعقد بين طرفين يستلزم حقوقًا وواجبات لكلا الطرفين، فقد جاء في قصة البيعة التي أسست لدولة الرسول في المدينة أن أحد الأنصار، وهو أبو الهيثم مالك بن التيهان، سأل النبي (ﷺ) قبل البيعة عن موقفه إذا ما قامت الحرب بين قوم الأنصار من الخزرج واليهود بالمدينة، وعمّا إذا كان سيبقى معهم أم هو تاركهم، فردّ الرسول قائلًا: **«بل الدم الدم، الهدم الهدم، أنتم منّي وأنا منكم، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم»**. وبناءً على ذلك لم يتخذ الرسول قرار الحرب بنفسه، عندما واجه قريشًا في بدر، إلا بعد استشارة وموافقة الأنصار.

ولم يكن الرسول يهتم بفرض سلطته السياسية على القبائل العربية التي كانت تدخل في الإسلام، بقدر ما كان يهمه ويشغله أمر التوحيد والصلاة والزكاة وتثبيت دعائم الدين الحنيف. ولذلك لم يتدخل (ﷺ) كثيرًا في أمور السياسة المحلية للقبائل والشعوب التي كانت تعلن الإسلام، وإنما كان يخاطب الملوك والأمراء المعاصرين له، ويدعوهم إلى الإيمان برسالته، ويعدهم بالمحافظة على ملكهم تحت أيديهم. وقد ترك الأمراء والملوك والسلاطين الذين أسلموا في حياته على ما هم عليه، ولم يطلب منهم التخلي عن سلطاتهم السياسية لسلطته. فعندما أسلم جبلة بن الأيهم، وهو أحد ملوك الغساسنة، ظل ملكًا على قومه، إلى أن ارتد في عهد عمر، في قصة معروفة. وكذلك عندما أسلم ملوكُ حِمْيَر أبقاهم رسولُ الله -صلى الله عليه وآله وسلم- على مكانتهم، وأرسل إليهم الصحابي الجليل معاذ بن جبل يعلّمهم الدين وفروضه ويقضي بينهم، وكتب إليهم عهدًا جاء فيه: **«هذا عهد محمد بن عبد الله رسول الله إلى معاذ بن جبل وأهل اليمن حين ولاّه أمرهم فيهم أن يكون أبًا رحيمًا يتفقد صلاح أمورهم، وإني لم أبعث عليكم معاذًا ربًّا، وإنما بعثته أخًا ومعلّمًا ومنفذًا لأمر الله تعالى ومعطيًا الذي عليه من الحق مما فعل، فعليكم له السمع والطاعة والنصيحة**

في السرّ والعلانية، فإن تنازعتم في شيء أو ارتبتم فيه فردّوه إلى الله وإلى كتابه عندكم، فإن اختلفتم فردّوه إلى الله وإلى الرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر، ذلكم خير لكم وأحسن تأويلًا». وكذلك فعل مع ملوك حضرموت الذين أمَّرَ عليهم أحدَهم، وهو وائل بن حجر، وأمرهم بالسمع له والطاعة وكتب إلى ثقيف الطائف عهدًا بأنه «لا يؤمِّر عليهم إلا بعضَهم على بعض، على بني مالك أميرهم، وعلى الأحلاف أميرهم». وكتب إلى عامر بن الأسود الطائي: «أن له ولقومه طيء ما أسلموا عليه من بلادهم ومياههم ما أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وفارقوا المشركين». ومثيل ذلك الكثير من العهود والمواثيق التي تقطع بالجزم واليقين أن رسول الله (ﷺ) وهو المؤيد بوحي السماء لم يفرض شكلًا للحكم أو الحكومة على من اتبعه، بل ترك أمور الدنيا يصرفها كل مجتمع حسب حاجاته وظروفه.

■ دستور المدينة المنورة

والدين يُسرٌ والخلافةُ بيعةٌ والأمر شورى والحقوقُ قضاءُ

تجسد هذه الأبيات لشوقي ما تضمنته صحيفة المدينة أقدم نص دستوري من حقوق وواجبات تنظم العلاقة بين سكان الدولة المسلمة وغيرهم، فهذه الصحيفة وهي أول دستور وضِع في الإسلام درج على تسميتها «دستور المدينة» كتبها رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- لتنظيم العلاقة بين أهل المدينة من جميع الأعراق والأديان، وقد حوت المبادئ الدستورية التي ترسم وتحدد أساس المواطنة في الدولة.

وبداية، مصطلح «الدستور» من المصطلحات المعرَّبة، التي دخلت العربية من اللغات الأخرى، وإذا كان هذا المصطلح بعد تطوره يدل على: «مجموعة القواعد الأساسية التي تبين شكل الدولة ونظام الحكم فيها، ومدى سلطتها إزاء الأفراد»، فإن الدارس لدستور المدينة المنورة وصحيفتها يجد أنها قد جمعت كل ما في مصطلح الدستور من مضامين حديثة.

والمتابع لطبيعة تركيبة سكان المدينة عند هجرة الرسول -صلى الله عليه وآله وسلم- يجد أنها تركيبة شديدة التعقيد والتنافر، فهذا المجتمع الجديد فيه من قبائل العرب قبيلتا: الأوس والخزرج، ولكل واحدة منهما بطون وأفخاذ، وفيه قبائل من اليهود هم: بنو قينقاع، وبنو النضير، وبنو قريظة. وكان عرب المدنية أنفسهم منقسمين دينيًّا، ففيهم المشركون كأغلب العرب في تلك الفترة من التاريخ، وبينهم المسلمون الذين أسلموا في بيعتي العقبة الأولى والثانية ومن تبعهم من أهلهم ومواليهم وعبيدهم، وإلى جانبهم عاشت القبائل اليهودية المذكورة.

ومع هجرة النبي-صلى الله عليه وآله وسلم-ومن سبقه من الصحابة الكرام من أهل مكة، دخل عنصر جديد لمجتمع المدينة الذي اتسع ليصبح المسلمون

مكونين من سكان المدينة الأصليين وسماهم النبي الكريم الأنصار، ومن هاجر من سكان مكة وسماهم المهاجرين.

■■■

وداخل مجتمع المدينة كانت الصراعات والنعرات القبلية تأكله؛ حيث لم يتمتع بوحدة سياسية تمكنه من الاستقرار، بل شهدت العلاقة بين مكونه العربي (الأوس والخزرج) نزاعات وحروبًا منها حرب بُعاث الشهيرة التي استمرت عقودًا على أقل تقدير، والأمر ذاته ينطبق على القبائل اليهودية: بني قينقاع، وبني النضير، وبني قريظة. وأدى عدم وجود دفاع مشترك في المدينة إلى قيام كل قبيلة ببناء سور دفاعي قوي لها، وبنى عرب المدينة 13 سورًا وحصنًا، أصبحت بمثابة (جيتو) يفصل كل قبيلة أو مجموعة من القبائل عن القبائل الأخرى.

وعاش اليهود كذلك في حصون متباعدة فما كان بينهم أي قانون ثابت ينظم علاقات ويفك اشتباكهم، وكانوا يلجأون لحل المنازعات إلى الأعراف والحكام، ولم تكن الأطراف القوية فيهم تحترم قرارات الحكام أو الأعراف إذا لم تتوافق مع مصالحها.

ويزيد الأمر تعقيدًا أن قبائل المدينة العربية واليهودية كانت لها معاهدات وأحلاف مع العديد من بطون وقبائل العرب الأخرى، لتنتهي صورة سكان المدينة إلى التنوع الديني والعرقي شديد التعقيد والتنافر، فأهلها باتوا مقسمين دينيًّا إلى مسلمين ويهود ومشركين، بل إن المسلمين أنفسهم فئتان: سكان المدينة الأصليون، والمهاجرون من مكة.

وهكذا واجه النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- مع وصوله إلى المدينة مجتمعًا يختلف كليًّا عن المجتمع المكي الذي تميز بوحدة سياسية وعرقية طويلة رفعت من مكانة قريش بين العرب ومن جاورهم من الدول، بل استخدمت تلك الوحدة السياسية في مواجهة الدعوة الوليدة، وعرف بينهم حلف الفضول الذي كان معاهدة تحث على العدل ونصرة الضعيف.

ثقافيًا، كانت مكة أعرق من المدينة التي يقل فيها عدد المتعلمين ومن يعرف القراءة والكتابة، ويعقد في مكة سوق عكاظ الذي مثَّل ملتقى الثقافة العربية في ذلك الزمن، كما أعطاها موسم الحج المكانة المقدسة بين عرب الجزيرة.

■■■

أمام هذا الواقع السياسي والثقافي والعرقي والدين الجديد كان لزامًا أن يضع النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- باعتباره القائد الجديد لمجتمع المدينة تنظيمًا يعالج حالة عدم الاستقرار والتنافر، وفي نفس الوقت يحمي التنوع ويؤسس أركان التعايش.

قام الرسول -صلى الله عليه وآله وسلم- منذ اليوم الأول لتشريفه المدينة المنورة بالعمل على إرساء عقد اجتماعي جديد يقوم على كبح نزعتين لدى المهاجرين: **أولاهما**: نزعة التفوق القبلي، بوصفهم ينتمون إلى قبيلة قريش المرموقة، **وثانيتهما**: نزعة أسبقية الدخول في الإسلام، وفي نفس الوقت عمل الرسول -صلى الله عليه وآله وسلم- على كبح النزعة الإقليمية لدى الأنصار وما قد يساورهم من إحساس بالزهو والفضل على حصانتهم للدعوة المضطهدة في مهد نزولها بمكة المكرمة.

وتورد كتب السيرة الكثير من الإجراءات التي باشرها الرسول -صلى الله عليه وآله وسلم- لتنظيم المجتمع وضبط العلاقات المتشابكة المتنوعة وحماية الحقوق بين سكان المدينة فيما بينهم، وكان أول ما باشره فور بناء المسجد تقرير المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، وهي خطوة لا تقل أهمية عن بناء المسجد لكي يتلاحم المجتمع المسلم ويتآلف وتتضح معالم تكوينه الجديد، وكان مبدأ التآخي العام بين المسلمين من أهل مكة قائمًا منذ بداية الدعوة في عهدها المكي، وقد أكد القرآن الكريم الأخوة العامة بين أبناء الأمة في قوله تعالى: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ

﴿فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (آل عمران: 103).

وهكذا انتظمت العلاقات الداخلية بين المسلمين أنفسهم الذين تشكلوا من أهل المدينة بفرعيها الأوس والخزرج والمهاجرين من مكة، وساهم نظام المؤاخاة في ربط المسلمين على مفهوم جديد غير القبيلة وصار مفهوم الأمة بدلًا عن الدم من دون أن يدهم الإسلام رابطة الدم، بل سنجد في صحيفة المدينة ما يؤكد اعتراف واحترام الإسلام لرابطة الدم ولكن في مكانها الصحيح الذي لا يهدد وحدة المجتمع ومصالحه، وأُرسيت العلاقة بين المسلمين على أساس الوحدة الإيمانية بالله تعالى ومثلته خطوة المؤاخاة التي ذابت فيها عصبيات الجاهلية، فلا حمية إلا للإسلام وأن تسقط فوارق النسب واللون والوطن، فلا يتأخر أحد أو يتقدم إلا بمروءته وتقواه، وقد جعل الرسول -صلى الله عليه وآله وسلم- هذه الأخوة عقدًا اجتماعيًّا حقيقيًّا ونافذًا لا لفظًا فارغًا، وعملًا يرتبط بالدماء والأموال وليس مجرد شعارات تعلو بها الحناجر والأصوات.

ولم يكن بالأمر الهين القضاء على الفوارق الإقليمية (مكة والمدينة) والقبلية (الأوس والخزرج) حيث العصبية هي الدين عندهم، وعملية المؤاخاة تهدف إلى إذابة هذه الفوارق بصورة واقعية منطلقة من تصحيح البيئة الجاهلية حتى إن الله تعالى امتن على نبيه -صلى الله عليه وآله وسلم- بهذه المؤاخاة فقال: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (الأنفال: 63).

وبعد أن انتهى النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- من تنظيم العلاقة بين المسلمين على أساس الإيمان، وهو ما لم يكن ممكنًا في ظل اختلاف الدين بين الفئات السكانية في المدينة، بادر إلى بناء علاقة قانونية بين جميع سكان المدينة بتنوعهم الديني والعرقي، فكان العقد أو العهد هو الممكن واقعيًّا الذي يقوم على

رابطة أخرى تجسد حقيقة الدولة المدنية وهو الإقليم والإقامة المرتبطة به، وهذا ما أكدته نصوص وثيقة دستور المدينة؛ حيث لم تحصر مواطنة الدولة الإسلامية الأولى في المسلمين وحدهم، بل نصت هذه الوثيقة على اعتبار اليهود المقيمين في المدينة من مواطني الدولة وحددت ما لهم من حقوق وما عليهم من واجبات، في فقرتها «25» تقرر الوثيقة أن «يهود بني عوف أمة مع المؤمنين للمؤمنين دينهم ولليهود دينهم: مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم وأثم». ولا يقف الأمر عند يهود بني عوف وحدهم وإنما تمضي النصوص من الفقرة «26» إلى الفقرة «36» لتقرر لباقي قبائل اليهود مثل ما تقرر ليهود بني عوف، وهذا يدل بكل وضوح على أنهم دخلوا في حكم الدولة الجديدة وخضعوا لأسس تنظيمها التي وردت في وثيقة تأسيسها. وهذا يبين أن عنصر الإقليم «المدينة» والإقامة المرتبطة به عند نشأة الدولة هو الذي أعطى هؤلاء اليهود حق المواطنة وضمن لهم التمتع بالحقوق التي كفلتها الوثيقة لهم. وهكذا فإن الإسلام في أول دستور له يرسم ويضع أساس المواطنة ويدعو إلى العيش المشترك واحترام الأقليات والخصوصية الثقافية للآخرين قبل أن تنادي بها الديمقراطية الغربية بثلاثة عشر قرنًا.

وصياغة نصوص تلك الوثيقة لم يكن سهلًا ميسرًا في ظل ذلك التنوع الكبير في سكان المدينة، وكذا لعدم وجود سوابق وتجارب قريبة من موطن النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– يمكن أن يستند عليها.

والناظر إلى نص الصحيفة يلحظ أنها أُسست على توجيهات القرآن الكريم من العدل والمساواة والاعتراف بالاختلاف والتعدد الواقعي للمجتمع المدني، ولكن بصيغة قانونية محددة يقبلها غير المسلم ويوافق عليها.

وتذكر مصادر التاريخ أن هذه الصحيفة قد وضِعت بتشاور موسع بين كل فئات السكان بالمدينة، وكانت أقرب ما يكون لفكرة الجمعية التأسيسية لصياغة الدستور، شارك فيها المسلمون مهاجرين وأنصارًا وكذا العرب المشركون واليهود. وتذكر المصادر أن آلية الاحتكام إلى النبي عند الاختلاف بين أي من

سكان المدينة كان اقتراحًا من السكان اليهود؛ محاولة منهم لإيجاد مرجع مشترك وثابت عند الاختلاف والنزاع.

وبإعلان الصحيفة صار سكان المدينة خاضعين لعهد جديد ينظم علاقاتهم المالية والدفاعية ويحدد جهة التحاكم وفض النزاعات، لتكون أول نص دستوري أو عقد اجتماعي في تاريخ الإسلام.

وكان من ضمن أهم المبادئ الدستورية التي سُطرت بالصحيفة:

- مبدأ الوحدة الوطنية بين ساكني الدولة الواحدة: «إنهم أمة واحدة من دون الناس» فهم رعايا الدولة أو شعب الدولة في ذلك الوقت. وكذا: «وأن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم: مواليهم وأنفسهم، إلا من ظلم وأثم، فإنه لا يوتغ (يهلك) إلا نفسه وأهل بيته». وهو توكيد لشمول الوحدة الوطنية لغير المسلمين وجميع طوائف المجتمع، وأن قانونها العدل من دون الظلم والاعتداء، وعلى الظالم أن يتحمل عاقبة ظلمه وفق مبدأ شخصية العقوبة.
- مبدأ مُحاسبة الحاكم والذي يقتضي ألَّا حق لأحد في ولاية أمر من الأمة إلا بتولية الأمة. تأكيد حق الأمة في مراقبة الحاكم؛ لأنها مصدر سُلطته وصاحبة النظر في ولايته وعزله.
- وتؤكد الوثيقة مبدأ المساواة بين المواطنين من مسلمين وغيرهم في مؤازرة الدولة اقتصاديًا حال محاربتهم للأعداء: «وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين»، كما يقر فيه ضرورة الموالاة والنصرة بين الطرفين ضد العدو.
- تأكيد المفهوم الاجتماعي الأصيل للمواطنة: «وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم» فتحدد الوثيقة أولويات المناصرة بين أهل هذه الصحيفة وبين

أعدائهم الذين يحاربونهم، وهذا مفهوم عسكري دفاعي،مع توضيح ضرورة التعاون في إبداء الرأي والنصيحة والتشاور.

- منع أي تعاون بين طوائف المجتمع وأعدائه «وأنه لا يجير مشرك مالًا لقريش ولا نفسًا، ولا يحول دونه على مؤمن، سواء في حماية النفوس أم الحفاظ على الأعراض والأموال. وأن بينهم النصر على من دهم يثرب، وأنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم» ينص فيه النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– على مبدأ أصيل من مبادئ المواطنة، وهو وجوب الدفاع عن الوطن، كما ينص على أن النصر يكون دائمًا في حال الحق والعدل، لا في حال الظلم والإثم، فلا يعطى حقُّ المواطنة للمواطن حقَّ البراءة إذا ظلم أو أَثِم؛ لأن الدين الإسلامي يناصر الحق ويقف بجواره، وينهى عن الباطل ويواجهه.
- تأكيد مبدأ المسئولية الشخصية وتقريره للفرد والجماعة على حد سواء،فكل إنسان مسئول عما اقترف: «وأنه لم يأثم امرؤ بحليفه»، وهذا مبدأ من مبادئ الإسلام السمحة، أنه لا يعاقب الجماعة أو يؤاخذها بسلوك فرد، انطلاقًا من قوله تعالي: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾، وقوله سبحانه: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾. وهذا غاية العدل والإنصاف الذي تسعى لتحقيقه الدساتير الحديثة.

وهذا غيض من فيض لما تضمنته هذه الصحيفة من مبادئ تقدم مثلًا أعلى للمواطنة أقرت بحقوق المواطنين في الوطن الواحد، وبيَّنت أنه لا فرق بينهم في تحمل المسئوليات، وأنه لا حق لأحد أن يُمْنَح شيئًا من التمييز على حساب الآخر، أو أن يفرق بينه وبين غيره على أساس عقدي أو عنصري؛ فالإسلام يقرر أن معيار التمييز والتكريم هو العمل الصالح وخدمة المجتمع والحفاظ على أمنه وسلامته.

■ شـرعية انتـخـاب الـصـديـق

تتضح أمام من ينصف التاريخ الحقيقة الراسخة التي يتجاهلها كثيرٌ من الحركات الإسلامية السلفية المتشددة من أن إسلامنا الحنيف أو نبي الرحمة لم يفرضا أو يرسما يومًا شكلًا محددًا ثابتًا للدولة أو النظام السياسي، لا في القرآن الكريم ولا السنّة النبوية المطهرة. وعندما شكّل النبي -صلى الله عليه وآله وسلّم- حكومتَه في المدينة المنورة، كان ذلك بتدبيره الشخصي بحسبانها الأنسب لشكل المجتمع البسيط في المدينة، وهو الأمر الذي استمر في عهد الخلفاء الراشدين حيث لم تُصَغ نظرية واحدة محددة لتداول السلطة وكيفية اختيار الحاكم، حيث لم تستند بيعة الخليفة الأول إلى مبدأ شرعي متفق عليه (بصرف النظر عن جليل مكانة أبي بكر الصديق) ومن دون استناد إلى مبدأ شرعي، سواء كان نصًّا أو احتكامًا إلى اجتهاد في غياب النص، حيث لم تكن دائرة الشورى التي تنتخب الإمام واضحة تمامًا، وهل تضم المهاجرين والأنصار أم تقتصر على المهاجرين أم على قريش عمومًا، كما لم يكن واضحًا أيضًا مَن الفئة التي يحق لها الترشح للإمامة، وهل هي مقتصرة على المهاجرين من قريش أم تشمل الأنصار أم تتسع لتشمل بقية الصحابة ممن أسلم بعد الفتح. وبعيدًا عن روايات التبجيل السنية أو سهام المطاعن الشيعية التي تناولت كيفية تولي الصديق أبي بكر مسند الخلافة، فسواء اعتمدنا معيار الإجماع فيتعذر القول بأن هذا المعيار قد طبق بالفعل يومها، وهذا ما يستظهر من قول الفاروق عمر: (إن عليًّا والزبير ومن معهم تخلفوا في بيت فاطمة، وتخلفت الأنصار عنا في سقيفة بني ساعدة)، ولا يمكن صرف الإجماع إلا إلى القبول اللاحق على اجتماع السقيفة -كما سنرى- الذي بايع فيه علي وبنو هاشم وعدد من الأنصار. وظل سيد الخزرج سعد بن عبادة على موقفه الرافض لبيعة أبي بكر حتى مات في خلافة عمر ولم يبايع

الشيخين، وعليه انتهى الماوردي إلى عدم استلزام الإجماع على الخليفة من قبل كل أهل الحل والعقد.

وقد أدى كل هذا الأمر إلى غياب قاعدة شرعية واضحة ملزمة سواء في بيعة الصديق أبي بكر أو في مَن أعقبه من الخلفاء الراشدين إلى أن يسود بعد مضي ثلاثين سنة هي عمر الخلافة الراشدة مبدأ الغلبة والقهر، حيث لا تشريع يحول دونه، وعليه قامت واستقرت إمرة بني أمية ومن بعدهم إمرة بني مروان، وإن كان الاختلاف بعد وفاة الرسول -صلى الله عليه وآله وسلّم- لم يُفضِ إلى انشقاق، ولكن بذرته قد كمنت، وزاد الأمر تعقيدًا أنْ تباينت طرق اعتلاء الخلفاء الثلاثة، قد تمت بيعة أبي بكر على مرحلتين كما أشرنا، فكانت البيعة الأولى في سقيفة بني ساعدة، التي تمت بمبادرة من قِبل عمر بن الخطاب وأبي عبيدة بن الجراح بصورة عاجلة وفي أجواء متوترة صعبة ورسول الله -صلى الله عليه وآله وسلّم- بعد لم يوار الثرى، ولم يشترك فيها سوى مجموعة من قيادات الأوس والخزرج، حتى إن عمر نفسه انتقدها بعد ذلك بقوله: «ألا إن بيعة أبي بكر كانت فلتة وقى الله شرها، فمن عاد إلى مثلها فاقتلوه». إلا أن بيعة أبي بكر الصديق اكتملت شرعيتها في المرحلة الثانية عندما ذهب إلى المسجد وبايعه عامة المسلمين في المدينة، ورضوا به، وأمسك الإمام علي عن بيعة أبي بكر لفترة من الوقت، ولكن الثابت أنه عاد وبايع أبا بكر، وخصوصًا بعد حدوث الردة وتفشي أمرها بين قبائل عربية عدة وصارت تشكل خطرًا حقيقيًا على الإسلام ودولته. حيث ذهب إليه بعض الصحابة وفيهم عثمان بن عفان الذي قال له: (يا بن عم إنه لا يخرج أحد إلى قتال هؤلاء وأنت لم تبايع)، فأرسل علي إلى أبي بكر أن يأتيه، فأتاه أبو بكر فبايعه علي.

وبالطبع، لم يكن يمكن في تلك الظروف أن يتم أخذ البيعة من بقية المسلمين خارج المدينة في ذلك اليوم، ولم يمكن أن تتوقف خلافة أبي بكر على استشارتهم وأخذ رأيهم في الموضوع، خصوصًا أن المهاجرين والأنصار كانوا هم الطليعة الرسالية التي جاهدت من أجل نشر الدين الإسلامي، والنخبة القبلية التي تمثل

غالبيتهم، ولم تكن ثمة أية مجالس استشارية مُعدّة ومتفق عليها من قبل وتضم رؤساء الأحزاب والملوك والقبائل العربية، حتى يتم اللجوء إليها لبحث موضوع الخلافة أو اختيار الخليفة الجديد؛ إذ إن العملية تمت بصورة عفوية وسريعة.

والجدير بالملاحظة هنا أن جميع الفرقاء ممن اختلفوا في شأن الخليفة بعد رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- كان حديثهم وجُل حججهم تصدر عن خلافة السلطة السياسية للرسول أو (سلطان محمد) بحصر اللفظ الذي استخدموه في نقاشاتهم، ولم يستخدموا عبارة خلافة الدين في أغلب المرويات حيث ظل الدين بعيدًا عن معترك البحث عن الأفضل لخلافة الرسول على رأس دولة الإسلام.

وظل أبو بكر الصديق يعتقد أن السلطة هي من حق الأمة ، وأنها لم تتنازل له عن حقها إلى الأبد، ولذلك فقد كان يؤمن بأن من حق الأمة أن تستعيد السلطة منه متى تشاء، حتى إذا لم يرتكب جرمًا أو ينقض عهدًا يوجب عزله، فقد قال في خطبة له قرب وفاته: «إن الله ردَّ عليكم أمركم فأمِّروا عليكم من أحببتم».

ومارس أبو بكر الصديق سلطته كاملةً فور استتباب أمر الخلافة له، حيث واجه موجة حادة وهجمة عاتية من الردة، كما امتنع كثير من العرب عن أداء الزكاة على شاتهم وبعيرهم، فبسط الصديق أول القرارات المصيرية في الدولة الفتية للنقاش، فمال غالبية الصحابة إلى عدم خوض القتال متعللين بأسباب تكتيكية قائمة على موازين القوى قائلين إنه لا طاقة لنا اليوم بقتال العرب جميعًا.. وذهب فريق منهم إلى تقسيمهم إلى ضربين: الأول منهم: قوم كفروا بعد إسلامهم، مثل: مسيلمة، وطليحة، والعنسي وأصحابهم، وكانوا مرتدين بالخروج من الملة بلا خلاف. والضرب الثاني: قوم منعوا الزكاة مع مقامهم على الإسلام وتمسكهم به. وأوجبوا قتال الفريق الأول دون الثاني.

وهنا تصدى أبو بكر الصديق لدوره كقائد للدولة التي تواجه خطرًا وحسم الخلاف الذي ثار في وجوبية القتال من عدمه، فصعد المنبر ليعلن أول القرارت

المصيرية بكلمته المشهورة: (والله لو منعوني عقال بعير كانوا يعطونه لرسول الله لجاهدتهم عليه).

وباليقين كانت الردة وادعاء النبوة فورة طمع من قبائل لم يدخل الإيمان في قلوبها، فهي تطمع أن تفرض سيطرتها بادعاء النبوة، كما قال تعالى: ﴿۞ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَـٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ﴾. ومثال ذلك فور موت رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلّم- قام عيينة بن حصن في غطفان فقال: «ما أعرف حدود غطفان منذ انقطع ما بيننا وبين بني أسد، وإني لمجدد الحلف الذي كان بيننا في القديم. ومتابع طليحة: ووالله لأن نتبع نبيًّا من الحليفين أحب إلينا من أن نتبع نبيًّا من قريش. وقد مات محمد وبقي طليحة». ويقصد هنا بالحليفين: غطفانًا وأسدًا. وهو كقول أبي جهل: «نبيٌّ من بني هاشم! لا والله حتى يكون نبي من مخزوم»!..

وسرعان ما تجرأت القبائل بعد رحيل الحبيب المصطفى (ﷺ) وهاجمت المدينة، لكنها اكتشفت أن دولة المسلمين راسخة قوية، وأنهم ثابتون على نبوة نبيهم -صلى الله عليه وآله وسلّم-. وبعض المرتدين تم ردعهم عن طريق من ثبت على الإسلام من قبائلهم. وبعض القبائل ممن أجمعت أمرها على الردة تطلب الأمر لردعهم إرسال قوة من المدينة عاصمة الخلافة كما حدث مع طليحة الأسدي، أو إرسال جيش كبير وخوض معركة صعبة معهم، كمسيلمة الكذاب في اليمامة. وقد وصف الإمام علي ردة القبائل بعد النبي -صلى الله عليه وآله وسلّم- فقال في رسالته إلى أهل مصر: «فأمسكت يدي حتى رأيت راجعة الناس قد رجعت عن الإسلام، يدعون إلى محق دين محمد -صلى الله عليه وآله وسلم- ». وهذا يبرز رأي علي بن أبي طالب في حرب من ثبتت ردته من قبائل العرب، بل تورد مصادر عدة مثل تاريخ دمشق أن الإمام علي برز لقتال عدد من قبائل العرب المرتدة حال مهاجمتها أطراف المدينة. وإن لم يخرج في الجيوش التي برزت لقتال المرتدين. وقد كانت أهم حركات الردة ثلاثًا:

- **حركـة الأسـود العنسي**: الـذي ادعى النبـوة في اليمن وقتـل عامل النبي -صلى الله عليه وآله وسـلّم- وسيطر على صنعاء، وقد أنهى النبي -صلى الله عليـه وآلـه وسـلّم- حركته في حياتـه، وجاءه الوحـي وهو في مرض وفاته (ﷺ) يبشره بقتل الأسود العنسي، وأخبر المسلمين بذلك.
- **والثانيـة: حركة طليحة الأسـدي**: الذي جمع عدة قبائـل وهاجم المدينة، فنهـض الصحابة وفيهم علي بن أبي طالـب لمواجهته. فتقهقر طليحة عن المدينـة وجمع فلوله وانضمـت إليه غطفان عند بئـر بُـزَّاخَة، وعبثًا حاول من ثبت على الإسـلام مـن القبيلتين أن يردوهما إلى الديـن. ثم التقى بهما جيش المسـلمين فانهزم طليحة وهرب إلى الشام حيث مات هناك وتفرق أتباعه، وانتهت حركته.
- **والثالثـة: حركة مسيلمة الكذاب**: وهي من أهم حـركات الردة والتنبؤ، فقـد جمـع حوله قبيلته بني حنيفـة، ومعهم غيرهـم، وكان مركزه اليمامة، ومـكان المعركة يسـمى عَقْرُبَاء، وتسـمى اليوم الجـبيلـة، وتبعد نحو 40 كيلـو مترًا عن الرياض، وكانت معركة اليمامة حامية الوطيس، استشـهد فيهـا من المسـلمين نحـو ألـف ومئتين، وقُتـل من أتبـاع مسـيلمة واحدٌ وعشرون ألفًا، وفيها قُتل مسيلمة وانتهت فريته.

ولـما فـرغ من قتال أهل الردة طـرح أبو بكر لجمهور الناخبـين أو لنقل لأهل الحـل والعقـد الثقة في نفسـه، حيث قـام في الـنـاس خطيبًا ثـلاثة أيــام يـقول: «أقـيلوني». فـقام إليه الإمام علي فقال: «يا أبا بكر، لا نقيلك ولا نستقيلك».

■ استخلاف الفاروق عمر بن الخطاب..

ثم جاء استخلاف الفاروق عمر بن الخطاب، وعندما تسلّم عمر السلطة والحكم كانت الجزيرة العربية قد خرجت للتو من أتون حروب الردة القاسية لتثبيت أركان الدين، وخلفت خسائر كثيرة في الأرواح. كما خلقت الكثير من المرارة والأحقاد الداخلية، وكان أول ما فعله الخليفة الجديد هو إرجاع الأسرى والسبي إلى أهاليهم وقبائلهم. ولأول مرة يتم توحيد الجزيرة العربية تحت سلطة مركزية واحدة وحسب رؤيتها هي سلطة المدينة.

أطلق عمر على نفسه اسم أمير المؤمنين، وجمع هذا الاسم بين أمور الدنيا (الأمير) وأمور الدين (المؤمنين) معًا، وكان الشق الدنيوي في منتهى التواضع قياسًا بتسميات ذلك الوقت. وربط الشق الديني بالإيمان وليس بالإسلام، وكأن شرط تولي المنصب الأول هو التأكد من تديّن المرشح، فالمؤمن الحقيقي لا يبغي إلا مصلحة الأمة وتقدمها.

ويضع عمر في خطبته فور موت أبي بكر الصديق الوثيقة الدستورية التي سيسير على هديها في حكمه، فيعلن عدم تمتع رأس الدولة بحصانة خاصة بقوله: «من رأى منكم فِيَّ اعوجاجًا فليقوّمه». ويرسم ضمانات الحقوق والحريات الواجبة على عماله كفالتها للرعية في مختلف أصقاع الدولة الإسلامية بقوله: «ألا وإني لم أبعثكم أمراء ولا جبارين، ولكن بعثتكم أئمة الهدى، يُقتدى بكم، فأدرؤوا على المسلمين حقوقهم، ولا تضربوهم فتذلوهم، وتمنعوهم حقوقهم فتكفروهم، ولا تغلقوا الأبواب دونهم فيأكل قويهم ضعيفهم».

وكان شديد الحرص على المال العام والمحاسبة لعماله، وإذا بلغه أن أحدهم قد تعاظمت ثروته فكان يرسل إليه ليرفع تقريرًا تفصيليًّا عن أصل ماله والزيادة التي طالته. ثم يرسل رسله يشاطرون ذلك الوالي ماله ؛ فعل هذا مع أبي موسي

الأشعري واليه على البصرة، وعمرو بن العاص واليه على مصر، وأبي هريرة واليه على البحرين، والنعمان بن عدي واليه على ميسان، ونافع بن عمرو واليه على مكة، وعقبة بن أبي سفيان واليه على الطائف، وغيرهم من وجوه الصحابة والعرب.

ورغم أن صفحات التاريخ تشهد أن عمر بن الخطاب كان مؤسس النظام والدواوين في دولة الإسلام، لكن اليقين عندي أنه لم يكن يروم تشييد دولة كبرى بالامتداد الذي وصلت إليه، فقد كان شديد الخشية من اختلاط أتباع الدين الجديد بالحضارات والملل الأخرى، وما قد يجلبه ذلك من عواقب سيئة، تحققت بالفعل على مرور الأيام.

فلم يكن الفاروق عمر يروم أو يتمنى أن تنساح حدود الدولة الجديدة إلى ما بعد الحدود الفلسطينية المصرية عند معبر رفح الحالي، ولكن الذي تجاوزها كان القائد الداهية عمرو بن العاص وهو يشاغل مبعوث عمر إليه، حتى يدخل الأراضي المصرية ويفتح عندها خطاب الخليفة عمر. وبدهاء عمرو بن العاص كان يعلم بفهمه لشخصية الخليفة وحقيقة توجهاته عدم رغبته في توسع الفتوحات، وريثما تأكد عمرو من تجاوزه الحدود فتح كتاب الخليفة وأبلغ رسوله أن الجيش الإسلامي قد وطئ أرض مصر ولا مندوحة من الاستمرار. فوضع الخليفة أمام الأمر الواقع. ونفس الرغبة في عدم توسع الفتوحات كانت تعتمر في قلب عمر حيال جبهة البصرة، حيث كان يرغب أن لا تذهب الفتوحات إلى ما بعد منطقة الأحواز (عربستان حاليًّا)، متمنيًا جبلًا من نار يفصله عن بلاد فارس، فلا يقاتلهم ولا يقاتلونه. لكن القادة الميدانيين للجيش الإسلامي حملوه على قبول التوغل في بلاد فارس لتأمين النصر وأن ذلك لن يتأتى إلا بملاحقة فلول جيش كسرى التي بدأت تتجمع في خراسان من جديد، وظلت مدن فارسية عديدة تنتفض على الجيش الإسلامي فيعيد فتحها من جديد. ورفض عمر بن الخطاب بشدة كل إغراءات معاوية بن أبي سفيان المتكررة له بغزو الروم وركوب البحر، وكان يقول: «لوددت أن الدرب جمرة بيننا وبينهم، لنا ما دونه، وللروم ما وراءه». وعليه انتظر معاوية موت الفاروق عمر ليركب البحر في خلافة عثمان.

أمـا ما حدث بعد ذلك من توسع للفتوحات من أقاصي الصين إلى الأندلس، فلم تُـشر أي من كتب السـير أو مصنفات التاريخ إلى أنه كان في مخطط المصطفى -صـلى الله عليـه وآله وسـلّم- أو خليفتيه الراشـدين، لذا فقد تباينـت الآراء في تسـويغه، فذهـب جمهـرة إلى أن دافع الفتوحات مرده إلى حماسـة المسـلمين لنشر الدين، ووجد البعض أن المبرر المقبول هو أنه كان نضالًا تحريريًّا ضد إمبراطوريتين ظالمتين تـُخضعان جـل العالم بالسـيف وتستعبدان شعوبه، فكان لزامًا تخليصهم من نير الاسـتعباد وفتح الباب لسـماع دعوة الإسـلام من دون إكـراه، وآية ذلك والدليـل عليـه ما تسـطره كتب التاريخ والسـير من قصص مسـاعدة أهل البلاد المفتوحة للمسـلمين في فتوحاتهم. في حين رجح قلةٌ أن هدف الجيش الإسـلامي من فتوحاته هو الطمع في المكاسب والمغانم.

ولقـد كانـت رغبة الفاروق عمر بـن الخطاب بالوقوف عند مشـارف الوطن العربي في الفتوحات سـعيًا وراء تحقيق التجانس بين عناصر المجتمع الإسـلامي الذي يجمعهم اللسان العربي.

وفي ذلـك الوقـت من عـام 634 ميلادية كان يـسـود الكـرة الأرضية ثـلاثة أقطـاب أو إمبراطوريـات: إمبراطوريـة التانـج حديثة النشـوء في شرق آسـيا في الصين وما حولها، وإمبراطورية الساسـان في بلاد فارس والعراق وجزء كبير من الهنـد، وإمبراطوريـة بيزنطة في تركيا وأجزاء كبيرة من أوروبا وسـوريا والشـمال الإفريقي كاملًا.

وكانت مدة حكم الفاروق البالغة عشر سنوات كفيلة بهزّ العالم وتغيير معالمه؛ فعنـد وفاة عمر كان يسـود الكرة الأرضية قطبـان: إمبراطورية التانج في الصين، والدولـة الإسـلامية في جزيـرة العرب، مصر، وشـمال إفريقيا الـذي لم يعد تابعًا لبيزنطة، سوريا، والعراق، وبلاد فارس، وأجزاء الهند لا تتبع أحدًا، واختفت إلى الأبـد إمبراطورية الساسـان، وتقلصت إمبراطورية بيزنطـة إلى حد كبير (فقدت ثلثي أراضيها).

■ وجاء عثمان بن عفان وبدأ الخلاف

مع هذه الدولة الفتيّة الكبرى رفض الفاروق عمر عندما دنت ساعة الرحيل كسلفه أبي بكر الصديق أن يحوِّل الخلافة إلى مُلك عضوض بأن يورث الحكم إلى أبنائه، رغم اقتراح بعض الصحابة عليه ذلك، إذ قالوا له: «يا أمير المؤمنين إن في عبد الله بن عمر للخلافة موضعًا فاستخلفه، فإنا راضون به» فقال عمر: «حسب آل الخطاب تحمل رجل منهم الخلافة. والتفت إلى ابنه محذرًا: يا عبد الله إياك ثم إياك لا تتلبس بها».

ثم أرادها خليفة المسلمين عمر بن الخطاب أن تكون في هيئة ناخبين من ستة من الصحابة هم المرشحون والناخبون على السواء. لكن واقع الأمر تحول مع بدء المداولات إلى أن يصير المرشحون خمسة للمنصب الجليل والناخب واحدًا؛ لأن الأمر أوكل إلى الصحابي عبد الرحمن بن عوف وحده الذي أخرج نفسه من قائمة المرشحين لمسند الخلافة ليصير الناخب الوحيد. وليقرر بكلمة منه أخطر قرار في تاريخ المسلمين.. ويلاحظ على اختيار عبد الرحمن بن عوف للخليفة أنه بُني على قاعدة غير معروفة في الشرع؛ إذ قرن سيرة الشيخين أبي بكر وعمر بالقرآن الكريم وسنّة الرسول -صلى الله عليه وآله وسلّم- شرطًا على كل من عثمان وعليّ، والثابت أنه لم يقُل أحد من قبلُ ولا من بعدُ إن سيرة الشيخين تُقرَن بكتاب الله وسنّة رسوله -صلى الله عليه وآله وسلّم- وحين أراد الإمام عليّ أن ينبهه إلى ذلك وأن التزامه سيكون بكتاب الله وسنّة رسوله فقط وأن يجتهد مثلما اجتهدا الشيخان، اتجه عبد الرحمن بن عوف إلى اختيار عثمان بن عفان.

وتولى عثمان بن عفان مسند الخلافة وهو شيخ رقيق لين شديد الرعاية لذوي قرباه، وقد كان عمر بن الخطاب شدّد على قريش وحاسب عماله حسابًا شديدًا، مثال ذلك ما فعله مع أبي هريرة وكان واليًا على البحرين وحين عاد إلى المدينة وجده يسوق عيرًا أمامه، فسأله الخليفة عمر عنها فقال له إنما هي نياق توالدت،

فلم يقبل منه هذا التبرير وضربه بالدرة وقسم أمواله، وشبيه ذلك فعل الفاروق عمر مع عمرو بن العاص..

وتناقلت الروايات وتكاثرت عن تساهل عثمان بن عفان، فيروي الحسن البصري أنه شاهد عثمان وهو يخطب بعد أن بويع بالخلافة، وكان الحسن البصري يومئذٍ صغيرًا، فسمعته يقول: «أيها الناس اغدوا على كسوتكم»، فيغدون، فيجاء بالحلل فتقسم بينهم. حتى والله سمعت أذناي: «يا معشر المسلمين اغدوا على السمن والعسل». فيغدون فيقسم بينهم السمن والعسل... فلم يزل المال متوفرًا، حتى لقد بيعت الجارية بوزنها، وبيع الفرس بعشرة آلاف دينار، وبيع البعير بألف، والنخلة الواحدة بألف.

هكذا حدث الانفتاح على أوسع أبوابه، انقلاب كامل على نهج الفاروق عمر وأبي بكر من قبله. ومخالفة صريحة واضحة لا لبس فيها على شرط انتخاب عثمان أن يعمل بسيرة الشيخين، مخالفة لا يحجبها القداسة المطلقة التي يلبسها الفقهاء على سيرة الخلفاء.

ومع مرور الأيام، كثرت المطاعن في عثمان والروايات التي تسطر عن تساهله في بيت المال، ولم يعصمه من أسهم النقد والاحتجاج ما سبق أن قدمه من الدعم وعظيم التضحيات في صدر الإسلام. كانت استراتيجية عثمان أن يدير الإمارات المترامية الأطراف عن طريق أهل الثقة وأمراء الدهاء، لا عن طريق الصحابة الزهاد رهبان الليل وفرسان النهار. ولم يكن هناك أقرب لتحقيق استراتيجية عثمان إلا أقاربه من بني أمية على وهن في إسلامهم لا يخفى على أحد، وتأخر في دخولهم الإسلام بعد طول عداء له..

مضى عثمان يعزل رموز الصحابة ويولي مكانهم قرباه من بني أمية، فيعزل أبا موسى الأشعري عن البصرة ويولي مكانه عبد الله بن عامر، ويعزل سعد بن أبي وقاص ويولي أخاه لأمه الوليد بن عقبة المشهور بالكفر والفسوق، وقصة صلاته الناس الصبح أربعًا وهو سكران مشهورة، وسماحه لساحر يُدعى

بطـروي أن يلعـب بصحن المسـجد فكان يذبح نفسـه بالسـيف ولا يضره، حتى استـفز هـذا الفعـل الصحـابي الصالـح جُنـدب الأزدي فـضرب عنق السـاحر بالسيف، ثـم قـرأ: ﴿أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ (الأنبياء: 3). ثم قال له أحيِ نفسـك إن كنت صادقًا. وتسبب ذلك في فتنة كبيرة مع قبيلة الأزد القوية التي منعته، ولم يعزله إلا بعد أن ضغط الصحابة عليه ومن قبلهم السـيدة عائشـة -رضي الله عنها- التي رفعت حذاء رسول الله في وجهه، وقالت: أبليتم سنته ولم يبـل بعدُ حذاؤه، وعندما تحقق للجميـع بما فيه عثمان اضطر للموافقة على أن يحد الوليد بشربه الخمر، ولما حضر الوليد لإقامة الحد عليه أخذ عثمان السـوط فألقاه إلى مـن حضر مـن الصحابة وقال وهو مغضب: من شـاء منكـم فليقم الحد على أخـي. فأحجـم الصحابة الحضور في مجلس عثمان عن ضربـه. هنا قام الإمام علي مخافة تعطيل الحد ليحده بيده، فناشـده الوليد الله والقرابة! فقال علي بقوة الحق: اسـكت أبـا وهب إنما هلك بنو إسرائيـل لتعطيلهم الحدود، فلما فـرغ الإمام قال بيقـين الذي لا يخاف في الله لومة لائـم: لتدعوني قريش بعدها جلادًا. وبعد عزل الوليـد عـيّن عثمان أحد قرابته وهو سـعيد بن العاص، وهو الأمـر الذي لم ير فيه الكوفيون تغيرًا في السياسة بل مجرد تبديل للوجوه، فأنشد شاعرهـم:

فررت من الوليـد إلى سعيد	كأهل الحجر إذ جزعوا فباروا
يلينـا من قريشـ كل عام	أميـر محـدث أو مستشـار
لنـا نـار تحرقنـا فنخشى	وليس لهم فـلا يخشون نار

ولم يخيب سعيد بن العاص سوء ظن الكوفيين، فسرعان ما صعد المنبر وتكلم بكلام قصير ونسـبهم للشـقاق والنفاق، وختمها أن قال: إنما هذا السـواد بستان لأغيلمةٍ من قريش. واشتهرت هذه العبارة وستصير بعد قليل سببًا في الثورة على الخليفة نفسه. وكتب الكوفيون إلى عثمان كتابًا من عبارة واحدة حمله أحد أبطالهم وهو مالك الأشتر النخعي: (لا حاجة لنا في سعيدك أو وليدك)!. ثم يعزل عثمان عمرو بن العاص ليولي عبد الله بن سعد بن أبي السرح على مصر.

ثـم تكـون الطامة التي تسـتحق التوقـف حين يعمد عثمان لطريد رسـول الله الحكـم بـن أبي العاص فيرده ثم مـا يلبث أن يوليه على المدينـة.. وهو الأمر الذي اضطـرب لـه الصحـب الكـرام. طريد الرسـول الأمين يصـيره عثـمان واليًا على عاصمـة الإسـلام! وأصـل القصـة أن الحكـم بـن أبي العاص الذي لعنـه الله قد كان نفـاه النبـي من المدينـة إلى الطائف، وذلك أنه كان يـؤذي النبي حتى بلغ من أذاه لـه أنه كان يتسـلق عـلى حائط بيته ليراه مـع أزواجه فضربه -صـلى الله عليه وآله وسـلم- وهو متطلع عليه ولما وقعت عيناه في عينه سـمر عينه في وجه النبي ليغيظه ثم نزل، وكان النبي إذا مشـى خلفه الحكم يتخلع في مشـيته ليقلد مشـية سـيدنا النبي الأمين بشكل فيه استهزاء، وكان يقف نصب عينه فإذا تكلم -صلى الله عليـه وآلـه وسـلم- يذكر شـيئًا من الوحـي إليـه وشرع لأمته من الدين شـيئًا ووعظهـم وأنذرهم أو وعدهم أو رغبهم وعلم شـيئا من الحكم لوى شـدقيه في وجهه يحكيه ويعيب به، فلما طال ذلك منه على رسـول الله وقد كان يداري قومه بنـي أمية من قبل بالصـبر عليه. لكن زيادة تبجحه وفسـوقه دفع الحبيب إلى نفيه إلى الطائف وإباحة دمه متى وجد بالمدينة، وانتقل رسول الله -صلى الله عليه وآله وسـلم- إلى رب العالمين والحكم مطرود، فلما ولي أبو بكر جاءه عثمان فسـأله في رده فامتنـع عليـه وقـال له: قد مضى رسـول الله ولم يأذن له في الـرد فإني لا أرده. و مات أبـو بكـر وولي عمر فجاءه عثمان يسـأله في رده فقال له: لقد كنت سـألت رسـول الله في ذلـك فلم يجبك وسـألت أبا بكـر فلم يجبك ولسـت أرى إجابتك إلى ما سـألت، فأمسِـك يا عثمان فـإني لا أخالف صاحبي.. ولـما ولي عثمان الأمر سرعان ما اسـتدعى الحكم مـن الطائف إلى المدينة وآواه وحبـاه وأعطاه وأقطعه ناحية المربد بمدينة الرسـول، فعظم ذلك على المسلمين وقالوا آوى طريد رسول الله وحبـاه وأعطاه. وصاروا إلى الإمام علي ليكلم عثمان، فجاءه الإمام علي وقال لـه: قـد علمت يا عثـمان أن النبي قـد نفى هذا الرجـل عن المدينة ولم يـرده، وأن صاحبيك سـلكا سبيله في تبعيده واتبعا سنته في ذلك، وقد عظم على المسلمين ما صنعت في رده وإيوائه فأخرجه عن المدينة واسـلك في ذلك سنة النبي -صلى الله

عليـه وآله- فقال عثمان: يا عليّ قد علمت مكان هذا الرجل مني وأنه عمي، وقد كان النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- أخرجه عن المدينة لبلاغه ما لم يصح عليه، وقـد مضى النبي لسـبيله ورأى أبـو بكر وعمر ما رأياه، وأنـا أرى أن أصل رحمي وأقـضي حق عمي وهو ليـس شر أهل الأرض وفي الناس مـن هو شر منه. فقال الإمـام عـلي لـه: والله لئن بقيت يا عثـمان ليقول الناس فيك ما هـو شر من هذا.. وبالفعل صدق الإمام وقد كـان.

وقـد شـكلت تغيـيرات عثمان بدايـة التـنفـذ لبني أميـة، والتمكـين لدولتهم القادمـة حتـى إن الفرزدق يقول لعبـد الملك بن مروان مُقـررًا أن الخلافة قد أتته من جهة عـثمان:

تـراث عثمان كانوا الأولياء له ... سربال ملك عليهم غير مسلوبِ

فيرد عليه الشاعر الكميت الأسـدي قائلًا :

وقالـوا ورثناهـا أبانا وأُمَّنـا ... ومـا ورَثَتْهـم ذاك أمٌ ولا أبُ

يرون لهم حقًا على الناس واجبًا ... سِفاهًا وحقُ الهاشميين أوْجَبُ

■ خلافة الإمام عليّ

وأخيرًا جاء استخلاف الإمام عليّ في ظرف شديد الاستثناء وفي أجواء من الهرج الشديد بعد مقتل الخليفة الثالث.

وفي واقع الأمر لم يكن مقتل عثمان بن عفان إلا فاتحة للأزمة الحقيقية التي سوف تضع أحد كبار رجال الإسلام وأبرز أبطاله، وهو الإمام عليّ، وجهًا لوجه في مواجهة معاوية بن أبي سفيان، ممثل الأرستقراطية القرشية التقليدية، ويكاد المرء لا يصدق أن مثل هذه المواجهة كان يمكن أن تحدث في ذلك العهد القريب من النبوة، وأن واليًا كمعاوية يواجه خليفة بقدر الإمام علي ويرفض أن يبايعه، ثم يتمادى فينكر عليه خلافته، ويصل الأمر إلى أن يخوض حربًا ضده، ولا خلاف ولا جدال أن الإمام علي هو صاحب الفضل والسبق والعلم وكذا هو رب الشجاعة والبأس لا يجاريه في شيء من ذلك معاوية ولا حتى يقترب. ورغم ذلك كله استطاع معاوية أن يحشد الجيوش ويعبئ الفيالق لحرب علي، ولا أركن إلى التحليل السائد لدى الكثير من أن وقود ذلك الحشد كان قميص عثمان أو أصابع نائلة أو منبر دمشق المنصوب للبكاء والعويل، بل كان الوقود الذي جيش الجيوش ووطئ الأرض لمعاوية قوامه الخوف من عدل علي، وأحيتها كذلك ثارات من سيف علي وبطشه بالمشركين في مشاهده مع رسول الله، وفي المقابل جاءت خلافة عليّ لتحيي في قلوب الضعفاء والمهمشين ذكرى عدل عمر، لذا كان الصدام مروعًا بين مصالح دنيوية ومادية وثروات اكتنزت لا تُعد ولا تُحصى، وبين إسلام لا زال يتمتع بصفو منهجه ومعينه يحمل القوم على الجادة، ويحقق للجميع العدالة الاجتماعية.

وبالطبع، موقف الإمام علي بن أبي طالب من السلطة، وأنها من حق الأمة، أشهر من أن يذكر؛ فقد كان الإمام يؤمن بحق الأمة في الشورى، وبحق جميع المسلمين في الترشيح والانتخاب حيث يقول: «الواجب في حكم الله وحكم

الإسـلام على المسـلمين بعدمـا يمـوت إمامهم أو يقتـل أن لا يعملـوا عملًا ولا يحدثوا حدثًا ولا يقدموا يدًا ولا رجلًا ولا يبدؤوا بشيء قبل أن يختاروا لأنفسهم إمامًا عفيفًا عالمًا ورِعًا عارفًا بالقضاء والسن».

وقد أعلن رفضه لتأسـيس الخلافة على أسـاس الأعراف القبلية الجاهلية، أو حَصْـر الخلافة في قريش، فقال في خطبة له: «أيها الناس إن أحق الناس بهذا الأمر أقواهـم عليـه وأعلمهم بأمر الله فيه وقد علمتم أنـه لا ينبغي أن يكون الوالي على الفـروج والدماء والمغانم والأحكام وإمامة المسـلمين البخيل؛ فتكون في أموالهم نهمتـه، ولا الجاهل؛ فيضلهم بجهله، ولا الجـافي؛ فيقطعهم بجفائه، ولا الحائف للـدول؛ فيتخـذ قومًـا دون قوم، ولا المرتـشي؛ فيذهب بالحقـوق ويقف بها دون المقاطع، ولا المعطل للسنة، فيهلك الأمة».

ويسـطر التاريخ أنـه رغم حَرَج الظـرف الذي تمت بيعة الإمام عـلي فيه، فإنه أصر عـلى أن يعلـن في ثبـات وقـوة وشـفافية برنامجـه ومنهجه حال توليه مسـند الخلافـة، حيـث صـدح قائـلًا: (دعوني والتمسـوا غـيري، فإنـا مسـتقبلون أمرًا له وجـوه وألـوان، لا تقـوم له القلـوب، ولا تثبت عليه العقـول، وإن الآفاق قد أغامـت، والمحجـة قد تنكرت، واعلموا أني إن أجبتكـم ركبت بكم ما أعلم، ولم أصغ إلى قول القائل وعتب العاتب، وإن تركتموني فأنا كأحدكم ولعلي أسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه أمركم...).

وعندمـا قبل الثوار شروطه وألـحّوا عليـه ليقبل الخلافة، فقبلها قبول الزاهد فيها، وقال: (فإن أبيتم فإن بيعتي لا تكون سرًّا، ولا تكون إلا عن رضا المسلمين ولكن أخرج إلى المسـجد فمن شـاء أن يبايعني فليبايعني). وبـذا أقام الإمام علي حقه الدسـتوري على اشـتراط الرضـاء العام والبيعـة بالاختيار وليـس بالإكراه والقـسر، وحال أن تحقق من توافر هـذا الرضا قبل البيعة وصار إمام المتقين أميرًا للمؤمنين.

وواجهت دولة الإمام علي وخلافته الراشدة منذ اللحظة الأولى تمردًا من والي الشام معاوية بن أبي سفيان، وقد كان هو وأبوه من الطلقاء، لكن سرعان ما صعد نجمه عندما شارك في فتح الشام، ليتولى إمارة الأردن ثم ولاية الشام، ويستمر هناك سنوات وسنوات مما أتاح له فرصة ذهبية لتمكين سلطته هناك، وقد تساند معاوية لحجج قانونية ودستورية في نقض خلافة الإمام علي الشرعية، وتبرر الخروج عليه بخلاف ما أشرنا من طلبه دم الخليفة عثمان بن عفان، وكان أظهر ما بسطه معاوية حقه في أن يكون له رأي في الشورى، وعدم إلزامية البيعة له وهو في الشام، وهو ما دحضه الإمام بحجج وبراهين جلية تعد مبادئ دستورية وقانونية تصلح لكل زمان ومكان، فيقول له ردًّا على عدم التزامه بالشوري لعدم شهوده لها: إنه بايعني القوم الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان على ما بايعوهم عليه، فلم يكن للشاهد أن يختار ولا للغائب أن يرد، وإنّما الشورى للمهاجرين والأنصار، فإن اجتمعوا على رجل وسمّوه إمامًا كان ذلك لله رضا فإن خرج عن أمرهم خارج بطعن أو بدعة ردّوه إلى ما خرج منه، فإن أبى قاتلوه على اتّباعه غير سبيل المؤمنين وولاّه الله ما تولّى.. وبذا استشهد الإمام بالعرف الدستوري المستقر منذ انتخاب الصديق أبي بكر، وهو حق أهل المدينة باختيار الإمام ولزوم بيعته لسائر الأقطار، وهذا المبدأ فرضته الظروف ووسائل المواصلات وتقول به شروط سلامة الدولة الحديثة.

ثم يضع الإمام مبدأ دستوريًّا مهمًا أقرب لما نعرفه اليوم بأهلية الانضمام لهيئة الناخبين أو قريب مما تعارفنا عليه بالعزل السياسي، وهو أن الطلقاء (أهل مكة الذين عفا عنهم الرسول يوم فتح مكة) لا تحل لهم الخلافة ولا تعرض فيهم الشورى، أي لا خليفة منهم ولا يدخلون في جمعية اختيار الخليفة، ولا ريب أن تطبيق العزل السياسي على الطلقاء كان مفهومًا في ظل ظروف تأسيس الدولة الإسلامية الأولى، وطول عداء الطلقاء للرسالة المحمدية، وباليقين أنها كانت قيدًا دستوريًّا مؤقتًا لا يمكن أن يكتسب صفة الدوام بعد وفاة المهاجرين والأنصار والطلقاء ممن شهد فتح مكة، فيعود الأمر عندها لعموم المسلمين.

ودارت رحى الأيام تحمل لهذه الأمة فتنًا مظلمة، وهاهو معاوية يعلن نفسه خليفة ويأخذ البيعة لنفسه من أهل الشام، فيهتك العرف الدستوري الذي يحرم قيام خليفتين في وقت واحد، الإمام علي الخليفة الشرعي لعامة المسلمين في الحجاز والعراق ومصر واليمن وسائر البلاد، ومعاوية الذي استخلف نفسه على الشام، وهو الأمر الذي أفضى إلى حربٍ ضروس بين المسلمين استمرت سنوات خلافة الإمام علي، وأكلت في طريقها أكثر من مائة ألف مسلم من الطرفين، وانتهى الأمر بأسوأ ختام، استشهاد الإمام عليّ وهو يؤدي صلاة الفجر في شهر رمضان سنة أربعين للهجرة. وبوفاة الإمام علي اهتزت دولة الخلافة وارتج المسلمون، وظهرت بوادر الانهيار عند بيعة الإمام الحسن؛ عندما بدأ الناس ينفلتون من البيعة عندما أعلن الإمام الحسن الحرب على معاوية، وبدأ الكثيرون يتسربون لحضن معاوية وذهبه، وانتهى الأمر كما سيأتي علينا بصلح الإمام الحسن مع معاوية ونزوله عن حقه في الخلافة.

■ الخلاصة أن دولة الخلافة لم تقرر شكلاً لدولة الإسلام..

من دون الدخول في تفاصيل الأحداث التاريخية لكل استخلاف بما لا يتسع له المقام، فإن ما نستفيده من السرد السابق لكيفية تولي الخلفاء الراشدين لمسند الخلافة هو عدم وجود نص ديني يرسم شكلًا محددًا للدولة الإسلامية، وأن كل ما حدث كان باليقين تلقائيًا وعفويًا ومن وحي الاجتهاد السياسي للصحابة.

ورغم غياب النص والسوابق التي ترسم شكلًا محددًا للدولة الإسلامية وما تفصح عنه ممارسة الرسول وخلفائه الراشدين عن أن الحكم والدولة من شئون الناس الحياتية لا الدينية، يتواضعون عليها بما يُصلِح دنياهم من دون خروج على أحكام الإسلام ونواهيه، فإن اعتقاد أن الحكومة من شئون الدين وأنها من جملة الأحكام الدينية شاع واستقر في نفوس وعقول كثير من دعاة ومنتسبي الحركات الإسلامية. ورغم أن كل من له يسير علم بالإسلام وشرائعه يعلم أن أصول الدين هي التوحيد والمعاد والنبوة والعدل، وأن أركانه الشهادة والصلاة والصوم والزكاة والحج فقط، وهو ما كان يحرص رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلّم- على إنفاذه بين المسلمين من دون إلزامهم بشكل للقيادة والحكم كما أسلفنا، وأشد المدافعين عن الشكل الإسلامي للحكم لا يستطيع أن يسوق دليلًا واحدًا من القرآن أو السنّة أو ممارسة الخلفاء الراشدين يرسم بدقة ويبيّن بجلاء شكل الحكومة الإسلامية؛ لأن كلاً منهم مارسها وفق معطيات وظروف واقعه وزمانه.

نعم، هناك روايات عديدة تسهب في الحديث عن أهمية الحكومة وصفات الحاكم المسلم العادل النزيه، ولكنها لا ترسم بأية حال معالم محددة للحكومة الإسلامية ولا تقيم أركانها، التي بحسب طبيعتها ظاهرة بشرية متغيرة تنشأ وتتطور بمقتضيات الزمان والمكان، والدول المسلمة السكان التي تطبق أحكامه تقام أركانها ومؤسساتها الدستورية من واقع اختيار الناس وانتخابهم ممن تتوافر فيهم شروط القيادة، لا أمارات الصلاح والتقوى، وقديمًا أفتى علماء المسلمين

مثـل ابـن طاووس وكذا الإمام الشـاطبي بأن الكافر العـادل أفضل من المسـلم الظـالم، وعـللوا ذلك بقولهـم: «إن الكافر الـعادل عليه كُـفره ولنا عـدله، فيما المسلم الظالم له إسلامه وعلينا ظلمه».

وهكـذا فالثابـت أنه لم تـُصَغ نظرية واحدة محددة في صدر الإسـلام لتداول السـلطة وكيفية اختيـار الحاكم، ورغم أن دولة الإسـلام الأولى لم تعرف شـكلًا محددًا أو قالبًا ثابتًا، فإنها بصورة عامة اتسـمت بقدر كبير من الديمقراطية وقبول الآخـر. وحديثًـا أصدر فضيلـة المفتي السـابق والعالم المجدد الدكتـور علي جمعة فتـوى تؤكـد جـواز التعدديـة السياسـية، وأن الشريعة الإسـلامية لم تأمـر بنظام سـياسي محدد، بل تعـددت الأنظمة التي أقرها فقهاء الأمة عـلى مر العصور بدءًا من عصر النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وصحابته الكرام، وأن الشرع الحنيف تـرك الباب مفتوحًا أمام اجتهادات تناسـب العصور والأماكـن المختلفة، وهذه هـي طبيعة تعامل الشريعـة مع كل القضايا التي تحتمل التغيير والتبديل مسـتدلة عـلى ذلك بطريقـة تعيين الخلفاء بعد رسـول الله -صـلى الله عليه وآله وسـلّم-، وقـد أكدت الفتوى أن من يدلي بصوته لاختيـار أيٍّ من تلك الأحزاب ينبغي أن يتقي الله في صوته، وأن يتحرى مصلحة الأمة ما استطاع، مستشهدة بقوله تعالى: ﴿ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴾ (الزخرف: 19).

ولا ريـب أن فـترة الخلافـة الراشـدة شـهدت بجلاء ممارسـة الأمـة لحقها في المعارضة والإصلاح، وشكلت ثقافة عامة عند عموم المسلمين.

■ معاوية بن أبي سفيان والانقلاب الدستوري:

وبعد عهد الرسول -صلى الله عليه وآله وسلّم- والخلفاء الراشدين، اختلفت الصورة تمامًا مع السابقة الدستورية الخطيرة التي شكلها تحويل معاوية بن أبي سفيان الخلافة إلى مُلك عضوض إثر تنازل الإمام الحسن بن عليّ عن الخلافة. وقد عوّل الإمام الحسن في تنازله على فهم خاص له عن حق الإمام المطلق في اتخاذ أي إجراء يفضي إلى حقن دماء المسلمين إلى درجة تسليم السلطة إلى خصمه وخصم أبيه اللدود معاوية بن أبي سفيان، مما شكّل سابقة وصدمة عنيفة لأنصاره.

ومن دون دخول في جدل طويل عن تأصيل حق الإمام الحسن بن عليّ في التنازل عن الحكم وفق ما تراءى له بثاقب فهمه وعظيم علمه، فإنه أسفر عن نهاية العهد الراشد للخلافة المتسم بقدر كبير من الديمقراطية وبدء قيام الملك العضوض، وهو العصر الذي أخبر عنه المصطفى -صلى الله عليه وآله وسلّم- على أساس من القوة والغلبة. وجاءت الخلافة الأموية لتقطع طريق الخلافة الراشدة بحسبان اختلافها شكلًا ومضمونًا عن المتعارف عليه في فترة الخلفاء الأربعة. مع الأخذ في الحسبان أن نظام الخلافة الراشدة لم يكن نظامًا دينيًّا مثاليًّا مقدسًا، كما أصبح في نظر البعض في ما بعد، وإنما كان نظامًا إنسانيًّا يتحرك في إطار العقل والعرف والمصالح العامة والخاصة.

وقد أثار تنازل الإمام الحسن بن عليّ عددًا من الأسئلة حول بعض المفاهيم الدستورية السائدة لدى الخلفاء الراشدين، وفيما إذا كانت شرعية مقدسة غير قابلة للتعديل أو التبديل أم أنها نابعة من وحي الظروف والتقاليد والاجتهادات الخاصة، ومن ثمَّ فإنها قابلة للتعديل أو لصياغة شكل جديد. فإذا كان للإمام الحسن أن يسلم السلطة كاملة لمعاوية، فقد كان يجوز للإمام عليّ لو أراد أن يبقي معاوية على الشام، أو أن يرفعه لمصاف أهل الشورى ويغض النظر عن كونه

مـن الطلقاء. وقد صنفت في الإجابة عن هذه التسـاؤلات المدونات، وطال فيها الخلاف إلى يومنا هذا.

ولكـن الثابت عنـدي من وقائع التاريخ أن الفتنة الكـبرى التي بدأت بالثورة عـلى عثمان وقتله لم تنته إلى نتيجة واضحة حتى مقتل عليّ وتنازل الحسـن، كانت النتيجة الواضحة التي تمخضت عنها هي العودة مرة أخرى لنقطة الصفر، حيث سيطر الطلقاء على مسند رئاسة الدولة وكافة مفاصلها، وانتهت الخلافة الراشدة إلى غير رجعة، وهذا كله يؤكد أن النظام الدستوري الذي نشـأ في بواكير الدولة الإسلامية بقدر ما تضمن من مبادئ متقدمة لم يكن بالقوة والرسوخ الذي يجعله يصمد أمام الهزات أو يضمن انتقالًا سلسًا للسلطة من خليفة إلى خليفة، ويحافظ بالتالي على استمرارية دولة الخلافة..

والثابـت أيضًـا أنه سَرعان ما أسـفر معاوية بن أبي سـفيان عن مكنون نفسـه عندمـا وقـف في الكوفـة متحديًا أهلها: «يـا أهل الكوفـة.. أتـراني قاتلتكم على الصـلاة والـزكاة والحـج، وقد علمـت أنكم تصلّـون وتزكّون وتحجّـون، لكني قاتلتكم لأتأمر عليكم وعلى رقابكم، وقد أتاني الله ذلك وأنتم كارهون». وهكذا يتحـرر معاوية سريعًا مـن أي التزام تجاه الأمة المغلوبة عـلى أمرها، ويقيم منطقه وحكمـه على أسـاس من الحق المسـتمد مـن الله -عز وجل- مبـاشرة، غير عابئ برضـا الأمـة أو قبول الجماعـة وهو يصدح بقولـه: «أما بعد، فـإني والله ما وليتها بمحبة علمتها منكم ولا مسرة بولايتي، ولكن جالدتكم بسيفي هذا مجالدة».

ويعطف على ذلك بأن يطلب من جماعة المسلمين القبول بالأمر الواقع والتسليم بقواعد وشـكل الدولة الجديدة قائلًا: «فاقبلونا بما فينا فإن ما وراءنا شرٌّ لكم، وإنّ معروف زماننا هذا منكر زمان قد مضى، ومنكر زماننا معروف زمان لم يأتِ بعد». ثـم يجتهد معاوية في تأسـيس شرعية دسـتورية جديـدة للدولة التي يشـيدها وهي العصبية القبلية «القرشـية»، والتعويض بها عن الشـورى المفقودة ومبادئ العدالة الإسـلامية، فقـال: «... بنى الله هذا الملك على قريـش وجعل هذه الخلافة عليهم،

ولا يصح ذلك إلا عليهم، فكان الله يحوطهم في الجاهلية وهم على كفرهم بالله، أفتراه لا يحوطهم وهم على دينه؟». وكان حريصًا على ترويج ما روي عن النبي (ﷺ): «إن هذا الأمر في قريش».. منطق مغرق في الميكيافيلية يستحق التوقف.

اجتهد فيه معاوية بإضفاء قداسة مهيبة على نظامه بالإيحاء أن الله -عز وجل- هو من منحه الملك فيقول: (الأرض لله وأنا خليفة رسول الله، وإنما هو الملك الذي أتانا الله إياه).

وهذا الوعيد والتهديد كان معاوية يسوقه للمهاجرين والأنصار في حين كانت القبائل الشامية على قلب رجل واحد مع معاوية، ومارس الرجل منذ اللحظة الأولى لمقتل عثمان مخططًا ذكيًا للحشد النفسي والمعنوي لعموم أهل الشام اعتمد فيها على إذاعة أن عليًّا مالأ في قتل الخليفة وأنه رضي بذلك، وكان سيد أهل الشام وكبير قبائلها رجلًا يدعى شرحبيل بن السمط الكندي، ويحكي الدينوري عنه أن معاوية عمد إليه فاكتسب وده ولاءه، وأخذ شرحبيل هذا يعبئ الناس ضد الإمام علي ويجوب مدن الشام وبواديها قائلًا: إن عليًّا قتل عثمان وشرد قومه، ولم يبق إلا هذه البلاد وهو يريدها لنفسه، ولن يقوى على قتاله ورده إلا معاوية.

وهكذا دارت ماكينة الدهاء الأموية في توجيه حملتها الدعائية لرسم صورة مشوهة لفارس الإسلام الأول الإمام علي أدت إلى عدم اكتساب عليّ ولاء قبيلة واحدة من قبائل الشام. وقد تنبه معاوية لأهمية أن لا يعول في تكوين جيشه على القبائل الغريبة التي هاجرت من الحجاز أثناء فتح مكة؛ لأن فيهم من يعرف قدر علي وسبقه ومكانته من النبي الأعظم -صلى الله عليه وآله وسلم- فكان تعويله على قبائل الشام الأصلية التي كانت تعرف في السابق بعرب الروم أو العرب المتنصرة وأظهرها قبائل: تنوخ، ولخم، وغسان، وجذام، وبهراء. وعلى أكتاف هذه القبائل الخمس قام ملك معاوية، وعلى أسنّة رماحها دانت له العرب.

وقد قيم الإمام علي بثاقب نظره حقيقة القبائل الشامية، ومدى وعيها وإيمانها في نص طويل أورده ابن قتيبة في الإمامة والسياسة وكذا الطبري في تاريخه،

نجتزئ منه هذه السطور، حيث يقول فيهم الإمام: (... قاتلوا الخاطئين الضالين القاسطين المجرمين، الذين ليسوا بقراء للقرآن ولا فقهاء في الدين، ولا علماء في التأويل، ولا لهذا الأمر بأهل في سابقة الإسلام. والله لو ولوا عليكم لعملوا فيكم بأعمال كسرى وهرقل! تيسروا وتهيأوا للمسير إلى عدوكم من أهل المغرب، وقد بعثنا إلى إخوانكم من أهل البصرة ليقدموا عليكم، فإذا قدموا فاجتمعتم شخصنا إن شاء الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله..). فالإمام عليّ يرى أن قبائل الشام أكثر بعدًا عن الإسلام وصحيح الدين، وأقل فضلًا وسابقة في الفتوحات نفسها، وأن انتصارهم هو إحياء للكسروية والقيصرية.

ولعل الفارق بين جند عليّ وجند معاوية يلخصه قول الحجاج بن خزيمة الذي أتى لمعاوية يحمل نبأ قتل الخليفة عثمان بن عفان وأشار عليه بطلب الثأر للخليفة المغدور قائلًا: «أنت تقوى دون ما يقوى به عليّ لأن معك قومًا لا يقولون إذا سكت ويسكتون إذا نطقت، ولا يسألون إذا أمرت، ومع عليّ قوم يقولون إذا قال ويسألون إذا سكت، فقليلك خير من كثيره».. وهكذا وجد الداهية معاوية منذ البدء أدوات سلطوية جاهزة، يمكن له أن يستخدمها بالطريقة التي تحقق أحلامه وطموحاته.

وفي نفس الوقت استعان معاوية بقبائل الشام عن طريق تعزيز إحساسها بذاتها واستغلال جهل عوام أهل الشام بحقيقة الإمام العظيم علي بن أبي طالب، حتى إن المؤرخ المسعودي يحكي أن الرجل من زعماء أهل الشام وأرباب العقل فيهم إذا سُئل عن عليّ بن أبي طالب، يرد ويقول: هو لص من لصوص الفتن.

ويروي البلاذري والطبري وابن الأثير نموذجًا لجهل عوام الشام حتى بحقيقة النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-: (وفد عمرو بن العاص على معاوية ومعه قوم من أهل حمص، فأمرهم إذا دخلوا أن يقفوا ولا يسلّموا بالخلافة أو ينادوه أمير المؤمنين من باب التهوين ليزداد له حاجة، فلمّا دخلوا، قالوا: السلام عليك يا رسول الله، وتتابعوا على ذلك، فضحك معاوية، وقال: أعربوا وزجرهم. فلما خرجوا قال لهم عمرو: نهيتكم عن أن تسلّموا بالخلافة فسلّمتم بالنبوة، عليكم لعنة الله).

ومعاوية نفسه كان على يقين من أثر حشده المعنوي في نفوس أهل الشام ومدى عمق التضليل الذي سقط فيه عامتهم، فيذكر ابن قتيبة لما اشتدت الثورة على عثمان قدم معاوية بن أبي سفيان إلى المدينة فأتى مجلسًا فيه علي بن أبي طالب وطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص وعمار بن ياسر، فقال لهم: يا معشر الصحابة، أوصيكم بشيخي هذا - يعني عثمان - خيرًا، فوالله لئن قُتل بين أظهركم لأملأنها عليكم خيلًا ورجالًا، ثم أقبل على عمار بن ياسر الذي كان يراه أقل الحضور منعة ليوصل رسالته، فقال: يا عمار، إن بالشام مائة ألف فارس كل يأخذ العطاء مع مثلهم من أبنائهم وعبدانهم، لا يعرفون عليًّا ولا قرابته، ولا عمارًا ولا سابقته، ولا الزبير ولا صحابته، ولا طلحة ولا هجرته، ولا يتقون سعدًا ولا دعوته، فإياك يا عمار أن تقعد غدًا في فتنة تنجلي، فيقال: هذا قاتل عثمان، وهذا قاتل علي. فمعاوية بصريح العبارة رتب أموره ووطد ملكه ودعائم سلطانه وتوقع بدهائه الأحداث حتى قبل أن يقتل عثمان. وتوافرت له كل الأدوات لمناطحة الخليفة الرابع الذي لم يكن ليخرج عن عليّ أو واحد ممن كان بهذا المجلس من الشيوخ السابقين من المهاجرين، فقط كان الداهية ينتظر الإشارة التي تجمعت سحبها وهي مقتل الخليفة عثمان بن عفان، وقد كان.

ولم يُبْتَلَ الخليفة الرابع الإمام علي بمعاوية فقط، لكنه خرجت عليه قوة جديدة ليس لها علاقة بالصحابة ولا صلة بقريش، ولم تمتد شجرتها إلى عهد النبوة، وهم الخوارج الذين رفضوا الأطر السياسية القائمة، وصدحوا بأطر مختلفة للحكم وشكله قائمة على أحقية أي مسلم في تولي خلافة المسلمين من دون تمييز، وقد يكون هذا مقبولًا من الناحية العقائدية؛ إذ ليس في الإسلام ما يمنعه، لكنه من ناحية التطبيق مستحيل، خصوصًا في الدور الأول للدولة الإسلامية، فالخوارج أنفسهم أصحاب النظرية لم يعرفوا كيف يحولون هذا القول إلى فعل، فلجأوا إلى العنف وتكفير معارضيهم، وخرجوا عن كل الأطر القبلية، وكانوا بحق مقاتلين شرسين ومفكرين تعساء.

وجـــاء يـــزيـــد..

بعـد أن حـصر معاوية الملك في قريـش ووطد أركان ملكه العضود بمسـاندة قبائل الشـام، اجتهد في الخطوة الثانية من البناء الدستوري الجديد بحصر الخلافة في بنـي أمية بالتحديـد، وإقصاء المهاجريـن والأنصار والعرب وبقية المسـلمين، لتتحوّل الخلافة إلى ملك وراثي ولينطلق قطار الاستبداد مسرعًا ليدلف إلى محطته الثانيـة، بعد أن حزم معاويـة أمره وقرر أن يولي الأمر بعده ابنه يزيد، غاضًّا النظر عـن مؤهلاتـه الشرعية أو مـدى رضا الجماعة بـه، فبدأ يمهد الجـو ويهيئ الأمور بأخـذ البيعة وإتمـام التوريث في حياته، مسـتعينًا على ذلك بزمرة من المسـتفيدين شـكلوا قـوام لجنة السياسـات القديمـة التي تولت كـبر الترويـج والتمهيد لهذا المـشروع، واجتهـد زبانيتهـا وعـلى رأسـهم المغيرة بن شـعبة في تسـويق المشروع الجديد للتوريث، الذي كان غريبًا على فقه وعقل الأمة الإسلامية الحرة.

وقـد وجد هذا المشروع الشـيطاني رجال صدق يقاومونـه ويرفضونه، وعلى رأسـهم الإمام الحسـين بن عليّ وعبد الله بن عباس وعبـد الله بن الزبير وعبد الله بن جعفر الطيار وعبد الرحمن بن أبي بكر الصديق وعبد الله بن عمر بن الخطاب، وانضمـت إليهـم أم المؤمنـين السـيدة عائشـة - رضـوان الله عليهـم جميعًا - إلى جبهة الرفض لما تحيكه لجنة السياسـات من نسـج رداء التوريث لمن لا يسـتحق، ولكن معاوية بن أبي سـفيان لم يأبه كثـيرًا لاعتراض هؤلاء الأجلاء من آل البيت والصحابة وأبنائهم، وقال لهـم: (لست في زمان أبي بكر وعمر، إنما هم بنو أمية، مَن عصاهـم أوجلوه بالسيف)!. وهو ما رفضته السيدة عائشة -رضي الله عنها- بقولها: (إنما هو ملك باطل تجعلونه يا بني أمية في من شئتم).

وعـاد معاوية إلى الحديث الذي ينطلق من الحق الإلهي؛ حيث رد عليهم: (إن أمـر يزيد قضـاء وقدر، وليـس للعباد الخيرة مـن أمرهم)!. وهكـذا انطلق قطار التوريـث قديمًا ليرسي معاوية أول وأخطر انقلاب دسـتوري في تاريخ المسـلمين

من نظام يتسم، وإن اختلفت تطبيقاته، بقدر من الشورى إلى نظام الوراثة العائلية على سند من السيف والقهر والغلبة وإعلان التحذير والوعيد لمن يرفض البيعة أيًّا كان قدره أو جلال منزلته بضرب عنقه.

وفور رحيل معاوية وتبوؤ يزيد مسند خلافة المسلمين، أعلن الإمام الحسين بن عليّ رفضه التام لبيعة يزيد المشهور بالفسق والمجون، واستعد سيد شباب أهل الجنة وسبط الحبيب المصطفى لصراع طويل بينه وبين يزيد، هو في حقيقته الفصل الثالث في الصراع بين بيت النبوة وبني سفيان. كان أول فصوله متمثلًا في حرب أبي سفيان على الحبيب العدنان ومكافحته الإسلام في بواكيره الأولى، ثم كان الفصل الثاني من الصراع بين ولده معاوية والإمام الشرعي علي بن أبي طالب، ثم يأتي يزيد بن معاوية ليكون الفصل الثالث الدامي في الصراع مع سبط النبي الحسين بن عليّ.

واتخذ كل من الرافضين طريقه لإعلان رفضه لهذه الولاية بعد إعلان يزيد خليفة للمسلمين، وكان الإمام الحسين هو المتصدر الأول لمشهد المقاومة، وفي إدارة الإمام الحسين لصراعه مع يزيد دروس عدة؛ فقد رضي الحسين بصلح أخيه الحسن مع معاوية فظل على عهده وميثاقه، ولكن بعد وفاة معاوية تغيرت الصورة تمامًا، فلا بيعة ليزيد في رقبة الحسين توجب عليه الطاعة، وأعلن ذلك الحسين صراحة عندما حاول والي المدينة الأموي الوليد بن عتبة أخذ بيعته، وقد وانتقل الإمام الحسين في تصديه ليزيد بين مرحلتين: الأولى رفضه القاطع لبيعة يزيد وانتقاله لمكة المكرمة، وفيها أسس الحسين نظريته الشرعية في مقاومة الحكم الأموي وعدم صحة ولاية يزيد لافتقاده الشروط الشرعية الواجب توافرها في خليفة المسلمين، وكذا لغياب الشورى واستئثار بني أمية بالملك، وكان رفض الحسين لبيعة يزيد بمثابة نزع لشرعية حكمه.

وفي المرحلة الثانية بدأ الحسين العمل على مقاومة الحكم الأموي والخروج بعد أن راسل أهل العراق وقدمت إليه وفودهم، وقد تحقق للإمام الحسين

قبل خروجه على يزيد أنه قد خالف القرآن والسنّة، وأصبح واجبًا على الحسين النهوض لتغيير المنكر والأمر بالمعروف، وكيف يقعد عن ذلك الواجب وهو سيد الأمة وعالمها الأول؟ وتوخى الإمام الحسين صحيح الشرع في كل خطواته، فرأى أن يخرج من مكة حتى لا تستحل حرمتها من جبار يعلم الحسين أنه لا يقف أمام حرمات الله فقال: «لأنْ أُقتل بمكان كذا وكذا أحبّ إليّ أن تُستحلّ بي»، يعني مكة.

وعليه خرج سبط المصطفى -صلى الله عليه وآله وسلم- الإمام الحسين بن عليّ إلى كربلاء حيث لقي ربه هو ورجال من آل بيته وشيعته شهداء في سبيل الحرية والعدالة، ضاربًا أعظم مثال للبشرية.

وأعلن البطل عبد الله بن حنظلة الغسيل الأنصاري الثورة في مدينة رسول الله على يزيد وحكمه، وأشعل معه جذوة الثورة كل من الفضل بن العباس وزيد بن عبد الرحمن بن عوف، واشتبك جيش البغي بقيادة مسلم بن عقبة مع أهل المدينة في واقعة الحرة المفجعة، فلقي يومئذ ربه شهيدًا من قريش والأنصار والمهاجرين سبعمائة رجل ومن سائر الناس عشرة آلاف، ولم يبق بها بدري بعد استشهاد ثمانين رجلًا منهم. ودعا مسلم بن عقبة، الذي أصبح يعرف من ذلك اليوم بمسرف بن عقبة، الناس للبيعة على أن خُوِّل ليزيد يحكم في دمائهم وأموالهم وأهليهم ما شاء، فمن امتنع قتله.

ولتكتمل المأساة يروي ابن أعثم والخوارزمي وابن كثير وغيرهم أن خليفة المسلمين يزيد كان يتمثل بأبيات ابن الزبعري:

ليت أشياخي ببدر شهدوا	**جزع الخزرج من وقع الأسل**
لأهلوا واستهلوا فرحا	**ثم قالوا يا يزيد لا تشل**
قد قتلنا اليوم من ساداتهم	**وعدلنا ميل بدر فاعتدل**

و قال ابن أعثم : ثم زاد فيها هذا البيت من نفسه :

لست من عتبة إن لم أنتقم	**من بني أحمد ما كان فعل**

وفي تذكـرة خواص الأمة : المشـهور عن يزيد في جميـع الروايات أنه لما حضر الـرأس بـين يديه جمع أهل الشـام وجعـل ينكت عليـه بالخيزران ويقـول أبيات ابن الزبعـرى:

ليــت أشياخــي ببــدر شهدوا	**جزع الخزرج مــن وقع الاسل**
لأهلــوا واستهلــوا فرحــا	**ثم قالــوا يا يزيــد لا تشل**

وقال: قال الشعبي وزاد عليها يزيد فقال :

لعبــت هاشــم بالملــك فــلا	**خــبر جــاء ولا وحــي نــزل**
لست من خندف إن لم أنتقم	**من بني أحمــد ما كان فعل**

والمـروع أن الحكـم الباطـش لم يرتوِ بعد مـن الدماء، بل وجه خيـل بغيه نحو البيـت الحـرام، فمضى مسرف بـن عقبة لينقضّ على آخر معاقـل الأحرار في مكة التي تحصن بها عبد الله بن الزبير بن العوام، ولم يتوانَ أن يضرب الكعبة بالمنجنيق، ولم يوقـف زحفه إلا نبأ وفاة الطاغية يزيد بن معاوية، الذي كان قد أوصى بدوره إلى ابنه معاوية الثاني الذي يروى الكثير عن صلاحه بخلاف حال أبيه. ولم يلبث على مسند الخلافة إلا أيامًا وخلع نفسه منها رافضًا أن يكون ترسًا في دولة الجور، ثـم مات بعد انخلاعه من الأمر بأيام، فانهار النظام الأموي واشـتعلت الثورات في كل مكان.

■ اضطراب دولة الأمويين وتولي مروان بن الحكم وولده..

اضطربت الدولة الأموية بعد خلع معاوية الثاني نفسه.. اشتعلت ثورات الأحرار في أرجاء الدولة الأموية تنشد الحرية، إلا أن الأمويين سَرعان ما استعادوا تنظيم صفوفهم وتولى أمرهم أحد دُهاتهم وهو مروان بن الحكم، الذي وسّد الأمر إلى نفسه وبنيه من دون بقية البيت الأموي، في ما يعرف بدولة بني مروان، ثم تولى عبد الملك بن مروان الخلافة بعد أبيه مروان، وافتتحها بإغلاقه المصحف الشريف الذي كان يقرأ فيه حال سماعه خبر توليه مسند الخلافة وهو يخاطبه قائلًا: (هذا آخر العهد بك)، ثم يردف ذلك بإعلان شكل الدولة وبرنامجه الرئاسي ومساحة الديمقراطية التي سيمنحها لأمة الإسلام قائلًا: (أما بعد فلست بالخليفة المستضعف (يعني عثمان) ولا الخليفة المداهن (يعني معاوية) ولا الخليفة المأفون (يعني يزيد)، إلا أنني لا أداوي أدواء هذه الأمة إلا بالسيف حتى تستقيم لي قناتكم، والله لا يأمرني أحد بتقوى الله بعد مقامي هذا إلا ضربت عنقه).

وكعادة كل ظالم يريد أن يكون له بصمته الخاصة ولمسته القاسية، فقد أشاع عبد الملك بن مروان مفهومًا جديدًا ومطلقًا للطاعة لا يعرف ولا يلتزم الحدود الشرعية كما كانت في عهد الرسول (ﷺ) والخلفاء الراشدين، إنما يمتد ليصبح نوعًا صريحًا من العبودية للحاكم في مقابل عبودية الله تعالى، وتمثل ذلك بموقف أحد جلاوزته الطغاة وهو خالد بن عبد الله القسري الذي يروي ابن قتيبة في (الإمامة والسياسة) وقوفه وظهره إلى الكعبة المشرفة، وقوله: (والله لو علمت أن عبد الملك لا يرضى عني إلا بنقض هذا البيت حجرًا حجرًا لنقضته في مرضاته).

■ مسار الملك العضوض..

كما أسلفنا دفع التحول الدستوري الذي قاده معاوية إلى الملك العضوض للبحث مبكرًا عن تأسيس شرعية دستورية جديدة للدولة التي يشيدها، وهي العصبية القبلية «القرشية»، والتعويض بها عن الشورى المفقودة ومبادئ العدالة الإسلامية. وقد واكبت عملية التأسيس الدستورية عملية تنصيص سياسي بوضع أحاديث لتحقيق السند الإلهي لخلافة معاوية بن أبي سفيان ومن بعده بنو أمية، ومثال ذلك ما أخرجه ابن الجوزي من طريق عبد الله بن أحمد بن حنبل: «سألت أبي: ما تقول في عليّ ومعاوية؟ فأطرق ثم قال: اعلم أن عليًّا كان كثير الأعداء، ففتش أعداؤه له عيبًا فلم يجدوا، فعمدوا إلى رجل قد حاربه، فأطروه كيادًا منهم لعلي». فأشار بهذا إلى ما اختلقوه لمعاوية من الفضائل مما لا أصل له.

وقد توالت واستمرت ثورات الأمصار الإسلامية على حكم الأُمويين، فاندلعت ثورة العراق سنة 81 هـ بقيادة عبد الرحمن بن الأشعث، الذي بايعه معظم أهل العراق من أهل الكوفة والبصرة، وعلى رأسهم القراء والفقهاء. حيث يقدر الطبري عدد القراء الذين شاركوا في ثورة ابن الأشعث بأربعة آلاف قارئ. وبعد فشل الثورة استحل الحَجّاج دماء العراقيين فقتل منهم مئة وثلاثين ألف نفس صبرًا، فضلًا عمّن قُتل أثناء المعارك. فقد كان الإمعان في القتل والتنكيل وسيلة الأمويين لتثبيت ملكهم العضوض.

ولا تجد في التاريخ وصية تمثل نموذجًا صارخًا لعقلية الاستبداد وسياسة سوق العباد بالسيف مثلما تجد في وصية عبد الملك بن مروان إلى ابنه الوليد، التي قال فيها: «إذا أنا متّ اخرج إلى الناس والبس لهم جلد نمر واقعد على المنبر وادع الناس إلى بيعتك، فمن مال بوجهه عنك كذا، فقل بالسيف كذا، وتنكر للصديق والقريب واسمح للبعيد». وأوصاه بكبير جلاوزة بني أمية الحَجّاج الثقفي خيرًا؛ «فإنه هو الذي وطّأ لكم المنابر وكفاكم تقحم تلك الجرائم».

ولي هنا إشارة لبعض المفتونين المغترّين بالطاغية القاسي الحَجّاج الثقفي ومَن يرون فيه أنه فارس مغوار، وهو في حقيقته أكثر من سوَّد صحيفة الأُمويين بأفعاله التي قدمها قربانًا لتثبيت دعائم دولة الظلم. ويكفي ما أورده المسعودي في تاريخه أن هذا الطاغية قد توفي وفي محبسه خمسون ألف رجل، وثلاثون ألف امرأة! وكان حبسه لا يكنّهم من برد ولا حرّ، ويُسقَون الماء مشوبًا بالرماد، وكان قد تولّى العراق وخراجها مئة ألف ألف (مئة مليون) درهم، فلم يزل بعنته وسوء سياسته حتّى صار خراجها خمسة وعشرين ألف ألف درهم (25 مليونًا)، أي ربع ما كان من قبل.

وكان من أعظم جرائم هذا الجلاد في آخر أيامه قتل الفقيه التابعي سعيد بن جبير بعد أن ألقى القبض عليه وأدخل عليه فبادره :

لما دخل سعيد بن جبير على الحجاج قال له: ما اسمك؟

قال: سعيد بن جبير.

قال الحجاج: بل شقي بن كسير.

قال سعيد بن جبير: أبي كان أعلم باسمي منك، والله أعلم بي إذ خلقني.

قال الحجاج: لقد شقيت وشقي أبوك.

قال سعيد: الغيب إنما يعلمه غيرك.

قال الحجاج: لأبدلنك بالدنيا نارًا تلظى.

قال سعيد بن جبير: لو علمت أن ذلك بيدك ما اتخذت إلهًا غيرك.

قال الحجاج: فما قولك في الخلفاء؟

قال سعيد بن جبير: لست عليهم بوكيل.

قال الحجاج: فاختر أي قتلة تريد أن أقتلك؟

قال سـعيد بن جبير: بل اختر يا شـقي لنفسـك، فـوالله ما تقتلنـي اليوم بقتلة إلا قتلتك في الآخرة بمثلها، ثـم قال سـعيد: إنني أعوذ منك بما عاذت مريم بنت عمران بالرحمن إن كنت تقيًّا.

قال الحجاج: لأقتلنك.

فأمـر به الحجاج، فأُخرج ليقتل، فلما ولّى ضحك، فأمر الحجاج بردّه، وسـأله عن ضحكه، فقال: عجبت من جراءتك على الله وحلم الله عنك.

فلما ذهب به للقتل قال دعوني أصلِّ ركعتين.

قال الحجاج: وجهوا به القبلة واقتلوه.

فلما فعلوا به ذلك قال سـعيد :وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفًا، وما أنا من المشركين

قال الحجاج: حولوا وجهه عن القبلة. فحولوه ووجهوه لقبلة النصارى.

فلما وجه قال سعيد بن جبير: فأينما تولوا فثم وجه الله.

فلما كبَّ على وجهه قال: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسـوله، وأن الحجاج غير مؤمن بالله ثم قال: اللهم لا تسلط الحجاج على أحد يقتله من بعدي. قال رجل من حرس الحجاج إن سـعيدًا لما سـقط رأسـه إلى الأرض قال: لا إله إلا الله ثلاث مرات، قال مرتين كلامًا بيّنًا، وقال الثالثة بلسان منكسر.

هـذا نموذج من وحشـية هـذا الجلاد في حق رجل من خـيرة العباد، ولم يعش بعد سعيد إلا خمسة عشر يومًا، حيث مرض وكان يستيقظ من نومه فزعًا ويقول: ما لي وسـعيد بن جبير كلما غفوت وجدته يأخذ بحلقي. وأرسـل يشكو للحسن البـصري مرضـه، فردَّ الحسـن: نهيتك عن قتـل الصالحين فلججت، فقـال له: يا حسن لا أسألك أن تدعو الله ليفرج عني، لكن أسألك أن تدعوه أن يعجل قبض روحي..

وعندما مات الطاغية سجد الحسن البصري شكرًا، وقال: اللهم إنك قد أمته فأمت سنّته، إلا أن التاريخ يقطع أن دعوة الحسن لم تستجب فما زال في كل زمان حجاج وجلاد.. وقد أُحصي عدد من قتلهم الحجاج بمائة وعشرين ألفًا عدا الذين قتلهم في المعارك، طوال حكمه للعراق لمدة 20 عامًا، وهذا يعنى أن عدد الذين كان يقتلهم صبرًا في حدود 16 شخصًا يوميًّا.. فبئس المرد المخزي لجلاد الدولة الأموية يوم العرض.

■ ومضة النور عمر بن عبد العزيز..

لما توفي عبد الملك أنفذ الابن البار الوليد وصية أبيه الطاغية، فصعد المنبر وقال عبارة واحدة لم يزِد عليها: «أيها الناس، عليكم بالطاعة ولزوم الجماعة؛ فإن الشيطان مع المنفرد. أيها الناس، من أبدى لنا ذات نفسه ضربنا الذي فيه عيناه، ومن سكت مات بدائه»، ثم نزل.

ثم جاء من بعده سليمان بن عبد الملك، ولعل أعظم ما قدمه في حياته التي لم تختلف عن أسلافه هو عهده بالأمر بعده إلى ابن عمه الرجل الصالح عمر بن عبد العزيز، مقدمًا إياه على أخيه يزيد بن عبد الملك. وقد كان عمر بن عبد العزيز وبحق مثلما وصفه قيس بن جبير كمؤمن آل فرعون، ورغم قِصَر مدة خلافته فإنه كان صفحة ناصعة البياض في سجل حالك السواد، ولم تمرّ بيعة عمر بن عبد العزيز إلا بحيلة من سليمان بن عبد الملك؛ حيث طلب من وزيره رجاء بن حيوة أن يعدّ كتابًا باستخلاف عمر ومن بعده يعود الأمر إلى أخيه يزيد، وأن يختم الكتاب ويبايع الناس على ما فيه مختومًا، ومن أبى فليضرب عنقه! فبايع الناس. ورغم أن الطريقة التي حملت عمر بن عبد العزيز إلى مسند الخلافة أبعد ما تكون عن الشورى، فإنها جاءت برجل رباني يدرك قيمة الشورى، ولذا كان أول ما نهض به أن خطب في الناس قائلًا: «أيها الناس، إني قد ابتُليت بهذا الأمر عن غير رأي كان مني فيه، ولا طلبة له، ولا مشورة من المسلمين، وإني قد خلعتُ ما في أعناقكم من بيعتي، فاختاروا لأنفسكم». فصاح الناس صيحة واحدة: «قد اخترناك يا أمير المؤمنين ورضيناك، فلك أمرنا باليُمن والبركة».

وبدأ عمر بن عبد العزيز ولايته وأرجاء الدولة الإسلامية يهزها الظلم ويرتع في جنباتها الاستبداد؛ فولاة الأمر الذين كان عبد الملك وسليمان قد استعملوهم كانوا من عينة الحجاج فعمد إلى عزلهم جميعًا، ولم يول من أبناء عمومته من بني أمية ولاية قط، وحين عاتبوه على إقصائهم وعدم استخدامهم كأسلافه،

وصفعهم بحقيقة إفسادهم، وقال: إني أكره أن تدنسوا بساطي بأرجلكم فكيف أوليكم على أعراض المسلمين؟

وقد بدأ عمر بنفسه فقدر نفقته كل يوم درهمين فقط في حين كانت ثروته حين أتته الخلافة أربعين ألف دينار، وكان كل ما تركه بعد عامين من خلافته أربعمائة دينار فقط. ورسخ الرجل الصالح في ولايته مبادئ دستورية وقانونية عظيمة، فها هو عدي بن أرطأة أحد ولاته يستأذنه في عذاب قوم من عمال الخراج امتنعوا من أداء ما عليهم ببعض أشكال التعذيب الخفيف على المتهمين حتى يعترفوا (لاحظ تعذيب خفيف فقط)، فردَّ عمر بن عبد العزيز معنفًا، فكتب إليه: أما بعد، فالعجب كل العجب من استئذانك إياي في عذاب البشر، كأني جنة لك من عذاب الله، أو كأن رضائي ينجيك من سخط الله، فمن أعطاك ما قبله عفوًا فاقبله، ومن قامت عليه البيّنة فخذه بما ثبت بالبينة عليه، ومن أنكر فاستحلفه، فوالله لأن يلقوا الله بجناياتهم أحب إليَّ من أن ألقاه بعذابهم، والسلام.

وكان يتابع عماله وأعمالهم ويرسل إليهم ويرسي دعائم رقابة الشعب والرأي العام عليهم، فيكتب منشورًا يُذاع في كل أنحاء الدولة الإسلامية: أي عامل من عمالي رغب عن الحق ولم يعمل بالكتاب والسنّة فلا طاعة له عليكم. وقد صيرت أمره إليكم، حتى يراجع الحق وهو ذميم. هكذا رفع سلطة الشعب في وجه الحاكم، وأسلم نواصي ولاته وعماله للرأي العام يقودهم على طريق الحق طائعين أو كارهين. ولكي يدعم هذه السلطة، فتح أبوابه على مصاريعها لكل شاكٍ أو متظلم من حاكمه أو واليه، وعمم منشورًا موجزًا لجميع الأقطار: من ظلمه إمامه مظلمة، فلا إذن له عليَّ أي ليقتحم عليَّ داري، غير منتظر إذنًا، وغير واقف بباب. ويرسل تنبيهًا رئاسيًا لأحد ولاته هو أيقونة في فن توجيه الحاكم لعماله، فيقول له: قد كثر شاكوك، وقلَّ شاكروك، فإما اعتدلت وإما اعتزلت.

لم يلبث عمر بن عبد العزيز سوى عامين في خلافته، حاول فيها أن يعيد عدل الراشدين، إلا أن مراكز القوى وأصحاب النفوذ لم يكونوا ليطيقوا عدله، فدُسّ له السُّم ليلقى وجه ربه تعالى.

■ مَضى عمر وعاد ملك الظالمين..

مضت ولاية العادل عمر بن عبد العزيز كسحابة أمطرت خيرًا على عطاشى أمة الإسلام ومضت سريعًا.

بعده بدأت دولة بني أمية في الانحدار السريع؛ تولى بعد عمر بن عبد العزيز يزيد بن عبد الملك بن مروان، الذي غرق لرأسه في دنيا الجواري والغلمان، وضُرب به المثل في فنون المجون. اشتهرت حكايته مع الجارية سلامة القس، التي ملكت عقله حتى ظهرت الجارية الأكثر فتنة وهي حبابة فذهل الخليفة الموقر عن شئون المسلمين وتفرغ لجاريته حبابة لا يطيق فراقها، حتى كان يومًا يلهو مع جاريته حبابة ويأكلان الرمان والعنب، حتى شرقت هذه الجارية بحبة عنب فلفظت أنفاسها بين يديه، فجنّ جنونه على موتها بهذه الصورة المفجعة، فأبقاها ثلاث ليالٍ وهو يشمها ويقبلها، وكان ينام معها وكأنها لم تمت ويعمل بها ما يشاء، ويذرف الدمع على فراقها، حتى عاب عليه أقاربه وحاشيته ما يصنع، فأذن لهم بغسلها ودفنها. أما يزيد فقد مكث بعدها أربعين يومًا حزينًا لا يكلم أحدًا، ثم لفظ أنفاسه حزنًا عليها. ويا للعجب أن يكون هذا الرجل هو من يخلف الرجل الصالح التقي عمر بن عبد العزيز على مسند دولة الأمويين.

ثم ولي الأمر بعده أخوه هشام بن عبد الملك، وكان رجلًا فظًّا غليظًا خشنًا شديد الحرص والبخل، حتى إنه ضاق بزواره الذين يدخلون عليه بستانه العامر فيقطفون بعض حبات الفاكهة ويأكلونها، فقام بزراعة بستانه زيتونًا حتى لا يطعموا منه شيئًا قلَّ أو كثر، وخرج في مدة ولايته الإمام زيد بن عليّ بن الحسين فأرسل له يوسف بن عمر الثقفي، وانتهى الأمر بالإمام زيد صريعًا، ولم يكتف الخليفة التقي الورع بذلك بل أمر به فصُلب عريانًا ثم أمر بإحراقه وذره للرياح، وطال حكمه الجائر لمدة عشرين سنة.

ثم تولى بعده الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان، وكان بالغ الفسق شديد المجون، وتزايد في عهده الظلم. وسطرت في سيرته أقبح الوقائع. استفتح ذات يوم بكتاب الله العزيز فوقعت عينه على الآية الكريمة من سورة إبراهيم: ﴿ وَٱسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ فاستشاط غضبًا وحنقًا، وأنشد قائلًا:

تهددني بجبار عنيدٍ	فها أنا ذاك جبار عنيد
إذا ما جئت ربك يوم حشرٍ	فقل يا رب مزقني الوليد

عاد بنو أمية لسيرتهم الأولى في توارث مسند الملك العضوض واحدًا بعد الآخر، لا يعرفون مبدأ الشورى، ويستعملون في سبيل ذلك أقصى درجات العنف والقوة مع الثائرين عليهم. وتحوّل ملكهم الغاشم القائم على الاستبداد والقهر إلى طرف نقيض مع مهمة الخلافة التي أوكلها الله للأمة الإسلامية، وكانت ذروة طغيانهم واستبدادهم في عهد الوليد بن يزيد، الذي كان يجاهر علانية بالاستهانة بأحكام الإسلام، مما أحدث صدعًا كبيرًا في صفوف العائلة الأموية نفسها، ودعاهم للثورة عليه سنة 126 هـ بقيادة يزيد بن الوليد الذي أخذ يدعو إلى كتاب الله وسنّة نبيه وأن يصير الأمر شورى، وقد حاول يزيد هذا أن يقوم بعملية إصلاح جذرية في النظام الأموي، ويشيع مفاهيم دستورية جديدة، منها: حق الأمة في الثورة وخلْع الحاكم الظالم، ومسئولية الحاكم في رعاية العدل، كما جاء في خطبته لدى توليه الخلافة: «إني والله ما خرجت أشرًا ولا بطرًا، ولا حرصًا على الدنيا، ولا رغبة في الملك، وإني لظلوم لنفسي إن لم يرحمني ربي، ولكن خرجت غضبًا لله ولدينه، وداعيًا إلى كتاب الله وسنّة نبيه، حين دَرَسَتْ معالمُ الهدى، وطُفِئ نورُ أهل التقوى، وظهر الجبار المستحلّ للحرمة، والراكب البدعة، فأشفقت إذ غشيكم ظلمه أن لا يقلع عنكم من ذنوبكم، وأشفقت أن يدعو أناسًا إلى ما هو عليه، فاستخرت الله، ودعوت من أجابني، فأراح الله منه البلاد والعباد». ولكن محاولته الإصلاحية جاءت متأخرة وباءت بالفشل؛ فقد كانت الثورات العلوية

والعباسية تضرب أركان البلاد وتنذر بنهاية العهد الأُموي، حيث توفي الوليد بسرعة في ظروف غامضة، ولم يستقر الأمر لخليفته أخيه إبراهيم الذي لم يلبث في السلطة سوى ثلاثة أشهر حتى خُلع وقُتل، بعد أن خرج عليه مروان الحمار بن محمد بن مروان بن الحكم سنة 127 هـ، الذي استمر في الحكم نحو خمس سنوات، حتى كانت نهايته على أيدي العباسيين سنة 132هـ.

■ نظرة في صفحات حكم الأمويين..

انتهى حكم بنو أمية، وقُطعت رأس آخر الخلفاء الأمويين، ومن سخريات القدر أن يأتي قط يعبث برأس الخليفة ويقطع لسانه ويمضغه أمام الجمع المتسلي بالمشهد، ويا للعجب على حال لسان كانت الدنيا تتسمع قوله.

ويرى الشيخ الجليل محمد الغزالي أن نظام الحكم الأموي حوَّل الخلافة إلى مُلك عضوض، قام بالخلافة السفهاء واتسعت مصروفات الحاكم الخاصة وبطانته ومتملقيه على حساب بيت المال وفقراء المسلمين، وعادت عصبية الجاهلية التي هدمها الإسلام.. والرسول (ﷺ) يقول: «**من قُتل تحت راية وهو يدعو لعصبية أو ينصر عصبية فقتله جاهلية**».

وِلِد الاستبداد الأموي من رحم العصبية التي قضى عليها الإسلام وأحياها معاوية وتولى بقية الخلفاء المستبدين رعايتها وإنباتها في كل مكان، وقد تعصب الأمويون للعرب على الموالي ثم لقريش على العرب، ثم لبني أمية على قريش، وهكذا حتى يصل التعصب إلى بيت الخليفة نفسه فيصبح أبناء الخليفة أفضل من سائر أبناء أخيه، ويصبح الحكم فيهم من دون سائر الناس مهما كان فيهم من سفه أو جنون.

بلغ التعصب الأعمى بالأمويين أن قهروا الموالي وأسقطوا أسماءهم من العطاء، وكانوا يشركونهم في الحرب مشاة.. ويجعلونهم في المقدمة، بل ووصل الأمر إلى أن أخذوا منهم الجزية رغم إسلامهم.. وكان الحجاج الثقفي الظالم يجمع الموالي ويختمهم بأختام الحديد المحماة في النار كنوع من الذل والهوان، وحدد لهم قرى معينة لا يغادرونها. وكان يمنع أيًّا منهم أن يصلي بالناس إمامًا إذا كان خلفه عربيٌّ حتى إن كان هذا الأخير لا يحسن من القرآن الكريم شيئًا. وبلغ به الطغيان أن فرق بين المرأة وزوجها إذا تزوجت مسلمًا غير عربي.

وبالفعـل أنهكت الدولة الأمويـة كثرة الثورات. وكانوا كلـما قضوا على ثورة وقتلـوا منهم مقتلة عظيمة هبت ثورة أخرى لتكلفهم الكثير. لم تهدأ يومًا ثورات الخوارج ولا انتفاضات الشيعة. كان الفريقان على خط الثورة دومًا مع بني أمية. وكانـت انتفاضـات الشـيعة تجتـذب المـوالي المضطهـديـن على الـدوام من بني أميـة. وظـل الـثوار والموالي على اختلاف مشـاربهم يعلقون آمالهـم على أبناء عليّ والهاشـميين. ولا ريب أن ما تميز به حكم الإمام علي قصير المدة من مسـاواة بين العـرب والموالي أسـهم في أن يتعلق الموالي بأولاد علي. ولكـن مع مرور الوقت لم يجـد المـوالي في أبناء الإمام علي من يريد أن يمتشـق سـيفه وينظـم صفوفهم. هنا دخـل على الخط الثوري أبناء عمومتهم من العباسـيين. وتصـدر للعمل الثوري أبو مسـلم الخراسـاني وكان مـن خـيرة الرجال دهـاء وكفاءة، اجتهـد الرجل في الإعـداد للثورة وأخذ يبذر بذور الكراهية لبني أمية، أخذ يبعث دعاته ترفع راية نـصرة الحق وإزاحة مظالم الأمويين. وأعلن الخرسـاني ودعاتـه أنهم نهضوا للثأر للشهداء من بني الزهراء، وأنهم يهدفون إلى أخذ البيعة لإمامٍ من آل بيت النبي.

وهكـذا تحالفـت قوى عديدة لزلزلـة الملك العضوض للأمويـين. وباليقين بعد هـذا التاريـخ المغـرق في الظلم والاسـتبداد كان سـواد الناس في البلاد الإسـلامية ينتظـرون زوال ملك بني أميـة الذي فتّ في عضده كثرة الثـورات التي قامت عليه مـن مختلـف الفئات، ولما بدأت علامات الزوال والانهيـار تلوح على دولة الأُمويين بعد هزيمتهم في معركة الزاب أمام جيوش العباسـيين، اسـتبشر الناس خيرًا، حتى إن مروان بن محمد في هروبه أمام مطارديه يهتف به الناس في البلاد: الحمد لله الذي أزال سلطانكم وذهب بدولتكم، الحمد لله الذي أتانا بأهل بيت نبينا.. وبسبب علم العباسـيين ميل الناس إلى أبناء علي بن أبي طالب باعتبارهم سـلالة الرسـول -صلى الله عليه وآله وسـلم-، لذا فقد كانت دعوة العباسـيين «للرضا من أهل البيت» من دون تحديـد، ويتبـيّن هذا المنحى في أول خطبة خطبها أبو العباس السـفاح من فوق منبر الكوفة -وهي معقل العلويين- في ما يرويه ابن أبي الحديد، حيث يقول: «أُقسم بـالله قسـمًا برًّا، ما قام هذا المقام أحد بعد رسـول الله -صـلى الله عليه وآله- أحق به من علي بن أبي طالب، وأمير المؤمنين هذا! فليهمس هامسكم، ولينطق ناطقكم».

■ بطش العباسيون بالأمويون في بدء دولتهم..

استفتح العباسيون عهدهم بالانتقام المروع من بني أمية، أحيائهم وأمواتهم على السواء! وكانت دعواهم في ذلك أنهم ينتقمون من الأمويين لما فعلوه بأهل بيت النبي (ﷺ) من أبناء علي بن أبي طالب. وروى المؤرخون أن أبا العباس المنصور لما أُتي برأس مروان بن محمد -آخر الخلفاء الأُمويين- سجد فأطال، ثم رفع رأسه وقال: «الحمد لله الذي لم يُبقِ ثأرنا قبل رهطك، الحمد لله الذي أظفرنا بك وأظهرنا عليك. ما أُبالي متى طرقني الموت وقد قتلتُ بالحسين ألفًا من بني أُمية»، ثم قال: «أما مروان فقتلناه بأخي إبراهيم، وقتلنا سائر بني أُمية بحسين ومن قُتل معه وبعده من بني عمنا أبي طالب».

ولم يكتفِ العباسيون بالانتقام من الأحياء من بني أمية، بل تعدّوهم إلى الأموات أيضًا يشفون منهم غليلهم؛ حيث أمر عبد الله بن عليّ بنبش قبور بني أمية بدمشق، فنبش قبر معاوية بن أبي سفيان فلم يجدوا فيه إلاّ خيطًا مثل الهباء، ونبش قبر يزيد بن معاوية بن أبي سفيان فوجدوا فيه حطامًا كأنه الرماد، ونبش قبر عبد الملك فوجدوا جمجمته، وكان لا يوجد في القبر إلّا العضو بعد العضو، غير هشام بن عبد الملك فإنه وُجد صحيحًا لم يَبْلَ منه إلاّ أرنبة أنفه، فضربه بالسياط وصلبه وحرّقه وذرّاه في الريح.

هكذا كان موقف العباسيين من معاوية وبني أمية في بداية عهد دولتهم، ولكن سَرعان ما جدّت أمور أدّت إلى أن يفكر العباسيون في تغيير موقفهم وهم يؤسسون المرجعية الدستورية لدولتهم الفتيّة.

■ العباسيون والعلويون.. شركاء الأمس وفرقاء اليوم..

استعرضنا مظالم الدولة الأموية، إلا النزر اليسير في ولاية الرجل الصالح عمر بـن عبد العزيز، وما آلت إليه الدولة الأُموية التـي فتّ في عضدها كثرة الثورات من انهيار انتهى بزوال مُلك بني أمية بعد هزيمتهم في معركة الزاب أمام جـيوش العلويـين والعباسـيين، التي قامت على الدعــوة «للرضـا من أهل البيت»، فقد توسّـل دعاة بني العباس بهذا الشـعار لتعاطف الناس مع أهل بيت النبي –صلى الله عليـه وآله وسـلم– وقد اسـتفتح العباسـيون الذين توسـدوا الأمـر عهدهم بالانتقـام المغرق في الشراسـة من بنـي أمية أحيـاءً وأمواتًا، حتى لُقّـب خليفتهم الأول عبدالله بن محمد بـ (السفاح)، ولكن سَرعان ما جدّت أمور بين العباسيين والعلويين أدّت إلى أن يفكر العباسيون في تغيير موقفهم وهم يؤسسون المرجعية الدستورية لدولتهم الفتيّة.

أدرك العباسـيون مبكـرًا أن بنـي أُمية لم يعودوا يشـكّلون خطـرًا عليهم وعلى دولتهم، فقد أُبيدوا تقريبًا في المجازر التي أقامها لهم العباسـيون، ودالت دولتهم وزالـت شـوكتهم، فلم يعد العباسـيون يهتمـون بذكرهم أو الإسـاءة لتاريخهم. ولكـن العـدوّ الجديد الـذي صار يلحّ بقـوة هم العلويـون، شركاء الثـورة ومَن حُرموا قطاف النصر، فقد كانت دعوة العباسيين في البداية للرضا من أهل البيت من دون تحديد له أو تصريح باسمه ولا نسبه.. فلما تمَّ لهم الأمر أعلن العباسيون اسم عبد الله (السفاح) بن محمد بن عليّ بن عبد الله بن العباس، وهو الأمر الذي لم يـرُق للعلويـين وأخذوا يتلمظـون ويتحينون الفرصة ويعلنـون في الناس أنهم ورثـة الأمـر الحقيقيـون، وأن بني العبـاس قد اغتصبـوه منهم؛ إذ هـم أبناء بنت رسـول الله: فاطمة، وأبناء عليّ ابن عمه. وكان العباسـيون يـردون بأنه ينبغي أن يرجـع في ذلـك إلى أصل حكم الله في المواريث، وما فـرض فيها من حجب العم

لابـن العـم وحرمان ابن البنت من ميراث جده لأمه. فهم يدلون للرسـول بعمه العباس الذي آل إليه ميراثه، وهم لذلك أولو الأمر وخاصته.

وبدأت ثـورات العلويين الفصيل المعارض الأول لحكم العباسـيين من زمن الخليفـة العباسي الثاني المنصور (137 - 159 هـ)، وكان قد أخلفه أخوه عبدالله السـفاح (132 - 137 هــ)، فسـارع المنصـور بقمـع هذه الثـورات التي أحس أنها تشـكل خطرًا على تثبيت دعائم دولة العباسـيين، فبدأ بقمع ثورة أهالي شمال خراسـان الذين ثاروا وأيدوا العلويين، وأرسـل إليهم صالح بن زياد، ثم أرسل إليهـم أبا مسـلم الخراسـاني. وكان قائـد الثورة شريك بن شـيخ المهـري الملقب بالمهدي، وكان يدعو الناس إلى خلافة ولد الإمام علي بن أبي طالب، ويقول منددًا بالعباسـيين وإقصائهـم للعلويين: «ما على هذا بايعنا آل محمد: أن نسـفك الدماء ونعمل بغير الحق». واسـتطاع بمعاونة أهالي سمرقند القيام بثورة عظيمة وحقق بعـض الانتصارات، ثم تخـاذل عنه أتباعه بعـد أن أرهقتهم جيوش العباسـيين، فهزمه جيش أبي مسلم وقتله وقتل معه من أنصاره ثلاثين ألف شخص، وقُمعت ثورته بقسوة شديدة.

وقد اتقد خوف العباسـيين مـن أبناء عمومتهم العلويين بعد ثورة خراسـان، فانطلقـوا يطاردونهـم في كل مكان، فبدؤوا بمجموعة من بني الحسـن بن عليّ في المدينة المنورة، فـقُيِّدوا وأُلقوا في السـجن وفيهم عبد الله بن الحسن بن الحسن بن عليّ كبيرهم، ثم أمر فهُدم السجن عليهم ودُفنوا أحياءً.

ثم قامت ثورة هادرة يقودها محمد بن عبد الله بن الحسـن المعروف بـ «النفس الزكية»، فجهز المنصور العباسي جيشًـا كبيرًا وأرسـله لمحاربتـه. والجدير بالذكر أن الإمـام مالـك بن أنس -صاحب المذهب المالكي- سـاند ثـورة النفس الزكية وكـذا ثورة أخيه إبراهيم وأفتى بأن الناس في حل من بيعتهم للمنصور العباسي، وأفتاهم بأنهم بايعوا مكرهين وليس على مكره يمين.

وانتهى الأمر بعد كر وفر مرير إلى هزيمة النفس الزكية واستشهاده، ثم انهزم أخوه إبراهيم - وكان محمد قد أرسله إلى البصرة - مقابل جيش المنصور في منطقة «باخَمْرى» قرب الكوفة، وقُتل أيضًا، وهرب أخوهما الثالث إدريس إلى شمال إفريقيا، فأسس الدولة الإدريسية في تلك البلاد التي دامت قرابة القرنين من الزمان.

والمُطالع لما ذكره المؤرخون المنصفون مثل ابن عبد ربه والمسعودي وابن الأثير عن سنوات الحكم العباسي الأولى يرى فيها فعله أبو جعفر المنصور بالعلويين أمورًا يشيب لها الوليد. نعم، حقًّا إن هذا الرجل قد ثبَّت أركان دولته وأقام لها أسسًا قوية صلبة، إلا أنه في المقابل أسرف كثيرًا في الظلم والقسوة بشكل لافت للأنظار، ويكفي للمثال ما أورده ابن عبد ربه في العقد الفريد من أن المنصور كان يجلس في بلاطه ويجلس إلى جانبه واعظ، ثم تأتي الجلاوزة في أيديهم السيوف يضربون أعناق الثوار الخارجين عليه من العلويين وغيرهم، فإذا جرت الدماء حتى تصل إلى ثيابه التفت إلى الواعظ وقال: «عظني»!، فإذا ذكّره الواعظ بالله أطرق المنصور كالمنكسر، ثم يعود الجلاوزة إلى ضرب الأعناق، فإذا ما أصابت الدماء ثياب المنصور ثانيًا قال لواعظه: عظني. وتوفي المنصور عام 158 هـ.

ثم ولي بعده ولده المهدي، وكان الدور ولاية عهد المنصور لعيسى بن موسى بن محمد العباسي، لكن المنصور ضغط عليه ورهبه ليحل الناس من بيعته كولي للعهد ليتم مبايعة المهدي، واستخدم المنصور في سبيل ذلك أساليب عديدة حتى استجاب عيسى وأخذ المنصور البيعة بولاية العهد للمهدي بدلًا من عيسى الذي تراجع ترتيبه في ولاية العهد ليأتي بعد المهدي. ليتندر الناس على ذلك بقولهم: عيسى الذي كان غدًا فصار بعد غد. المهدي كانت سيرته أخفّ من أبيه في قمع المعارضين، فبدأ حكمه بإطلاق سراح المنسيين في سجون المنصور، وانشغل بعد ذلك بإخماد ثورات الخوارج في خراسان وقنسرين، وشهدت فترة حكم المهدي ظهور بعض الحركات التي مرقت من الدين، مثل هاشم الملقب بالمقنع الذي كان يرتدي قناعًا منسوجًا بخيوط الذهب حتى يخطف الأبصار عن طريق إشراق الأنوار الإلهية كما كان يروِّج تابعوه. الحقيقة التي اتضحت بعد القبض عليه - أن الرجل كان يخفي

تشوه وجهه. وقد بلغ افتتان أصحابه به حد الهوس به والسجود له. واستطاع المهدي بعـد حملات عديـدة أن يظفر به. وقد اجتهد المهدي في طلـب الزنادقة ومطاردتهم، بـل خصّص وزيـرًا عـُرف بصاحب الزنادقـة أو متولي أمر الزندقـة، وكان أول من تولى هذا المنصب عمر الكلواذني ثم جاء بعده محمد بن عيسى بن حموريه الذي كان شـديدًا عـلى الزنادقة حاذقًا في مطاردتهـم، وقد تمكن من قتل عـددٍ كبيرٍ منهم. ولا ريـب أن الزندقة أمر شـائن مرفوض تعافه النفس السـوية والفطرة السـليمة، لكن المؤسـف كان في الإفـراط في توجيه الاتهـام بالزندقة لأجل خدمة أهداف سياسـية للتخلـص من المنافسـين والأعداء وكسـب حب البسـطاء من العـوام. حتى وصل الأمر بالخليفة حينما يريد أن يتخلص من وزيره فلا يكلفه ذلك إلا أن يرميه بالزندقة والباقي معروف وبما يحقق شرع الله!! وأخيرًا توفي المهدي عام 169 هـ.

بويع الهادي بعد والده المهدي، وكان ملكه سـنة وثلاثة أشـهر، لم يُذكر لِقِصَر مـدة ملكـه تنكيـل برمـوز المعارضة إلا ما ذكـره أبو الفـرج الإصبهـاني في مقاتل الطالبيين، حيث قال: إنّ أُمّ الحسين صاحب فخ هي زينب بنت عبد الله بن الحسن بن الحسـن بن علي بن أبي طالب، قتل المنصـور أباها وإخوتها وعمومتها وزوجها عليّ بن الحسـن، ثم قتل الهادي حفيد المنصور ابنها الحسين، وكانت تلبس المسوح عـلى جسـدها، لا تجعل بينها وبينه شـيئًا حتى لحقت بالله عـز وجل. وانتهى الأمر بالهادي إلى وفاة مفاجئة بعد أن أعد العـُدّة لخلـع أخيه وولي عهده هارون الرشيد من ولاية العهد، وتردد أن الخيرزان أم الرشيد كانت وراء قتل الخليفة.

وهكـذا انـصرف مؤسسـو دولة بنـي العباس سريعًـا إلى مقارعـة خصومهم العلويـين والثائرين معهم الذين صاروا يشـكلون الخطر الأكـبر عليهم، لذا فقد صبّوا جُلّ اهتمامهم عليهم، ولم يكتفوا بمحاربتهم بالسيف، بل استنهضوا سلاح الإعلام والقلم واللسان، فأطلقوا لمبغضي العلويين العنان في النيل منهم، بل إنهم كانوا يشـجعون كل من ينتقص العلويين ويقلل من شـأنهم ويكافئونه، كما فعلوا مع الشاعر عليّ بن الجهم الذي كان لا يفتأ يتحامل على العلويين بشعره في حضرة الخلفاء العباسيين، وغيره كثير.

■ تمجيد العباسيين للأمويين وإلهاء المسلمين بالخلافات العقدية..

الغريب أن العباسيين وجدوا في تمجيد الأُمويين -وبخاصة معاوية- ما يحقق بعض أغراضهم وغاياتهم، فتركوا المجال فسيحًا لمن يروي مناقب الأُمويين أو يفيض في مثالب العلويين، ويشهد أحد المؤلفين والعلماء الثقات من العصر العباسي على هذه الظاهرة؛ إذ يقول ابن قتيبة: وقد رأيت هؤلاء قد قابلوا الغلوّ في حُبّ عليّ بالغلوّ في تأخيره وبخسه حقه، ولحنوا في القول -وإن لم يصرحوا- إلى ظلمه، واعتدوا عليه بسفك الدماء بغير حق، ونسبوه إلى المالأة على قتل عثمان، وأخرجوه بجهلهم من أئمة الهدى إلى جملة أئمة الفتن، ولم يوجبوا له اسم الخلافة لاختلاف الناس عليه، وأوجبوها ليزيد بن معاوية لإجماع الناس عليه، واتهموا من ذكره بخير، بل وجعلوا ابنه الحسين خارجيًّا شاقًّا لعصا المسلمين، حلال الدم، وأهملوا مَن ذَكَره أو روى حديثًا من فضائله، وعنوا بجمع فضائل عمرو بن العاص ومعاوية، وكأنهم لا يريدونهما بذلك، وإنما يريدونه. ويجسد هذا الحال لسان أحد الشعراء العلويين في قوله:

يَا لَيْتَ ظُلْمَ بَنِي مَرْوَانَ دَامَ لَنَا	وَلَيْتَ عَدْلَ بَنِي العَبَّاسِ فِي النَّارِ
تَاللهِ مَا فَعَلَتْ أُمَيَّـةُ فِيهِمُ	مِعْشَارَ مَا فَعَلُوا بَنُو العبَّاسِ

وفي المجمل، قامت دعائم الحكم العباسي في دوره الأول على الظلم والجور، ونهج فيه العباسيون منهجًا فرديًّا لا يحفل بالشورى أو يقيم لها وزنًا، بعيدًا عن العدل السياسي والعدالة الاجتماعية، فالخليفة يحكم بحسب رأيه وهواه وكأنه ظِلّ الله على الأرض.

ولكن زاد بنو العباس عن أسلافهم الأُمويين بإشغال المسلمين بالقضايا العقائدية والكلامية لتفرقتهم وإبعادهم عن الشئون السياسية، ومن هنا

قامت النوادي في بغداد والمدينة والبصرة وسائر أنحاء العالم الإسلامي، تعجّ بالمناظرات الكلامية والجدل الفلسفي، وطال احتجاج كل فريق على الفريق الآخر لتثبيت نظريته ودحض نظريات الآخرين. فحدثت المذاهب الإسلامية، والفرق الدينية، مما جعل الأمة تتشعب إلى طوائف، وقع في ما بينها الكثير من المناظرات والمخاصمات والجدل، فكانت النوادي التي حفلت بالمعارك الكلامية ميدانًا لصراع عنيف، وبصورة خاصة في قضايا: خلق القرآن، وصفات الخالق الإيجابية والسلبية، والقضاء والقدر، والجبر والاختيار.

ولا ريب أن أخطر الدعوات المحمومة التي اندلعت في ذلك العصر كانت هي «الإلحاد»، وقام به دخلاء حملوا في قرارة نفوسهم الحقد على الإسلام والكره للمسلمين، وقد ثقل عليهم امتداد الحكم الإسلامي وانتشار سلطانه في الأرض، فرأوا أن لا حول لهم ولا طول إلى محاربته بالقوة، فأخذوا عن طريق الخداع والحيل يبثون سمومهم في نفوس الناشئة الإسلامية، وما زالوا حتى اليوم يلقون الشُّبَه والأوهام في النفوس، حتى إننا وجدنا من استجاب لهم من المسلمين المخدوعين والمغرورين.

وقد كانت فترة الرشيد والمأمون والمعتصم مجالًا خصبًا لكل هذه الدعوات. ولا بد من الإشارة هنا إلى أن أول من صدح بدعوى الإلحاد والزندقة في العصر العباسي كان ابن المقفع الذي قُتل في بواكير العصر العباسي في خلافة المنصور، ويقول المهدي العباسي عنه: (ما وجدت كتاب زندقة قط إلا وأصله ابن المقفع). وكما أشرنا فإن الخليفة العباسي المهدي اجتهد في تعقب الملاحدة والزنادقة وقتل منهم خلقًا كثيرًا، وظفر المهدي بالشاعر بشار بن برد الذي كان يشيد بالنار معبود قومه المجوس ويرفعها على الطين، كما رفع إبليس على بني الإنسان. وبلغ من حماسة المهدي لقتل بشار أن خرج بنفسه إلى البصرة ليشهد إعدامه. وكذا ظفر صالح بن عبدالقدوس الذي اعتنق المانوية وكان يناظر بها، فقتله وصلبه على الجسر ببغداد. وكانت البصرة وكرًا للملاحدة فتتبع المهدي زنديقين من كبار زنادقتها هما: عبدالكريم بن أبي العرجاء: وحماد عجرد، وكان

عبد الكريم مانويًّا يؤمن بالتناسخ، ولما قدم للقتل قال: «لئن قتلتموني فلقد وضعت في أحاديثكم أربعة آلاف حديث مكذوبة مصنوعة». ويظهر قوله هذا تكلف واجتهاد الزنادقة في الكيد للإسلام، وقد صرف علماء الحديث كبير جهد في تعقب أحاديث أبي العرجاء وأشباهه من الزنادقة وأسقطوها. وسلك الهادي على قِصر مدته مسلك أبيه في مواجهة الزنادقة وقتل منهم جماعة. وجاء هارون الرشيد ليشتد في طلب الزنادقة، وكان أشهر من تعقبه يونس بن أبي فروة الذي ألَّف كتابًا في مثالب العرب وعيوب الإسلام - بزعمه المريض - وكان يونس قد أرسل كتابه المشحون بالزندقة لنقفور ملك الروم فطار به وأغدق عليه مالًا كثيرًا. وكذا تعقب الرشيد الخليل الشاعر المشهور لما ذاع في زندقته، غير أنه تبرأ منها فأطلقه الرشيد بعد استتابته. وجاء المأمون ليسلك منهجًا مختلفًا في مواجهة الملاحدة والزنادقة، فما إن يسمع بواحد منهم إلا أمر بحمله إليه ليمثل في مجلسه ليناظره عددٌ من العلماء فيما يعتقد، وكان يشارك بنفسه في المناظرات. وإن لم يكفّ عن زيغه كان يأمر بقتله.

■ مواجهة الدماء بين العباسيين ومعارضيهم..

تناولنا آنفًا انقلاب العباسيين على العلويين وتنكيلهم بهم بصورة فاقت أفعال الأُمويين بهم، ولم يكتفوا بمحاربتهم بالسيف، بل استنهضوا سلاح الإعلام والقلم واللسان، فأطلقوا لمبغضي العلويين العنان في النَّيل منهم.

وقد تولى هارون الرشيد الملك، ولم يحظَ خليفة بعد الخلفاء الراشدين بالشهرة الواسعة وذيوع الذكر مثلما حظي الخليفة العباسي هارون الرشيد، غير أن تلك الشهرة امتزجت فيها الحقيقة بالخيال واختلطت الوقائع بالأساطير، حتى كادت تختفي صورة الرشيد، وتضيع قسماتها وملامحها. وباليقين، إن هذا الخليفة يحمل تناقضات مذهلة؛ فهو من أشد العباد رقة وقت الموعظة، وأكثرهم عسفًا وقت الجور والغضب، محب للطرب، جمع حوله كثيرًا من العقول المتنافرة المتقدة التي صار يضرب بعضها بعضًا. دامت خلافته ثلاثًا وعشرين سنة، لكن في المقابل شهد عصره نموذجًا صارخًا لدولة الفرد التي يستطيل فيها الملك على العباد من دون شورى أو مراعاة لحقوق العباد.

ونضرب لبطش الرشيد مما أورده التاريخ مثالين: الأول عن البرامكة، وقد كان من أشد ما أولع المؤرخون بذكره نكبة هؤلاء البرامكة وما فعله فيهم هارون، وأجهدوا قرائحهم في تعرف أسباب إيقاع الرشيد بهم. رغم أن هذا العمل لم يكن بدعًا في الدولة العباسية؛ فإن للمنصور والمهدي سلفًا في ذلك، فقد أوقع المنصور بوزيره أبي أيوب المورياني وقتله وأقاربه، واستصفى أموالهم لخيانة مالية اطلع عليها منهم. وأوقع المهدي بوزيريه: أبي عبد الله معاوية بن يسار، ويعقوب بن داود؛ لوشاية كانت بهما، مع نزاهة الأول وحسن سيرته، ومع ما كان للمهدي من الولع بالثاني حتى كتب للجمهور أنه اتخذه أخاه في الله. كل هذا قد سُبق به الرشيد.

ولقد كانت أسرة البرامكة وبحق غرة في جبين الدولة العباسية، لما كان لهم من المآثر والفضائل والسخاء والأعمال العظيمة في الدولة، وخصوصًا أيام الرشيد؛ فالأب يحيى بن خالد كان المسئول عن تربية الرشيد، وزوجته أرضعت هارون الرشيد، وهو الذي حافظ لهارون على ولاية العهد عندما همّ الخليفة الهادي بخلع أخيه الرشيد، وهو الذي قام على أمر وزارة الرشيد أفضل قيام حتى فوض له كل الأمور، أما ابنه الأكبر الفضل فكان أخا الرشيد في الرضاعة والمسئول عن تربية الأمين -ابن الرشيد- واستطاع أن يقضي على فتنة يحيى بن عبد الله في بلاد الديلم، واتخذ من جندها جيشًا كبيرًا تعداده 50 ألف جندي، جعل ولاءهم له مباشرة، وسماهم «العباسية».

أما جعفر -سبب النكبة- فهو نديم هارون الرشيد وخليله في المجالس، وله أعمال كبيرة أيضًا؛ فهو الذي قضى على العصبية القبلية في الشام سنة 180 هـ، ثم جعل له ولاية خراسان والشام ومصر، وجعله مسئولًا عن تربية ابنه المأمون. أما موسى -الأخ الثالث- فكان كل همه القتال والغزو بحكم شجاعته الفائقة، وكانت هذه الشجاعة أحد أسباب نكبتهم؛ حيث غار منه بعض القواد الآخرين وسعوا فيه عند الرشيد.

واختلف المؤرخون بينهم في السبب الذي دفع الرشيد إلى التخلص من الأسرة البرمكية على الرغم من أعمالهم العظيمة، واختلقت روايات كاذبة عن ذلك، أجمع المحققون على بطلانها، أمثال قصة العباسة أخت الرشيد مع جعفر، أو الربط بين أصل البرامكة، فهم مجوس. ولكن نستطيع أن نلخص من خلال الروايات التاريخية المحققة الأسباب التي أدت بالبرامكة إلى هذه النهاية الأليمة، في الآتي :

1 - **حادثة يحيى بن عبد الله الطالبي**: الذي خرج إلى بلاد الديلم ودعا لنفسه هناك، وبايعه كثير من الناس، وقويت شوكته، وذلك سنة 176 هـ، فأرسل إليه الرشيد الفضل بن يحيى، واستطاع الفضل أن يستنزل يحيى

بالسلام على أمان له عند الرشيد، وذلك من غير أن تُراق نقطة دم، وعُدّ ذلـك مـن أفضل أعمال الفضل. وبعد فترة ظهـر من يحيى ما أوجب عند الرشـيد نقض الأمان، فأمر بحبسـه عنـد جعفر بن يحيـى البرمكي، وفي ذات ليلـة اجتمع يحيـى مع جعفر، وما زال به حتـى أطلقه جعفر وزوده بالمال اللازم لخروجه من بغداد، فوصل الخبر إلى الرشيد، وكان ذلك يعد خيانة عظمى عند العباسـيين لشدة خوفهم من الطالبيين، فخاف الرشيد مـن تآمـر آل برمك مع الطالبيين مـن أجل إقصاء العباسـيين، فأمر بقتل جعفر وحبس باقي الأسرة.

2 - **الترف الشـديد**: كان البرامكة يعيشـون في ترف شـديد جـدًّا، حتى إنهم كانـوا يبنون قصورهـم ويضعون عـلى الحوائط بلاط الذهـب والفضة، وبنى جعفر بيتًا له كلفه عشرين مليون درهم، وكان الرشيد في سفر ذات يـوم، فلم يمر عـلى قصر ولا إقليم ولا قرية إلا قيل لـه: هذا لجعفر. هذا الترف جعل الرشـيد يتابعهم في الدواوين، فاكتشف وجود خلل كبير في مصاريف الدولة.

3 - **الفضل بن الربيع**: كان من موالي العباسيين، وكان وزيرًا للرشيد ويوصف بأنه كان داهية شديد العداء للبرامكة، ويقال إنه هو الذي سعى بهم عند الرشـيد، وأظهر عيوبهم، وغطى محاسنهم، ووضع عليهم العيون، حتى استطاع أن يرصـد حادثة هـروب يحيـى الطالبي عند جعفـر، فأخبر بها الرشيد، وزين له أن البرامكة يريدون الخلافة للطالبيين.

4 - **جيش البرامكة**: لعل هذا السبب عندي هو الأوضح والأقوى مع حادثة يحيى الطالبي، وأصل هذا الجيش كما ذكرنا كوّنه الفضل بن يحيى من جند خراسـان (وتلك البلاد معروفة تاريخيًّا بولائها للعباسيين، ولكن ميلهم أكثـر للطالبيـين وآل البيت)، وجعل ولاءه له مبـاشرة من دون غيره، ثم استقدم منهم عشرين ألفًا لبغداد وسـماهم (الكرنبية) مما حرك هواجس

الرشيد، غير أنه لم يتحرك حتى جاءه خبر من والي خراسان عيسى بن ماهان أن السبب في اضطراب خراسان هو موسى بن يحيى من بغداد، فتحقق الظن عند الرشيد، وعندها قرر الرشيد عند رجوعه من الحج الإيقاع بالبرامكة، فأمر بقتل جعفر وصلبه على جسر بغداد، وحبس باقي البرامكة في السجون، والاستيلاء على أموالهم وقصورهم وكل ما لديهم، وساموهم في السجن سوء العذاب، وتبدل نعيمهم بؤسًا، وماتوا واحدًا تلو الآخر في السجون. ولقد ظهر من يحيى بن خالد صبر عظيم ورضا بقضاء الله، ومن عجيب ما يذكر في أسباب هذه الحادثة أن يحيى بن خالد كان يحج ذات مرة، فوقف عند باب الكعبة، ودعا قائلًا: «اللهم إن كان يرضيك عني سلب جميع مالي وولدي وأهلي فافعل ذلك»، فكان الأمر كما دعا هو بنفسه، والله أعلم بالعاقبة.

أما صاحب المأساة الثانية التي تفصح بجلاء عن جور الرشيد وبُعده عن منهج الخلافة الراشدة فهو الإمام موسى بن عليّ بن الحسين بن علي بن أبي طالب، حيث ينقل إلينا التاريخ أن الرشيد عندما زار مدينة رسول الله (ﷺ)، توجّه لزيارة النبي (ﷺ) ومعه الناس، فتقدم إلى القبر وقال: «السلام عليك يا رسول الله، السلام عليك يا ابن العم»، وكأنه يريد أن يفهم كل من حوله بأنه يملك الخلافة على أساس قرابته من رسول الله (ﷺ)، فتقدم الإمام الكاظم إلى القبر فقال: «السلام عليك يا رسول الله، السلام عليك يا أبتاه»، وتغير وجه الرشيد وتبين الغيظ فيه. وواضح تمعّر وجه الرشيد؛ لأن الكاظم لم يترك له مجالًا ليأخذ عنفوانه وزهوه على أساس القرابة للنبي المصطفى (ﷺ). وهنا يسأله هارون الرشيد: «لِمَ جوزتم للعامة والخاصة أن ينسبوكم إلى رسول الله (ﷺ) ويقولون لكم: يا بني رسول الله، وأنتم بنو علي، وإنما ينسب المرء إلى أبيه، وفاطمة إنما هي وعاء، والنبي جدكم من قِبل أمّكم؟»، فقال الكاظم: «لو أن النبي (ﷺ) عاد إلى الحياة من جديد فخطب إليك كريمتك، هل كنت تجيب؟»، فقال: «سبحان الله! ولِمَ لا أجيبه؟ بل أفتخر على العرب والعجم وقريش بذلك»، فقال الكاظم: «لكنه (ﷺ) لا

يخطب إليّ ولا أزوّجه»، فقال: «ولِـم؟»، قال الكاظم: «لأنه ولدني ولم يلدك»..
وفي الحقيقة لم يكن الإمام الكاظم يريد أن يعارض نهج العباسيين ومظالم الرشيد للعباد من موقع القرابة للرسول -صلى الله عليه وآله وسلم- كما كان العباسيون يفعلون عندما كانوا يقدمون أنفسهم للناس على أنهم أبناء عم الرسول (ﷺ)، لكن كان يريد أن يسقط هذا العنفوان والاستكبار لهارون الرشيد.

وفي نفس الوقت حسم الرشيد أمره أن الخطر المحدق به نظرًا لائتلاف قلوب الناس حوله هو الكاظم، وعليه قرر الرشيد حبس الإمام الكاظم بعد أن عرف تأثيره في عموم المجتمع الإسلامي، ورأى أن هذا التأثير يمكن أن يمتد ويقوى ويتعمق بالمستوى الذي قد يجعل للإمام الكاظم امتدادًا أكبر، فيهدد حكمه بعد ذلك، ولذلك يقال ويا للعجب بأن هارون وقف أمام قبر رسول الله (ﷺ) معتذرًا منه بأنه يريد حبس الكاظم، قائلًا: «لأني قد خشيت أن يلقي بين أمتك حربًا يسفك فيها دماءهم».

هذا منطق كل الطغاة الذين يبطشون لمجرد الظن. ويتحدثون عن أية قوة معارضة بأنها تفرق بين الناس، وتهدد أمنهم، وتفضي إلى تهديد الأمن والسلام الاجتماعي، وما إلى ذلك من الكلمات التي هي عنوان للحق الذي يراد به باطل. ويصدر هارون أمرًا بإلقاء القبض عليه، حيث يسيره إلى البصرة، وبعد ذلك إلى بغداد، ثم يوضع الكاظم في سجن السندي بن شاهك الذي كان رجلًا فظًّا غليظًا، فضيّق عليه ووضعه في «طامورة» لا يعرف فيها الليل من النهار، ودسّ إليه السَّم في طعامه فاستُشهد في سجنه.

■ فتنــة الأمــين والمــأمــون..

ولقد وصّى هارون لثلاثة من أبنائه بولاية العهد، وهم: الأمين والمأمون والمؤتمن، بالترتيب، ولمعرفته بميول قومه العباسيين إلى ولده الأمين الذي كانت والدته زبيدة ترعاه، خشي على المأمون الذي كان يرى فيه كفاءة وحزمًا أكثر لإدارة البلاد فمنحه بعض المناصب في الدولة. وكان الفُرس الذين كانوا لا يزالون متنفذين في الدولة العباسية على الرغم من نكبة البرامكة يميلون نحو المأمون؛ لأن أمه منهم ولأنه تربى في أحضانهم. من هنا كانت سحُب الفتنة تتجمع في سماء الأمة، وكان هلاك هارون الرشيد في خراسان في وقت مبكر وقبل أن ينهي ترتيب أوضاع البلاد معجّلًا بإشعال نار الفتنة، كما أن مرافقة المأمون لوالده، التي جاءت -حسب بعض الروايات- بإشارة من معلّمه ووزيره الفضل بن سهل، ساهمت فيها. وفي المقابل سارع الأمين، وربما بإشارة من بعض قواده العباسيين، إلى خلع أخيه ونصّب ابنه وليًّا للعهد، وكان من الطبيعي أن يرفض المأمون ذلك، مما حدا بالأمين إلى أن بعث بعض قواده ليأتوا به مغلولًا، وقد شجع المأمون بعض قادة جيشه، ولا سيما مَن هُم مِن الفُرس، على التمرد ففعل، وانتهى الأمر بالحرب بين الأخوين، التي أدت إلى خلع الأمين وقتله واستتباب الأمر لأخيه المأمون.

وكانت هذه الحرب أول حرب بين العباسيين، ومن أسوأ الحروب الداخلية بين المسلمين، مما زعزع الثقة بالنظام السياسي عند الجماهير وشجع المعارضة على الثورة، فإذا بأطراف البلاد تنتفض وتخلع الحاكم وتبايع واحدًا من العلويين. وكانت أخطر وأعظم هذه الثورات حركة أبي السرايا في الكوفة التي قادها السري بن منصور، وعقدت لواء الزعامة لواحد من أبناء الإمام الحسن بن عليّ واسمه محمد بن إبراهيم بن إسماعيل. وانتشرت هذه الحركة حتى شملت الكوفة والواسط والبصرة والحجاز واليمن، ووقعت بينها وبين جيوش بني العباس

معارك طاحنة لم يظفر العباسيون بها إلاّ بالحيلة والمكر. وفي مكة المكرمة ثار محمد بن الإمام جعفر الصادق وبويع بالخلافة ولُقّب بـ (أمير المؤمنين).

وكانت هناك ثورات أخرى في بلاد الشام والمغرب وكلها تدل على اضطراب الوضع السياسي، حتى إن الناس لم يبايعوا المأمون إلّا بعد أن استتب الأمر له وعاد إلى بغداد، وبعد حروب أكلت مئات الألوف. وقد عاد المأمون من حروب السيف إلى حروب الدهاء والعقل.

■ أولى صفحات دهاء المأمون مع الإمام الرضا..

عاد المأمون إلى بغداد، وبعد حروب أكلت مئات الألوف. وقد عاد المأمون من حروب السيف إلى حروب الدهاء والعقل، بعد أن أصبح الأمر في المشرق والمغرب تحت سلطان المأمون، وهو سابع خلفاء بني العباس في الترتيب. ولقد كان المأمون واليًا من قِبل والده على خراسان، وكان يقيم في عاصمتها مرو، وكان من الطبيعي أن يفضِّلها بعد أن انفرد بالخلافة، حيث تضم أنصاره ومؤيديه، فهو هناك في أمان واطمئنان. وكان الفُرس يودون أن يبقى بـ(مرو) لتكون عاصمة الخلافة، ولكنها بعيدة عن مركز الدولة، وهي أكثر اتجاهًا نحو الشرق، مما جعل سيطرتها على العرب ضعيفة، واستيقن من ذلك لما ثار أهل بغداد أنفسهم ضد المأمون، حتى إنهم خلعوه أخيرًا، وبايعوا بدلًا منه عمه إبراهيم بن المهدي. واضطر المأمون أخيرًا إلى أن يذهب إلى بغداد وأن يترك (مرو) للقضاء على هذه التحركات في مهدها. وكان معظم أعوان المأمون من الفرس، وجُلهم من العلويين، ولهذا عمدا المأمون إلى ممالأة القوم وكسبهم إلى جانبه، فأرسل إلى زعماء العلويين أن يوافوه في عاصمته (وكانت «مرو» في ذلك الوقت)، فلما جاؤوه أحسن استقبالهم، وأكرم وفادتهم، وما لبث بعد قليل أن عهد بولاية العهد إلى الإمام علي الرضا بن الإمام موسى الكاظم، وهي باليقين خطوة جريئة؛ لأن فيها نقلًا للخلافة من البيت العباسي إلى البيت العلوي. ولم يكتفِ بهذا، بل غيّر الشعار من السواد، وهو شعار العباسيين، إلى الخضرة وهو شعار العلويين. ورغم شديد اعتراض أقاربه من العباسيين، فإن المأمون كان مُصرًّا على هذا الأمر؛ إذ كان يظهر أن ذلك من باب بِرّ الإمام علي بن أبي طالب. وجاءت عمة أبيه زينب بنت سليمان بن عليّ، وكانت موضع تعظيم العباسيين وإجلالهم، وهي من جيل المنصور، وسألته: «ما الذي دعاك إلى نقل الخلافة من بيتك إلى بيت عليّ؟»، فقال: «يا عمة، إني رأيت عليًّا حين ولي الخلافة أحسن إلى بني العباس،

وما رأيت أحدًا من أهل بيتي حين أُفضي الأمر إليهم كافأه على فعله، فأحببت أن أكافئه على إحسانه».

ويعتبر الإمام الرضا من الأئمة الذين لعبوا دورًا كبيرًا على مسرح الإحداث الإسلامية في عصر المأمون، وكان محورًا لكثير من الأحداث الجسام. أقول: وعلى الرغم من وفرة الروايات والثوابت المنقولة فإن ما كُتب عن الإمام لم يعطِ التاريخ حقه، فالمعلومات المعروفة عند الناس شحيحة في حجمها ناقصة في جوهرها. ومن المؤسف أن قليلًا من المسلمين من يعرف عن شخصية الإمام علي بن موسى الشهير بالرضا، وسيرته التي اتسمت بالكفاح المرير طيلة حياته. وباليقين لقد كان من عجائب المأمون إصراره على نقل ولاية العهد إلى الرضا رغم شديد نكير العباسيين له. ويفصح قابل الأيام عن دهاء المأمون في استخدامه هذه الحيلة لإخماد ثورات العلويين، فقد تعلم الدرس من أسلافه أن السيف قد يقطع رقاب الثوار لكنه لا يقضي على الثورات التي زلزلت أركان البيت العباسي، ولما كانت الثورات في جلّها العظيم من العلويين وأنصارهم فقد كانت الحيلة أن يولي العهد إلى إمامهم ورمزهم، وهو الأكبر منه بعشرين سنة، ولذا كان المتوقع أن لا يطول بقاؤه بعده، ولكن الإمام رفض ذلك، وكان يعرف نوايا المأمون، فقد قتل أخاه الأمين من أجل الحكم والخلافة، فكيف يتنازل عنها؟!

ولقد أُجبر الإمام الرضا بعد طول إلحاح وترهيب آخر المطاف على قبول ولاية العهد رغم رفضه إياها مرارًا وتكرارًا، وعندما بدأ المأمون يهدد بقبولها التمس الإمام إليه أن يعفيه من هذا التكليف، فأردف المأمون قائلًا: «إنك يا أبا الحسن تتلقاني أبدًا بما أنا كارهه، وقد أمنت سطوتي، فبالله أن تقبل ولاية العهد وإلا ضربت عنقك»، ليفصح عن أسلوب شديد العسف والمكر في نقل ولاية الأمر، وليعلن المأمون في خطاب تولية الرضا العهد بقوله: «لاحظت في شخصية الرضا السجايا الحميدة كأفضل الناس والعلم الغزير والزهد الخالص والتخلي عن متاع الدنيا وقربه إلى الناس، فالألسن عليه متفقة والكلمة فيه جامعة، فقد تجلى في الإمام المقام الرفيع منذ أن كان يافعًا حدثًا ثم مكتهلًا».

وكذلـك وصف الجاحظ الذي عاصر عصر المأمون الإمام الرضا فقال: «كان الرضا عالمًا زاهدًا، ناسكًا شجاعًا، جوادًا كريمًا».

وبعـد أن فرضت عليه ولاية العهد قسرًا من قِبـل المأمون شرط أن لا يتدخّل في شـئون الحكم، وضُربت النقود باسم الإمام. وليقين الإمام أن أساليب الحكم العباسي لا تتماشـى ونهج الإسلام الحنيف فكان شديد النكير لأفعال العباسيين، وكان أركان الدولة العباسـية في المقابل يوغـرون صدر المأمون تجاه الإمام الرضا ولكنه كان يظهر صبرًا وتقديرًا للرضا لغرض في نفس يعـقوب. وبعد أن هدأت ثـورات العلويـين، وكانـت حاشـية المأمون تسـتبيح أمـوال المسـلمين ودماءهم وأعراضهـم في البذخ والترف والتمتع بالملذات، الحلال منها والحرام، فيكفي أن نضرب مثالًا في الإسراف المذهل والاسـتهانة بمشـاعر الشـعب في وصف لحفلة زفـاف أقامها الخليفة المأمون لعروسـه بـوران التي قال عنهـا المؤرخ ابن طيفور: إنهـا كانت من غرائـب قصص الخيال، فقـد نثرت عـلى رءوس الضيوف، وكان غالبيتهـم من أقارب الخليفة ووزرائه وقواد جيشـه، كميات من مصقول البندق الـذي كان يحتـوي في داخله على رقاق كُتـب عليه إحدى العبـارات الثلاث: إما قريـة أو جاريـة أو فـرس. فالضيف الذي ينـال بندقة يذهب إلى الوكيل يسـجل مـا بداخلها ملكًا صرفًا لحاملها، فلو كان مـن نصيبه قرية أصبح الضيف في تلك الساعة صاحب تلك القرية بما فيها من بشر وحيوانات وقلاع وبساتين وغيرها! وهكذا مع البقية، فتصوروا! وهذا كله كان على حسـاب الشـعب الأعزل الذي كان يعـاني حيـاة البؤس والشـقاء لينعم الخلفاء وحاشـيتهم بحيـاة ملؤها الترف الحرام. وكل هذا باليقين بعيدًا عن هدي الإسلام وتعاليم سيد المرسلين.

وقد سـجّل التاريخ لقاء الشاعر الفحل دعبل الخزاعي بالإمام عليّ بن موسي الرضـا، فقد روى أبو الصلت الهروي أن دعبل الخزاعي دخل على عليّ الرضا في (مـرو) وقال لـه: «يا ابن رسـول الله، إني قد قلت فيكم قصيـدة وعاهدت نفسي أن لا أنشـدها أحدًا قبلك». فرحّب به الإمام وشـكره وطلب منه إنشادها، وبدأ دعبل يترنّم بأشعاره، وقد جاء فيها:

مَدَارِسُ آيَـاتٍ خَلَتْ مِنْ تِلاَوَةٍ وَمَنْزِلُ وَحْيٍ مُقْفِرُ العَرَصَاتِ

قُبُورٌ بكوفَـانَ وأُخْرَى بِطيبةٍ وَأُخْرَى بِفَـخٍّ نَالَهَا صَلَوَاتي

وَقَبْرٌ بِبَغْـدَاد لِنَفْسٍ زَكِيَّةٍ تَضَمَّنَهَا الرَّحْمَنُ فِي الغُرُفَاتِ

فقام الإمام إليه وهمس مرتجلًا:

وَقَبْرٌ بِطوسٍ يَا لَهَا مِنْ مُصِيبةٍ أَلَحَّتْ عَلَى الأَحْشَاءِ بِالزَّفَرَاتِ

فقال دعبل متعجبًا: «لا أعلم قبرًا لكم بطوس! فلمن هذا القبر؟!».

فقال الإمام: «إنه قـبري يا دعـبل».

وهكذا فقد اقترب الفصال بين الإمام الرضا والمأمون بعد أن أعلن العباسيون تمرّدهـم في بغداد، وبايعوا إبراهيم بن المهـدي العباسي الملقب بالمغنّي خليفةً بدل المأمـون؛ خوفًـا من انتقـال الخلافـة إلى العلويين. وصـار المأمون ينتهـز الفرص للتخلّص من الإمام الرضا بعد أن يئس من إغرائه بالسـلطة، وبقي كما هو طاهرًا مطهـرًا بعيدًا عـن الدنيا زاهدًا فيهـا. ولكي يرضي المأمون بنـي العباس في بغداد ويحتفظ بالخلافة قرّر اغتيال الإمام، فدسّ إليه السُّـم في العنب. واستُشهد الإمام متأثرًا بالسُّم، فمضى إلى الله مظلومًا شهيدًا.

وكانت علاقة المأمون بالإمام الرضا أولى صفحات كتاب المكر والدهاء الذي سطر فيه المأمون صفحات وصفحات.

■ معارك الكلام والجدل بين العوام..

بعد أن انتهى المأمون من حروب السيف بدأ يخوض أولى جولاته في حروب الدهاء والعقل ليغير استراتيجية أسلافه في الحكم، القائمة على السيف والقتل، قناعة منه بأن السيف قد يقطع رقاب الثوار لكنه لا يقضي على الثورات التي زلزلت أركان البيت العباسي. ولما كانت الثورات في جلّها العظيم من العلويين وأنصارهم فقد كانت الحيلة أن يولي العهد إلى إمامهم ورمزهم الإمام موسى الرضا حتى انتهى الأمر به إلى قتله بالسُّم، حين وجد أن السحر سينقلب على الساحر. ثم انتقل المأمون إلى سلاح العقل والجدل ليسوس الأمة المتفضة أركانها عليه، فنشأ علم الكلام في زمنه وترعرع على يديه، وعلم الكلام: علم يبحث في أصول الدين والعقائد ويعتمد على العقل من دون النقل، ونتيجة لذلك ظهر خلاف بين أهل السنّة الذين يعتمدون في علوم العقائد على النقل، والمعتزلة الذين يقدمون العقل على النقل، ومنها المسألة المشهورة شديدة الدقة: هل القرآن كلام الله القديم أم هو مخلوق؟ فقد اتفقت كلمة المعتزلة على أن القرآن الكريم، وهو كلام الله عز وجل، مخلوق له -عز وجل- وليس بقديم، وأنه صفة غير قائمة بذاته كما هو الحال بالنسبة للنعمة، فهو -عز وجل- منعم باعتبار صدور النعمة منه، ونعمه -عز وجل- كلها حادثة ومخلوقة له -عز وجل- وكذلك كلامه تعالى وإنْ كان قد صدر منه ولكنه حادث ومخلوق له تبارك وتعالى. في حين صدحت مصادر أهل السنّة -وبالأخص الحنابلة- بأنّ القرآن كلام الله ووحيه، وهو مخلوق محدث أنزله الله على نبيه (ﷺ) ليكون علمًا ودالًا على نبوّته، وجعله دلالة لنا على الأحكام لنرجع إليه في الحلال والحرام، واستوجب منا بذلك الحمد والتقديس، وإذن هو الذي نسمعه اليوم ونتلوه. وقد تبنى المأمون العباسي رأي المعتزلة ووقف إلى جانبهم وواجه القائلين بِقِدم القرآن الكريم وكونه ليس بمخلوق، وأصدر الأوامر بتقوية المعتزلة والوقوف بوجه خصومهم. ومسألة

خلق القرآن مسألة على بساطتها كانت سببًا في شغل الأمة سنوات عدة وابتلاء كثير من العلماء، وأُريقت فيها دماء زكية على يد المأمون، ومن بعده على يد المعتصم؛ لاعتناقهما المذهب الذي يقول إن القرآن مخلوق، خلافًا لأهل السنّة والجماعة، والمسألة في حقيقتها لا تحمل طابع العلم الديني بقدر ما تحمل طابعًا ودوافع سياسية صرفة، كانت لها آثارها السيئة على المجتمع الإسلامي، فشغلته عن التصدي لمظالم العباسيين وألهتهم في جدل عقيم عن حقيقة حكم الجور الذي كانوا يرسفون فيه. ومعتمد القول فيها ببساطة ما قاله الإمام الرضا حين عاصر بواكير هذه الفتنة وسُئل عن القرآن أهو مخلوق أم لا فقال: «لا أقول فيه إلّا أنه كتاب الله». وسيرًا على نهج المأمون ودهائه في إشغال الأمة بأحاديث وخلافات تستهلكها وتقسمها شيعًا وأحزابًا، جريًا على القاعدة الذهبية في سوق الرعية «فرِّق تسُد»، كان أصحاب المذاهب المخالفة لما عليه عامة الناس لا يستطيعون أن يظهروا آراءهم خوفًا من العامة، فلما جاء المأمون أفسح المجال للمتخالفين أن يتناظروا في أدق المسائل التي تذهل العامة وتلبس عليهم، التي إن جاز مناقشتها في الغرف المغلقة بين أهل العلم والاختصاص فإن مناقشتها في الأسواق والطرقات هي فتنة للعوام والبسطاء، فكان يجمع إليه العلماء من المتكلمين والفقهاء وأهل الحديث، ويجعل لهم مجالس مناظرة، وكان يظهر أن الهدف من هذا الصراع الفكري هو أن يتفق هؤلاء المتكلمون على رأي في ما يعرض لهم، والواقع أن الجدل كان يطول من دون الوصول إلى كلمة سواء، بل كان يشهد هدمًا لبعض الثوابت والمسلّمات ويتراشق المتجادلون وينتهي الأمر بأن يرمي بعض المتناظرين بعضًا بالكفر والفسوق. وهو ما أسهم في مزيد من شتات المسلمين إلى يومنا هذا جراء هذه المناظرات. وحتى لو نافح أحد عن موقف المأمون العباسي برغبته في توحيد كلمة المسلمين في بعض المسائل الفرعية، ففي الحقيقة كان هذا ضربًا من المستحيل، وهو مخالف لسنن الله -عز وجل- وقد كان أكابر العلماء لا يمتعضون من الخلاف في الفروع ما دام هناك اتفاق في الأصول والحمد لله، ولا يرون حمل الأمة على رأي واحد، بل كانوا يقولون: «من لم يعرف الخلاف لم يشمّ رائحة

الفقه». أي من لم يعرف الآراء المتعددة في المسألة الواحدة ووجهة نظر أصحابها لم يكن واسع الأفق أو الفقه. ثم إن المأمون العباسي أراد فتح ميدان آخر للصراع العقلي حين وجد أن الأفكار الثورية قد انتشرت في الأمة الإسلامية من أقصاها إلى أقصاها، وكان زعماء الثوار ممن لا تشغلهم جدليات الكلام وخلافات الفقهاء، فكان لزامًا أن يقدح زناد عقله ويبدأ فكرًا جديدًا (المخلوع يظهر من جديد)، وذلك بالاعتماد على خلفية فكرية وأيديولوجية جديدة يحارب بها تلك الأفكار الثورية ويجهضها. هذه الخلفية شكلتها الأفكار التي تحملها الكتب المترجمة، خصوصًا من اللغة الفارسية. ونتساءل: لماذا اختار المأمون أن يركز على ترجمة تلك الكتب الفارسية تحديدًا؟ لو رجعنا إلى بلاد فارس لرأينا أنه قد تعاقب على حكمها ملوك كانوا يسيطرون على رقاب الناس، بينما الناس كانوا مستعبدين محرومين. وهؤلاء المستعبدون المحرومون لم تكن عندهم أفكار ثورية، إنما كانوا مشبعين بأفكار استسلامية، وقد أنتجت هذه الحقب في فارس فكرًا وضعه مجموعة من الكتّاب الذين يغدق عليهم الإمبراطور الأموال الضخمة ليكتبوا كتبًا يدعمون بها سلطانه، فكانت هذه الكتب تدعو إلى الاستسلام وتقول: «الله في السماء والشاهنشاه في الأرض». وكذلك تقول هذه الكتب: إن العائلة المالكة ضرورية لاستقرار البلد (عبارات أقرب ما تكون إلى عبارات إعلام المخلوع، فالطغاة في كل العصور نسق واحد). هذه الأفكار هي التي استطاعت التغلب على إرادة الجماهير وتخديرها والسيطرة عليها سيطرة كاملة. وقد اطّلع المأمون على تلك الأفكار في خراسان التي عاش فيها واتصل ببقايا ممالك فارس، ووجد في تلك الأفكار خير عامل على تثبيت سلطانه. وقد أدت سياسة المأمون في إدارة صراع العقل لإلهاء الناس عن مظاهر الترف وإبعادهم عن كتائب الثورة ضد مظالم حكمه إلى ظهور حركات علمانية وإلحادية في شتى البلاد الإسلامية، نتيجة الخيبة التي مُني بها من دخل الإسلام من أتباع الديانات الأخرى وهم ينشدون العدالة الاجتماعية والحرية السياسية والرحمة، فإذا بهم رأوا أن الإسلام من حيث الواقع هو مجموعة من الأفكار يسيطر بها بنو أمية وبنو العباس على رقاب

الناس، فاندفعوا راجعين إلى دياناتهم السابقة، أو إلى معتقدات جديدة نسبوها إلى الإسلام، ومن أظهرها: حركة بابك الخرمي، وكان داعيًا إلى المزدكية وأسرف في القتل والحرب والاغتصاب والمثلة، والبابكية ينسبون أصل دينهم إلى أمير كان قبل الإسلام اسمه شروين ويزعمون أن أباه كان من الزنج وأمه من بنات ملوك الفرس، ويزعمون أن شروين هذا أفضل من كل الأنبياء، وقد بنوا في مدينتهم مساجد، وهم يعلّمون أولادهم القرآن، ولكنهم لا يصلّون ولا يصومون في شهر رمضان ولا يرون جهاد الكفرة.. وأيضًا حركة المازبار في جبال طبرستان، وكان المازبار قد خرج على الخليفة المأمون، واعتنق المجوسية واستخفّ بالإسلام والمسلمين، واشتدت فتنته حتى ضجّ الناس وهربوا من طبرستان بعد أن اشتد بها الخراب، فأخرج إليه عبد الله بن طاهر ثلاثة جيوش حاصرته حتى تمكنت من هزيمته وأسْره، فساقوه إلى عبد الله في خراسان.

وحان أجل المأمون العباسي حال وجوده بالشام، فصار يرفع طرفه إلى السماء ويقول: «يا من لا يزول ملكه، ارحم من يزول ملكه، يا من لا يموت، ارحم من يموت». فلما كان في ليله استمسك لسانه، ومات من علّته، وكانت وفاته عام 218 هـ، وهو يومئذٍ ابن ثمانية وأربعين عامًا، وكانت خلافته عشرين سنة، ودُفن في طرسوس. وقد أوصى أن يكتب على قبره هذه الأبيات:

الموتُ أخرجني من دارِ مملكتي ... فالقبر مضطجعي من بعد تتريفِ
للهِ عبدٌ رأى قبري فأعبره ... وخاف من بعده ريبَ التصاريفِ

■ بداية الوهن في دولة بني العباس..

بعد وفاة المأمون تولى المعتصم العباسي، وهو ثامن الحكام العباسيين، وقد حكم من 833 إلى 842 م، وهو أخو المأمون من أبيه. وكان ابن أَمَة تركية، فمال إلى أخواله فكان يحب جمع الأتراك وشراءهم من أيدي مواليهم، فاجتمع له منهم أربعة آلاف، وألبسهم أنواع الديباج والمناطق المذهبة والحلي المذهبة، وأبانهم عن سائر الجنود، ثم وسمهم رتبًا قيادية في الجيش حتى إنه ثارت ثائرة العسكريين الفرس والعرب في الجيش. بعد أن ضاقت بغداد بالغلمان الترك الذين جلبهم المعتصم، بنى مدينة سامراء على ضفاف نهر دجلة ومدّ إليها نهرًا سماه نهر الإسحاقي، وصارت مقرًا جديدًا له وقوّت نفوذ الترك في أجهزة الدولة.

وقد استخدم الخلفاء السابقون الترك في حالات فردية، لكن جلب المعتصم لهم بهذه الكثافة أحدث خللًا عنيفًا في المجتمع العباسي وفي بلاط الخليفة. فقد تحول هؤلاء الغلمان الرشيقون بوجوههم الجميلة ولحاهم الخفيفة لمصدر للغواية والرغبة الجنسية. وكانوا موضعًا للشعراء العرب والفرس في القرنين الثالث والرابع الهجريين. وسارت القصص والروايات عن الغلام التركي الذي قد يكون عبدًا وحارسًا وملهمًا بل وشريكًا للفراش في آن واحد لسيده. وباليقين شكل قدوم هؤلاء الغلمان تغييرًا جذريًّا لوجه البلاط العباسي للأبد. وبسبب صراعات الأتراك الوافدين مع أهل بغداد من العرب والفرس قرر المعتصم بناء مدينة سامراء. انتقلت أجهزة الدولة إلى المدينة الجديدة. صار المعتصم سيدًا لعاصمته الجديدة محاطًا بجنده وغلمانه الأتراك، الذين يدينون له بمطلق الولاء بعيدًا عن مشاغبات أهل بغداد. إلا أن المعتصم في حقيقة الأمر صارت عاصمته الجديدة سامراء مصيدة موت له!.

في عهد المعتصم، قامت كثير من الثورات التي قضى عليها، مثل ثورة العباس أحد أبناء المأمون، وثورة بابك في أذربيجان (837م)، وطبرستان (840م)،

وفي جنوب العراق (840م)، وغيرها من الثورات. ويسجل التاريخ العربي بافتخار أن المعتصم العباسي أجاب استغاثة امرأة في عمورية من بلاد الروم قالت: «وامعتصماه»، فخرج بنفسه على رأس جيش كبير لتأديب الروم والانتصار لهذه المرأة المظلومة. وفي المقابل سكت أغلب المؤرخين عن الحديث في مظالم المعتصم التي كانت تعصف بآلاف المسلمين من دون رادع من دين أو وازع من ضمير. وتؤكد كتب التاريخ التي تناولت بالبحث عهد المعتصم أنه لم يهجر بغداد إلا بعد اعتراض أهلها على تصرفات جنوده الذين لم يقيموا وزنًا لحرمة سكان العاصمة، بل كانت سنابك خيولهم تخترق الأسواق وتطأ النساء والأطفال. وأهل بغداد بما عرف عنهم من اعتزاز بأنفسهم كونهم سكان عاصمة الإمبراطورية ودار الخلافة، ما كانوا ليرتضوا بأفعال عساكر المعتصم، وجلّهم هجين من أبناء المولدات والجواري.

والمتتبع لسيرة الخليفة الثامن، المعتصم، يدرك الخلفية التي جاءت بالمعتصم خليفةً، ولم يكن الرشيد أوصى له بشيء من الخلافة، ولم يهتم بأمر تعليمه وتثقيفه عكس حال سلفه المأمون، بل قيل إنه شبه أميّ لم يأخذ بشيء من أسباب المعرفة وإدارة الحكم، واتصف بميله الشديد إلى الفروسية والقتال، في حين كانت بغداد مرجلًا يمور بالأفكار والجدال الذي أشعل أواره المأمون الذي اتخذ من المعتزلة وأفكارهم وسيلة لمهاجمة السلفية في صورتها المبكرة من أصحاب النصوص الجامدة. وكانت قضية خلق القرآن التي نادى بها المعتزلة، وفسح المأمون لهم المجال في التعبير عنها، خلقت حالة أشبه ما تكون ببداية حرب أهلية بين علماء الدين التقليديين من ناحية والمجددين من ناحية ثانية، فقد كانت بحق حركة من شأنها إثارة البلبلة في مركز الخلافة وربما الحرب. ولقد مات المأمون والإمام أحمد بن حنبل رهن الحبس من دون إيذاء أو ضرب بسبب رفضه مذهب المأمون في خلق القرآن الكريم، وكان -رحمه الله- لا يرى الأخذ بالتقية في هذه المسألة، فلما جاء المعتصم أحضره وقال له: «لولا أني وجدتك في يد من كان قبلي، ما عرضت لك». ومن متناقضات المعتصم التي تشي بطيشه أنه كان لا يرى داعيًا مُلِحًّا في

حبس الإمام أحمد، إلا أنه في نفس الوقت يأمر بما لم يأمر به سلفه المأمون من إيذاء لابن حنبل فيُضرب حتى يسقط، فإذا أفاق لُعن وسُبّ، مع نخسه بقوائم السيوف، وهو في كل هذه الأحوال مقيد، وفي بعضها وهو في حال الصيام. واستمر على هذه الحال ثمانية وعشرين شهرًا، حتى خُلعت يداه. ولم يُضرب ويطاله الأذى والابتلاء على رءوس الملأ إلا بأمر المعتصم؛ إذ لم يُضرب قبلُ في عهد المأمون ولا بعدُ في عهد الواثق. واستمر إيقاع الأذى به حتى شهر ذي الحجة من عام 220هـ. ثم استدعى المعتصم عمّ الإمام أحمد وقال له: «ها هو صحيح البدن»، فقال: «نعم»، قال: «سلمته إليك». وما هذا إلا لعظم منزلة الإمام أحمد في نفوس العامة والخاصة، فخاف أن يموت من الضرب فتخرج عليه عامة بغداد. وخلع عليه المعتصم ثيابًا ورياشًا، فلما وصل أحمد إلى داره خلع ما كان عليه، وأمر به فبيع، وتصدق بثمنه. وسبحان الله في عقل المعتصم! الذي لم يكن صاحب فكر أو اجتهاد في مسألة خلق القرآن الكريم. وعاش الإمام أحمد طليقًا يحضر الجمعة والجماعة، بعد بُرئه من مرضه وما لحقه من الضرب والتعذيب، وانطلق يباشر التدريس والفتوى، وذلك لمدة سبع سنين دأبًا، حتى مات المعتصم سنة 227هـ. وحين مات المعتصم وخلفه الواثق قال الشاعر الثائر دعبل الخزاعي، معبرًا عن لسان عموم المسلمين المبعدين عن شئون الحكم والسياسة:

الحَمْـدُ للهِ لا صَـبْرٌ وَلا جَلَدٌ	وَلا عَـزَاءٌ إذَا أَهْلُ البَلا رَقَدُوا
خَلِيفَةٌ مَاتَ لَمْ يَحْزَنْ لَهُ أَحَدٌ	وَآخَـرٌ قَـامَ لَمْ يَفْرَحْ بِـهِ أَحَدُ

ثم تولى من بعده ولده هارون الواثق بالله، وهو تاسع خلفاء العباسيين في العراق. وُلد في بغداد سنة 200 هـ وكانت أمه رومية اسمها قراطيس. وكان الخليفة الواثق قائمًا على إلزام الناس بالقول بخلق القرآن، مشددًا على الخاصة والعامة الامتحان، حتى حدثت مناظرة في مجلسه انشرح بعدها صدره لإبطال الحديث في خلق القرآن ومنعه، وكتب إلى الآفاق: «لا يتكلم أحد في القول بخلق القرآن الكريم». وأُغلق بذا باب فتنة شغلت الناس طويلًا في ما لا يفيد ولا ينفع، وألهتهم وصرفت أنظارهم عما يرسفون فيه من جور وظلم كقطع الليل

المظلم. وقد قامت عدة ثورات في عهده في الشـام وفلسطين بسبب الاحتكاكات بين السـكان العرب والجيوش التركية التي شـكلها والده المعتصم. تم إخماد هذه الثورات، إلا أن جـذوة النقمة تضاعفت بين الأهالي واضطربت البلاد وضاقت الأحوال، وفي سـنة 228هـ ابتدع أمرًا جديدًا باسـتخلافه على السـلطنة أشناس التركـي، وألبسـه وشـاحين مجوهريـن وتاجًـا مجوهـرًا. وكان بذلـك أول خليفة يستخلف سلطانًا، وكان الترك قد كثروا في أيام أبيه، وهو ما مهّد لضعف الدولة وزوال سـيطرة الخلفـاء عليها. وكانـت وفاته في سـامراء بالحمّى سـنة 232هـ - 847 م.

وحكـي أنه لما مات تُرك وحده واشـتغل الناس بالبيعـة للمتوكل، فجاء جرذ فاستلّ عينه فأكلها. وسبحان من يدوم ملكه، فهذه العين من ساعة واحدة كانت إذا حدقت في أشجع الرجال أرعبته! وإثر وفاته عام 847م بويع أخوه أبو الفضل جعفـر المتوكل على الله بالخلافة، وهو الذي يحـدد أغلب المؤرخين تاريخ خلافته بدءًا لانحطاط الدولة العباسية.

■ طور الانحطاط لدولة بني العباس..

خلافة المتوكل..

هو عاشر الخلفاء العباسيين، المتوكل على الله جعفر بن المعتصم بن الرشيد. بويع له بعد الواثق، وهو الذي يوثق عهده ببدء طور الانحطاط. بدأ عهده بالقول برغبته في القضاء على مظاهر الفتنة التي نشأت عن القول بخلق القرآن، وكتب إلى كل أقاليم الدولة بهذا المعنى، ولم يكتف بهذا، بل استقدم المحدِّثين والعلماء إلى مدينة سامرَّاء وطلب منهم أن يحدثوا بحديث أهل السنّة لمحو كل أثر للقول بخَلْق القرآن، وراح العلماء يتصدون لإحقاق الحق، وإبطال الباطل، وأظهر المتوكل إكرام الإمام أحمد بن حنبل الذي قاوم البدع، وتمسك بالسنن، وضرب وأوذي وسُجن.

وفي المقابل، اشتهر عن الرجل شديد عدائه للنصارى إلى الحد الذي ألزمهم فيه بلبس الغل (وهو الطوقُ من حديد أو جلد يُجعَل في العنق). ولم يكتف الخليفة المتوكل بعدائه للنصارى، بل تمادى كذلك في عدائه للشيعة، وكان يجاهر ببغض الإمام علي، وقد تتبع العلويين وحطّ من كرامة أهل البيت -عليهم السلام- ولم يسمح لأي أحد أن يذكرهم بخير.

ويدلنا على شدة بغضه وتحامله أن نصر بن عليّ الجهضمي حدث بحديث عن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- أنه أخذ بيد الحسن والحسين وقال: «من أحبني وأحب هذين وأباهما وأمهما كان معي في درجتي يوم القيامة»، فأمر المتوكل بضربه ألف سوط إلى أن كلمه جعفر بن عبد الواحد بأن نصرًا لم يكن شيعيًّا وإنما هو من أهل السنّة فضرب خمسمائة سوط وعفا عن الباقي.. هكذا بمنتهى العدل وغاية الرأفة!

ودفعه حقده الأسود على الإمام علي وولده إلى هدم قبر الإمام الحسين وهدم مشهده الشريف، واستقدم الإمام الهادي من المدينة إلى سامراء في سنة 236هـ وعامله بالشدة والأذى، وما زال الإمام الهادي مقيمًا في سامراء إلى أن مات مسمومًا سنة 254هـ وكانت مدة إقامته فيها ثماني عشرة سنة. كما تفنن المتوكل في قتل العالم يعقوب بن السكيت الإمام المشهور في العربية، وذلك بعد أن ندبه إلى تعليم أولاده فنظر المتوكل يومًا إلى ولديه: المعتز والمؤيد فقال لابن السكيت: من أحب إليك هما أو الحسن والحسين؟ فقال: قنبر (يعني مولى علي) خير منهما فأمر الأتراك فداسوا بطنه حتى مات وقيل: أمر بسل لسانه، وأرسل ببساطة إلى ابنه بديته.

وجاءت نهاية المتوكل لتتفق مع عهده المضطرب ؛ فقد كان المتوكل بايع بولاية العهد لابنه المنتصر ثم المعتز ثم المؤيد، ثم إنه أراد تقديم المعتز لمحبته لأمه فسأل المنتصر أن ينزل عن العهد فأبى فكان يحضره مجلس العامة ويحط منزلته ويتهدده ويشتمه ويتوعده. واتفق أن الترك انحرفوا عن المتوكل لأمور فاتفق الفتح بن خاقان كبير الأتراك مع المنتصر على قتل أبيه فدخل عليه خمسة وهو في جوف الليل في مجلس لهوه فقتلوه.

■ نظرة في صفحات دولة بني العباس..

لم يتغير الحال بعد ذلك، حيث استمرت مسيرة الانحدار السريع والانحطاط للدولة العباسية بنفس الصورة مع اختلاف الأسماء ؛ فلكل دولة أدوار شبيهة بأدوار الحياة من الطفولة إلى الشيخوخة. فالدولة العباسية بلغت شبابها في أيام الرشيد والمأمون وهو العصر العباسي الزاهر، ثم أخذت بعدهما في الانحدار نحو الكهولة فالشيخوخة.

وبتحليل المشهد العباسي نجد أطوار الدولة العباسية بدأت بنصرة الفرس وخصوصًا أهل خراسان، وهؤلاء لم ينصروها إلا انتقامًا لأنفسهم من بني أمية لما كان من تعصبهم للعرب واحتقارهم سائر الأمم الخاضعة لهم ولو كانوا مسلمين. فالعباسيون عرفوا للفرس فضلهم في ذلك فقربوهم واستخدموهم في مصالح الدولة واتخذوا منهم الوزراء والعمال والكُتاب وغيرهم، فضعف شأن العرب وصاروا ينظرون إلى الدولة نظر المحاذر المراقب ولا حيلة لهم في إرجاع نفوذهم، فلما نكب البرامكة ظن العرب أنهم سيرجعون إلى شوكتهم وسلطانهم، ثم مات الرشيد واختلف ابناه الأمين والمأمون على الخلافة، والأمين عربي الأبوين لأن أمه زبيدة حفيدة المنصور، فأخذ أهل بغداد بنصرته وفيهم جند العرب (الحربية). وأما المأمون فأمه فارسية الأصل، وكان في خراسان بين أخواله وشيعته فنصره الخراسانيون كما نصروا أجداده وانتهى الخلاف بمقتل الأمين وفوز المأمون، فعاد النفوذ إلى الفرس وعادوا إلى امتهان العرب.

ثم رأينا كيف ظهر (الأتراك) عندما مات المأمون سنة 218 هـ وأفضت الخلافة إلى أخيه المعتصم بالله، وكانت أمه تركية الأصل من بلاد تركستان، فشبّ محبًا للأتراك، وكان قد أصبح لا يأتمن الفرس على نفسه بعد أن قتلوا أخاه الأمين، وهي أول مظاهر جرأتهم على الخلفاء، ولم يكن له من الجهة الأخرى ثقة في جند العرب لما يعلمه من ضعفهم بعدما سامهم العباسيون من الذل، وزد على

ذلـك أن أخـاه المأمون أوصاه عند دنوّ أجله بمحاربتهم، فلم ير له غنى عن اقتناء مـن ينـصره غير الفرس والعرب، وكان مع ذلك عـلى رأي أخيه المأمون من قبيل القول بخلق القرآن فاستخدم العنف والشـدة في تأييده حتى إنه أحضر أحمد بن حنبل الإمام الشهير وسأله عن رأيه في القرآن فلم يجب إلى القول بخلقه، فأمر به فجُلـد جلدًا عظيـمًا حتى غاب عقله وقطع جلده وحبس مقيـدًا، فزاد نفور عامة المسـلمين منـه وخصوصًـا العرب وهو لا يكـترث بذلك وإنـما كان معتمده على جند الأتراك. فقد فسـدت النيات واضطربـت الأموال وابتدأت الدولة بالتقهقر مـن ذلك الحين، فأصبح المال محـور القوة لحفظ كيان الدولة وعليه معول الخلفاء في تثبيـت بيعتهم ومحاربة أعدائهم والدفاع عن حياتهم حتى في داخل قصورهم. ثم إن ثروة الدولة تتبع حال الدولة من العسر واليسر، فلما كانت الدولة العباسية إبان عمرانها على عهد الرشيد والمأمون كانت الثروة على معظمها فيها، ثم أخذت بالتقهقر بغتة في أيام المعتصم.

آيـة ذلـك إذا نظرنـا إلى مـا كان يجتمع ببيـت المال مـن بقايا الجبايـة على توالي الأعوام رأيناه لا يقاس بما كان يبقى فيه على عهد الخلفاء الأولين، على أنهم كانوا إذا توفـق لهم خليفة حكيم يقتصد فيجمع شـيئًا خلفه مـن يسرف فيضيعه، ومن أمثالهـم المأثورة: أن ما جمعه السـفاح والمنصور والمهدي والهادي والرشيد أنفقه الأمـين المنكب على الملذات (سـنة 193 - 198هـ)، وما جمعه المأمون والمعتصم والواثق أنفقه المتوكل المضطرب التفكير (سنة 232 - 247هـ).

وبالإجمـال، فـإن الثـروة تقهقـرت بعـد المأمـون بتقهقـر الدولـة وانحطـت بانحطاطهـا. والثـروة كما قدمنا مـا يفيض من الدخل على النفقـات، ولذلك قلما كان يبقـى في بيـت المال بقية إلا في أحوال خصوصيـة وبمبالغ صغيرة؛ فالمعتصم ترك في بيت ماله 8.000.000 درهم، والمستعين (سنة 251 هـ) خلف في بيت المال 500.000 دينار، والمكتفي (سـنة 295هـ) خلـف 15.000.000 دينار. والظاهـر أنهـا اجتمعت بتـوالي الخلفاء، فلـما تولى المقتـدر أنفقها كلهـا وأنفق ما جمعـه في أيامـه من أموال المصادر فضلًا عن الخراج، حتى قـدّروا ما أنفقه ضياعًا

وتبذيرًا بنيف و70.000.000 دينـار ما عدا نفقات الدولـة، واضطر مع ذلك إلى اسـترضاء الجند والغلمان للخلافة أن يبيع ضياعه وفرشه وآنية الذهب، وبلغ من فقر بيت المال في أيام المطيع لله سـنة 361هـ أنه باع ثيابه وأنقاض داره ليدفع 400.000 درهم طُلبت منه للجند في أثناء الفتنة ببغداد. وكانت أحوال الخلفاء قـد تغيرت في أيام الراضي بالله سـنة 322هـ، وخرجت قيـادة الأمور من أيديهم ولم يبق لهم غير الخطبة والسكة.

وكان ضعف الخلفاء وانشـغال الناس بالفتن عن العمل سـببًا كبيرًا في تراجع خراج الدولة، حيث انشغل الناس عن تجارتهم وزراعتهم وتوقف العمال وغلت الأسعار وتعطّلت الزراعة لضياع الأمن فقلّت الجباية واحتاج العمال والقواد إلى المال، فظلموا الناس من أجل تحصيلها منهم فزاد الخراب، وما من هادم للعمران كالظلم فإنه يغلّ الأيدي ويقعد الناس عن السعي فينشغل به الزارع عن زراعته، والتاجـر عـن تجارته، والصانع عـن صناعته، ووبال ذلك عائد عـلى الدولة إذ لا قوام لها إلا بالرعية.

كـما أن تحويل أكثر البلاد إلى ضِياع أسـهم في تدمـير الاقتصاد، ويراد بالضِياع عندهم المزارع. ويغلب في الضياع أن تكون لأهل الدولة من: الخلفاء أو أقاربهم أو عمالهـم أو وزرائهـم أو كُتابهـم أو مـن يلوذ بهم مـن أهل النفوذ. فلـما انتقلت الدولة الإسـلامية من الخلافة الدينية إلى الملك العضوض في أيام بني أمية اختزن الصحابـة الأمـوال واتخـذوا المصانع والضيـاع واقتدى بهم من جـاء بعدهم من التابعين وتابعي التابعين، وكان أقدمهم على ذلك الخلفاء من بني أمية، فقد أكثروا من المصانع والضياع حتى كان بعض أهلهم يقبضها اغتصابًا من أصحابها وليس مـن ينصفهم مـن غضب بني أمية للعرب واحتقارهم سـائر الأمـم ولاعتبارهم مـا فتحوه مـن الأرض ملكًا حلالًا لهم فـما أرادوا أخذه أخذوه ومـا أرادوا تركه تركوه.

فلما أفضت الخلافة إلى بني العباس سنة 132 هـ أعملوا السيف كما سطرنا في رقاب بني أمية، ففروا وتركوا أموالهم وضياعهم فاستولى عليها العباسيون، فاستكثر العمال والوزراء وغيرهم من اقتناء الضياع والأبنية بحق أو بلا حق والخلفاء يمنعونهم جاهدين، وعندما لا يتمكنون من منعهم بالحسنى كانوا يصادرونها أو يقبضون أموالهم بعد موتهم كما فعل الرشيد بأموال محمد بن سليمان عامله على البصرة وكان مبلغها 500.000.000 درهم سوى الضياع والدور والمستغلات وكانت غلته 100.000 درهم في اليوم، ولذلك كثرت الضياع عند رجال الدولة، حتى صاروا يتهادونها أو ينعمون بها على الناس جائزة على قصيدة أو خطاب أو نكتة أو غير ذلك، وكان من أبواب اقتناء الضياع عندهم حتى في صدر الدولة العباسية كثرة ما كان من الأرضين المهملة في عهد بني أمية، فيأمر الخليفة بعض أهله أو خاصته بتعميرها وغرسها ثم تصير له كما فعل المنصور بابنه صالح؛ إذ أمره بعمارة بعض المزارع العاطلة في الأهواز، ومن أحيا أرضًا مواتًا فهي له.

وكان من أسباب كثرة الضِياع عند أهل الخلفاء ورجال الدولة نظام (الإلجاء)، ويعني إلجاء الأهالي ضياعهم ومغارسهم إلى بعض أقارب الخلفاء أو العمال تعززًا بهم من جباة الخراج، فكان صاحب الأرض يلتجئ إلى بعض أولئك الكبراء فيستأذنه أن يكتب ضيعته أو ضِياعه باسمه فلا يتجرّأ الجباة على العنف أو الظلم في اقتضاء خراجها بل هم قد يكتفون منهم بنصف الخراج أو ربعه مراعاة لذلك الكبير، ويجعل صاحب الضيعة نفسه مزارعًا له ويدوّن ذلك في دفاتر الحكومة، فتصبح تلك الضيعة بتوالي الأعوام ملكًا للملجأ إليه ويصبح صاحبها الأصلي شريكًا في غلتها، ومثل هذا الإلجاء يحدث في كل العصور في البلاد التي يخاف أهلها سطوة الحكام واستبدادهم.

كما أن إسراف الخلفاء ونسائهم كان من أسباب إفلاس الدولة ؛ فمن الأمور الطبيعية في العمران إذا كثرت الأموال في الدولة أن يسخو الملوك في بذلها وخصوصًا في الدولة المطلقة من القيود والقوانين، ونموذجها الدولة العباسية

والخليفة فيها مطلق التصرف في بيت المال، ودعاة الخلافة كثيرون لا يُقعد فتنتهم غير استرضاء الأحزاب بالمال أو كسر شوكتهم بالحرب، والأول أسلم عاقبة وأقرب منالًا إذا توفرت الأموال، وقد رأيناها متوفرة خصوصًا في عصر الرشيد والمأمون، فلا غرو إذا رأيناهما يبذلان الأموال في استكفاف الأذى عن الدولة أو سدّ أفواه أهل الفتن، لكنهم تجاوزوا ذلك بمراحل إلى صنوف البذخ وضروب التبذير والترف، فاقتنوا الجواري واتخذوا الفُرش من الخزّ والديباج والحرير والمسامير من الفضة والذهب، وابتنوا المنتزهات والقصور والمدن واقتنوا الندماء وأنشأوا مجالس الغناء والتأنق بالطعام واللباس والرياش، وقد سهل عليهم ذلك لقرب عهد العراق وفارس من بذخ الفرس قبيل الفتح الإسلامي وأطلقوا أيدي نسائهم وأمهاتهم وخاصتهم في الأموال.

كما جاء اكتناز ونهم نساء الخلفاء العباسيين وتدخلهم في شئون الحكم لنهب الأموال سببًا في تدمير مقدرات الدولة؛ في البداية لم يتزوج خليفتهم الأول السفاح إلا امرأة واحدة، وقبل أن يتوفى المنصور أوصى ابنه المهدي أن لا يشرك النساء في شيء من أمره، ومع ذلك فإن الخيزران أم الرشيد كانت هي صاحبة الأمر والنهي في أيام الهادي وأيامه، وكان وزيره يحيى تحت أمرها فأفضى نفوذها إلى حشد الأموال لنفسها حتى بلغت غلتها في العام 160.000.000 درهم، وذلك نحو نصف خراج المملكة العباسية لذلك العهد. وكانت الخيزران مع ذلك شديدة الوطأة، رغّابة في الاستئثار فلما آنست في ابنها الهادي معارضة لإرادتها دسّت إليه بدم بارد من قتله، ولما ماتت توسّع الرشيد بأموالها وأقطع الناس ضِياعها.

وقبيحة أم المعتز وجدوا لها من مخبآت في الدهاليز ونحوها نحو 2.000.000 دينار نقدًا، وما لا تقدر قيمته من التحف والجواهر مما نأتي بذكره على سبيل المثال: من ذلك مقدار مكوك من الزمرد الثمين ونصف مكوك لؤلؤ كبير ونحو كيلة ياقوت أحمر مما قدروا قيمته 2.000.000 دينار وكانت مع ذلك قد عرضّت ابنها للقتل من أجل 50.000 دينار ديون العسكر الترك، وأغرب من ذلك شأن

أم محمد بن الواثق؛ فقد كانت غلتها 10.000.000 دينار في العام تنفقها في جواريها، وأخرجوا من تربة والدة المقتدر 600.000 دينار كانت مخبأة هناك، ولم يعلم بها أحد مع ضيق الخليفة وفراغ بيت ماله، وقس على ذلك أمهات الخلفاء الآخرين في العراق وغيره من بلاد الإسلام، فلا عجب والحالة هذه إذا تحول الغنى إلى النساء والخدم والقواد، وهل تستغرب بعد ذلك إذا علمت أنه كان بين رياش أم المستعين بساط أنفقت على صنعه 130.000.000 دينار فيه نقوش على أشكال الحيوانات والطيور أجسامها من الذهب وعيونها من الجواهر؟ أو إذا قيل لك إن فلانة حشت فم الشاعر الفلاني درًّا فباعه بعشرين ألف دينار أو إذا سمعت بهدايا قطر الندى وغيرها من نساء الخلفاء؟ يالضياع أمة الإسلام ومقدراتها على النساء، تاريخ ضارب بجذوره في مستنقع الفساد ومائه الآسن. وإن كان هذا فساد نساء من توسدوا خلافة المسلمين وارتقوا منبر الرسول الأمين، فما حال فساد الجواري والغلمان الذي أطبق شهرته الآفاق وضرب به المثل في النزق والفساد، فقد قالوا إنه كان في قصر الرشيد ثلاثمائة جارية ما بين ضاربة على آلة موسيقية إلى مغنية إلى راقصة، فضلًا عمن كان في قصره من الندماء والمضاحكين كالشيخ أبي الحسن الخليع الدمشقي وابن أبي مريم المدني وغيرهم، وما من جارية إلا وثمنها بين ألف دينار إلى مائة ألف دينار غير ما يقتضيه اقتناؤهن من النفقات الأخرى كالألبسة والحلي وهي شيء كثير، فقد اشترى الرشيد خاتمًا بمائة ألف دينار، وقس على ذلك.

ناهيك بما كانوا يقتنونه من المماليك والغلمان مما يعدون بالمئات والألوف، فقد بلغ عدد خدم المقتدر 11.000 خصي من الروم والسودان، غير ما يقتضيه ذلك من الأبنية والقصور والرياش، فقد بنى المعز دارًا في بغداد أنفق عليها 13.000.000 درهم، وبنى الأمير قصورًا في الخيزرانية أنفق عليها 20.000.000، واصطنع في دجلة خمس سفن إحداها على صورة الأسد والثانية بصورة الفيل والثالثة بصورة العقاب والرابعة بصورة الحية والخامسة بصورة الفرس أنفق عليها مالًا عظيمًا. ولا عزاء لفقراء المسلمين المهمشين!.

كما أنهك مالية الدولة العباسية الإسراف الهائل من قِبل الخلفاء على من يقربونه كان أكثره فيما يبذلونه كرمًا وسخاءً ومنه ما ينفق يوميًا فرضًا واجبًا، فقد كان الرشيد يتصدق من صلب ماله كل يوم بألف درهم بعد زكاته وكان المأمون ينفق على خاصته كل يوم 6.000 درهم فاعتبر مقدار ذلك في السنة فيزيد على 2.000.000 درهم، وليس هذا بالشيء الذي يذكر بجانب ما كانوا يهبونه من الجوائز ونحوها، فقد فرّق المنصور في يوم واحد 10.000.000 درهم على أهل بيته، وفرق المأمون في يوم واحد 1.500.000 درهم على ثلاثة أشخاص، وقد فرق 24.000.000 درهم ورجله في الركاب، وأوصى الرشيد للمأمون بمبلغ 100.000.000 درهم، وتصدق المعتصم في أثناء خلافته بما مجموعه 100.000.000 درهم، وبلغ ما أنفقه المقتدر ضِياعًا ما خلا الأرزاق 70.000.000 دينار، فضلًا عن جوائزهم للوافدين من الشعراء وغيرهم وربما بلغت جائزة الشاعر مائة ألف درهم، وذكروا جوائز كثيرة بنحو هذه القيمة أو أكثر. وروى ابن خلكان عن سالم الشاعر المعروف بالخاسر أنه نظم قصيدة مدح فيها المهدي وحلف أنه لا يأخذ قيمتها إلا مائة ألف ألف درهم (مائة مليون) فأعطاه إياها.

ومن هذا القبيل ما أمر به الرشيد وزيره يحيى بن خالد أن يدفع ثمن جارية 100.000 دينار واستكثر يحيى المال واعتذر عن دفعه، فغضب الرشيد، فأراد يحيى أن يبين له مقدار ما يتحمله بيت المال من هذا الإسراف في ما لا مصلحة للدولة فيه فجعل ذلك المال دراهم فبلغت نحو 1.500.000 درهم فوضعها في الرواق الذي يمر به الرشيد إذا أراد الوضوء، فلما رأى الرشيد ذلك المال استكثره ولما أخبروه أنه ثمن الجارية أدرك إسرافه ولكنه شعر بما في ذلك من الجرأة عليه ومحاولة غلّ يديه فأضمر ذلك في نفسه، ويقال إنه كان من جملة الأسباب التي حملته على نكبة البرامكة.

وقد أنفق الخلفاء مبالغ طائلة في سبيل الحصول على البيعة من وجوه الرعية، فمن أوائل الدولة العباسية كانوا يحتاجون في تأييد بيعتهم إلى استرضاء أهل

الحرمين خصوصًا، وكانوا يحملون إليهم الأموال ويبذلون لهم الأعطية ويفرقون فيهم الهدايا. فلما ضعف شأن العرب بعد المعتصم وقوي جند الأتراك أهمل أمر الحرمين وصارت القوة إليهم أو بالأحرى إلى المال؛ لأن الأتراك إنما يحاربون مع صاحب المال.

وأما بعد أيام المعتصم فأصبحت البيعة مجرد تجارة ينالها صاحب المال أو صاحب الجند والمعنى واحد، وكان الجند يُسرّون بخلع الخلفاء طمعًا في المال؛ لأنهم كلما تولى خليفة طالبوه بحق البيعة ورزق ستة أشهر أو سنة أو أكثر أو أقل على قدر مطامعهم، وانشغل الناس عن الزراعة والتجارة وأهملت الأعمال بوجه الإجمال.

وزاد أهل البلاد شقاءً أن قواد الجند كانوا إذا أعوزهم المال ولم يكن في بيت المال ما يكفي استخرجوه عنوة من الأهالي، وكثيرًا ما كان يحدث ذلك في أثناء الحروب بين فرق الجند في تنازعهم على تولية أحد الخلفاء، فقد نهب جند الديلم أموال الناس في بغداد في أثناء الخصام بين ناصر الدولة ومعز الدولة سنة 334هـ بشأن الخليفة المطيع لله، وكان مقدار ما نهبوه من أموال المعروفين فقط 100.000.000 دينار. فلم يبق في الدولة العباسية والحالة هذه مصدر للمال للقيام بنفقات مصالحها واستبقاء جندها لأن الفتن أقعدت الناس عن العمل فخربت البلاد.

هكذا تدهورت أحوال دولة بني العباس التي كانت أكبر دولة في تاريخ الإسلام، وقد طال عليه الأمد في أطوارها المختلفة خمس قرون ويزيد، واستطاعت أن تصل بحدودها الموحدة إلى ما لم تصل إليه دولة للمسلمين من قبل أو من بعد، وتهاوت أركان الدولة، وتفككت أوصالها بعد مجد أطبق ذكره الآفاق لغياب العدل والشورى الحقيقة، وانتشار الظلم والمحاباة وضياع أحكام الدين وسقوط الخلفاء تلو الخلفاء في هوة الفساد الأخلاقي والمالي. وهو ما كان لزامًا أن تموت دولة العباسيين موتًا إكلينيكيًّا، حتى توسد تراب التاريخ وتصبح أثرًا بعد عين.

■ وجاء المغول وماتت دولة بني العباس..

استمرت الخلافة العباسية في سيرها نحو حتفها تنتقل من ضعف إلى ضعف ومن وهن إلى وهن. اجتمعت عليها كل الآفات والمهلكات حتى كانت نهاية الخليفة التي ظلت آخر قرن لها مجرد رسم واسم بلا مضمون، يتلاعب بها الأتراك ويتقاذفها السلاجقة، حتى جاءت رصاصة الرحمة على يد جحافل المغول التي اجتاحت بغداد في صباح يوم 22 من المحرم 656هـ الموافق 30 يناير 1258م معلنة نهاية دولة بني العباس، حيث أعطى هولاكو الأوامر لقادة الميدان باقتحام خلافة المسلمين من جميع الجهات، فقام المغول بشنّ هجوم كاسح على أسوار بغداد، استخدموا فيه المجانيق على أوسع نطاق، وأحدث ثقل الحجارة وقوة اندفاعها ثغرات كبيرة في برج العجمي أحد أكبر الأبراج بسور بغداد، ورافق هذا الهجوم الوحشي قرع الطبول وصراخ المغول المرعب وصيحاتهم الحادة، فانهارت أعصاب الخليفة، وعندئذ أرسل إلى هولاكو يخبره بموافقته على جميع شروطه للتسليم، فرد هولاكو على رسل الخليفة: هذه الشروط طلبتها وأنا على باب همدان، أما الآن فأنا على باب بغداد.

وفي يوم شديد السواد، عُدّ أنه من أسود الأيام في تاريخ أمة الإسلام، يوم الأحد 14 من صفر سنة 656 هـ الموافق 10 فبراير سنة 1258م؛ إذ خرج الخليفة المستعصم من بغداد ومعه أبناؤه الثلاثة: أبو الفضل عبد الرحمن، وأبو العباس أحمد، وأبو المناقب مبارك، يرافقهم ثلاثة آلاف من السادات والأئمة، والقضاة والأكابر والأعيان، لتسليم أنفسهم وعاصمة الخلافة الإسلامية بلا قيد ولا شرط، ورافق هذا الخروج الجماعي للاستسلام الذليل، صراخ وندب وعويل من النساء، وارتفعت أكف عشرات الآلاف من المسلمين في وقت واحد تتضرع إلى الله أن يرفع عنهم الغمة، في جو قاتم مشحون بالرعب والدماء ورائحة الموت. استقبل هولاكو الخليفة استقبالًا لا ينم عن غضب منه، بل سأله بأسلوب مهذب

عن صحته، وكلمه بالحسنى، وطلب منه أن يأمر بخروج كل سكان المدينة من منازلهم ومخابئهم حتى يحصوهم، فخالت على الخليفة الساذج المرتعب الخدعة، وأذعن لطلبه، وخرج المنادون في كل أحياء بغداد ليعلنوا على المسلمين أن كل من يود إنقاذ حياته وصيانة ماله وعرضه، فليخرج من المدينة، ويسلم ما في حوزته من سلاح للمغول.. ووقع الناس في بلبلة كبيرة، فمنهم من صدق وسلم سلاحه، ومنهم من ارتاب من سلامة الأوامر وصحتها، فتحفظ واعتصم بداره وبقي بجانب عائلته. نصب المغول خيامًا كثيرة على امتداد نهر دجلة لتسلّم السلاح والعتاد، وجاء المسلمون جماعات يسلمون سلاحهم، وكل من دخل خيمة لتسليم سلاحه خرج من الناحية الأخرى جثة هامدة، وأدرك الأهالي الفخ المنصوب لهم، وأن المغول يذبحونهم كقطعان الغنم، ويرمون بجثثهم في مجارٍ مائية متفرعة من نهر دجلة، فانتشر الخبر بسرعة، وعاد الناس للاختفاء عنهم. وفي يوم الأربعاء 17 من صفر 656 هـ الموافق 13 فبراير 1258م، أُعطيت الأوامر بإباحة المدينة بالكامل، وتم توزيع قادة المغول والضباط وفرق الجيش على أحياء ودروب بغداد، يفعلون فيها ما يشاءون، فاجتاح المغول المدينة بلا أي ضوابط، فقتلوا الرجال والأطفال، وهتكوا أعراض النساء، وبقروا بطون الحوامل، وقتلوا كل حي رأوه، ولم يسلم منهم إلا من اختفى منهم في باطن الأرض، أو تصنع الموت ونام بين الجثث المقتولة!! ولم يقف الأمر عند هذا فقط، بل راحوا يخربون مباني المدينة، فهدموا جامع الخليفة، ومشهد الإمام موسى الكاظم، ونبشوا قبور الخلفاء في الرصافة، ودمروا المساجد ليستولوا على الذهب المزين به قبابها، وهدموا القصور بعد أن استولوا على كلّ ما فيها من تحف نادرة وجواهر، ثم أضرموا النار في المدينة لتأتي على الأخضر واليابس فيها.

و تمّ قَتْل ما يقرب من ثمانمائة ألف نفس في بغداد، وتخريب آلاف المباني والقصور، صدرت الأوامر بعد أيام بالكف عن القتل، فخرج من تحت الأرض من كان مختبئًا كأنهم موتى، حتى أنكر بعضهم بعضًا، ووجدوا أرض بغداد مخضبة بالدم، مليئة بجثث القتلى، وهواؤها فاسد عفن من رائحة الجثث

المترامية ولم تجد من يدفنها، وانتشرت الأوبئة والأمراض من جرَّاء ذلك، حتى إن هولاكو نفسه غادر بغداد هربًا من رائحتها إلى قرية وقف، وهناك استدعى الخليفة العباسي الذي يئس من إنقاذ حياته، قتل الخليفة وكان عمره 46 سنة، وابنه الأكبر أبو العباس أحمد وعمره كان 25 سنة، وابنه الأوسط أبو الفضل عبد الرحمن وكان عمره 23 سنة، وأسرَ ولده الأصغر مبارك، وأسرت أخواته الثلاث فاطمة وخديجة ومريم، وقتل خمسة من الخدم كانوا في معية الخليفة، وقتلوا كل من وجدوه حيًّا من العباسيين، وتم أسْر ما يقرب من ألف بكر من نساء دار الخلافة. وفي يوم الجمعة 23 من ربيع الأول رحل هولاكو عن بغداد قاصدًا معسكره في خانقين، يقول ابن كثير: كانت جثث القتلى في الطرقات كأنها التلول، وقد سقط عليها المطر، فتغيرت صورهم، وأنتنت من جيفهم البلد، وتغير الهواء، فحصل بسببه الوباء الشديد، حتى تعدى وسرى في الهواء إلى بلاد الشام، فمات خلق كثير من تغير الجو وفساد الريح، فاجتمع على من بقي الوباء والغلاء والفناء، والطعن والطاعون، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

ومنذ هذه اللحظة تحول العراق كما يقول المفكر الكبير جمال حمدان من رأس حربة للعالم العربي إلى درع له وقاعدة أمامية تتلقى الضربات حتى يكاد يتحطم ولكنه يفتدي العالم العربي.. وهذا قدر العراق الحبيب إلى يومنا هذا.

■ وجاء دور الترك..

تغلغل الترك في مفاصل الدولة العباسية، ووصل عدد منهم إلى مراتب القيادة العليا، وكما أسلفنا كان دخول الترك بلاط العباسيين عنصرًا جديدًا في النزاع العنصري الذي كان في أوج اشتعاله بين العرب والفرس، وسرعان ما استطاع الترك التفوق على العنصرين الأخيرين بمرور الوقت، ولم يقتصر التفوق فقط في شئون الجندية والحراسة، بل تخطاه إلى دواوين الإدارة وبلاط الملك، وخصوصًا في فترة الخليفة المعتصم.

ويعد ميلاد الدولة العثمانية غامضًا كمعظم الدول في بداية عهدها بالحياة، فعند ميلاد دولة من الدول يبدو الأمر في حينه لا يستحق الانتباه والرصد والتسجيل، إلى أن يُكتب لهذه الدولة البقاء والدوام وتظهر على مسرح الأحداث، فينتبه المؤرخون والكتاب لتسجيل أحداث تلك الدولة الآخذة في النمو، فقد تستهويهم أحداثها الداخلية وعلاقاتها الخارجية بالدول الأخرى أو تثير فيهم الاهتمام. وكلما تأخرت تلك الفترة التي يبدأ فيها المؤرخون تسجيل أحداث الدولة الوليدة عن مخاض ميلادها، كلما كانت تلك الكتابات التي تسطر عن نشأتها غير صحيحة كل الصحة. وهذا من طبائع الأمور؛ لأن المؤرخ يلجأ في بعض الأحيان لملء فترات الغموض والفراغ.

ويعزو المؤرخون الأتراك غموض المرحلة الأولى لنشأة الدولة العثمانية حتى فتح القسطنطينية لإحراق تيمورلنك الوثائق التركية عند إغارته على بورصة 1402 م.

وقد يتبادر إلى الذهن لأول وهلة أن الجمهورية التركية بصورتها المعاصرة هي الموطن الأصلي للأتراك الذي ترجع إليه أصولهم.. وهذا غير صحيح بالمرة؛ فالترك موطنهم الأصلي هو بلاد تركستان الموجودة بأواسط آسيا،

وهي الآن جمهوريات قازاقستان، وتركمانستان، وطاجكستان، وقيرغيزستان، وأوزبكستان. وكذا جزء تحتله الصين حتى الآن يعرف بتركستان الشرقية، والذي تطلق عليه الصين إقليم سينكيانغ، أي الولاية الجديدة. ويوجد جزء آخر من بلاد تركستان في كل من إيران وأفغانستان، والذي كان يُعرف سابقًا بخراسان، حيث تقتسمه كل من إيران وأفغانستان وجمهورية تركمانستان السابق ذكرها.

وكان الترك معروفين ببأسهم الشديد، وقدرتهم الحربية الفائقة نظرًا لقسوة البيئة التي يعيشونها، مثلهم في ذلك أبناء منطقتهم المغول والتتر، وكانوا قبل الفتح الإسلامي يعبدون الأوثان والكواكب.

وفي عصر دولة بني أمية، فتح المسلمون هذه البلاد، وفي عهد دولة بني العباس زاد نفوذ الترك كما استعرضنا، وفي مراحل ضعف الدولة العباسية ظهرت دولة السلاجقة، وهم من الأتراك، وكانوا على صراع دائم مع الروم، ومن أبرزهم ألب أرسلان الذي انتصر على الروم انتصارًا حاسمًا في معركة ملاذكرد عام 463هـ.

وسيطر السلاجقة بعد تلك المعركة على الأناضول، وأسسوا إمارات كثيرة، واستطاع السلاجقة المنتشرون في الأناضول أن يقدموا للمسلمين آثارًا إيجابية كثيرة منها: استرداد بعض الأجزاء من الروم التي سبق أن أخذوها من المسلمين، وفتح كثير من أراضي الأناضول، وزاد التوسع والانتشار كثيرًا في أيام ملكشاه بن ألب أرسلان، وبقيت بعض الإمارات الصليبية في الأناضول تم فتحها بالكامل في عهد العثمانيين.

وعندما جاء الهجوم المغولي على بلاد المسلمين خاف بعض الحكام السلاجقة وسرعان ماتحالف حراس الدين مع المغول الكفرة ضد أبناء عقيدتهم المسلمين.

وكان طبيعيًا أن تقع بلاد السلاجقة بيد المغول، واستسلم أمراؤها لهم بل صاروا معهم حربًا على المسلمين. ثم هزم المماليك المغول في موقعة عين جالوت سنة 658هـ وخرجوا بعدها من بلاد الشام، فسار الظاهر بيبرس عام

675هـ إلى بلاد السلاجقة؛ لينتقم منهم لخيانتهم، والتقى بهم وبحلفائهم من المغول والكرج في معركة البستان، وانتصر عليهم. ثم سار ففتح عاصمتهم قيصرية، ومع ضعف حلفائهم المغول زالت دولة سلاجقة الروم، وقامت عدة إمارات متشرذمة في الأناضول، منها: أبناء أيدين، وأبناء تركة، وأبناء أرتنا، وأبناء كرميان، وأبناء حميد، وأبناء أشرف قره عيسى، وأبناء صاروخان، وأبناء منتشا، وأبناء جانبدار (أسفنديار)، وأبناء بروانة، وأبناء صاحب أتا، وأبناء قزمان، وأبناء رمضان، وأبناء ذي القادر.

وكادت الأناضول أن تصير لمصير المسلمين في بلاد الأندلس، نتيجة لتفرُّق المسلمين ومحاربة بعضهم بعضًا، والاستعانة بأعداء الإسلام على المسلمين.

ولكن الله قيّض للأناضول العثمانيين الذين استطاعوا توحيد إماراتها، ونجت من ويلات التفرق كما سنعلم في الصفحات التالية.

نشـــأة الدولـــة العثمـانـــيـــة

مـع زيادة الضغط المغولي القـادم من الشرق على الأمصار الإسـلامية، لجأت الكثـير مـن القبائـل إلى الهجـرة إلى الغـرب هربًا مـن بربرية المغـول، وهجومهم الوحـشي، ومـن ضمن هـذه القبائل كانـت قبيلة قاتي التركمانية برئاسـة سـليمان شـاه بـن قيا ألـب، وكان موطنها بالقرب من مـرو قاعدة بـلاد التركمان فاتجهت القبيلـة إلى الغـرب، حتـى وصلت إلى مدينة خلاط شـمال بحـيرة وان، وسرعان ما هدأ الفيضان المغولي فرغب سـليمان في الرجوع إلى موطنه الأصلي، وفي طريق عودتـه وأثناء عبوره لنهر الفـرات غرق فيه، واختلف أبنـاؤه الأربعة في الوجهة التـي يتجهون إليها، فحقق الأخوان: سـنغور تكن وكـون طوغور رغبة والدهما في العودة إلى موطن أبيهما.

أمـا الآخـران: أرطغرل ودندان، فقد اتجها إلى الشـمال، وتولى أرطغرل زعامة أفـراد القبيلـة الذين بقوا في الأناضول، وبعث أرطغرل ابنه سـاوجي ليطلب من الأمير علاء الدين السـلجوقي، أمير إمـارة القرمان التي مركزها مدينة قونية، أن يعطيـه أرضًـا تعيـش فيها القبيلـة، ولكنه تـوفي في الطريـق، وفي هـذه الأثناء مر أرطغـرل مصادفة على جيشـين يقتتلان: أحدهما مسـلم يـكاد أن ينهزم، وجيش بيزنطي يكاد ينتصر، فأسرع بعاطفته الإسلامية ليساعد الجيش المسلم، واستطاع

أن يحوِّل الهزيمة إلى نصر، وكان الجيش المسلم تحت إمرة الأمير علاء الدين والذي سعد بأرطغرل وأقطعه أرضًا على حدود الدولة البيزنطية؛ ليصد غاراتهم ويغير عليهم، وكان في كل انتصار يحققه عليهم يقطعه الأراضي التي يفتحها.

وكان لأرطغرل ابن اسمه عثمان كان يتردد على رجل صالح يتحدث معه، وفي إحدى الزيارات رأى عثمان ابنة الرجل الصالح فأسرَته، فطلب نكاحها من أبيها فرفض أبوها، فحزن عثمان لذلك حزنًا شديدًا، وفي يوم من الأيام إذ هو في سبات عميق إذا بحلم عجيب يراه في منامه ما إن استيقظ منه حتى ذهب إلى الرجل الصالح فقصّ عليه الحلم، فوافق الرجل على زواجه بابنته. كان الحلم أنه رأى القمر صعد من صدر هذا الرجل الصالح وصار بدرًا ثم نزل في صدر عثمان ثم خرجت من صلب عثمان شجرة نمت في الحال حتى غطت الأجواء بظلها عبر جبال القوقاز والبلقان وطوروس وأطلس، وخرج من جذعها أنهار دجلة والفرات والنيل والطونه (في البلقان) ورأى ورق هذه الشجرة كالسيوف، تحولها الريح نحو مدينة القسطنطينية، فعند سماع الرجل الصالح هذا الحلم تفاءل وزوجه ابنته. وبشره بأن أسرة عثمان ستحكم العالم. وقد كان.

وسرعان ما توفي أرطغرل سنة 687هـ، ليتولى ولده عثمان وينطلق يوسع أملاك قبيلته بعين الرضاء من علاء الدين أمير القرمان، وفي سنة 699هـ يغير المغول في جحافل كبيرة على إمارة القرمان، والغريب أن يفر من وجههم علاء الدين إلى بلاد بيزنطة ومات في هذا العام، وتولى من بعده ابنه غياث الدين ثم سرعان ما ظفر المغول بغياث الدين وقتلوه، وفي هذه اللحظة فتح المجال لعثمان لكي يستقل بما تحت يديه من أراضٍ ويقيم الدولة العثمانية التي نُسبت لاسمه، واتخذ لها عاصمة هي مدينة يني شهر أي المدينة الجديدة (إسكي شهر سابقًا)، واتخذ راية له هي علم تركيا حتى الآن، ودعا عثمان أمراء الروم في آسيا الصغرى إلى الإسلام، فإن أبوا فعليهم أن يدفعوا الجزية، فإن رفضوا فالحرب، فخشوا على أملاكهم منه وقرروا الاستعانة بالمغول عليه.

نهض عثمان لتجهيز جيشٍ بإمرة ابنه الثاني أورخان، ووجه لقتال المغول، واستطاع من أول جولة أن يلحق بهم هزيمة قاسية ثم عاد وفتح مدينة بورصةعام 717هـ، وأمّن أهلها وأحسن إليهم فدفعوا له 30.000 من عملتهم الذهبية، وأسلم حاكمها أفرينوس، وأصبح من القادة البارزين ثم توفي عثمان في عام 726هـ، وقد عهد لابنه أورخان بالحكم بعده، ودُفن بمدينة بورصة التي أصبحت مدفن العائلة العثمانية بعد ذلك.

مما هو جدير بالذكر أن لفظ الغازي عند الترك يعني المجاهد، وقد اتخذ السلطان عثمان هذا اللقب واتخذ شعارًا يسير عليه هو «إما غازٍ وإما شهيد»، وقد تبعه في ذلك الكثيرون من سلاطين الدولة العثمانية.

■ السلطان الغازي أورخان الأول..

على الرغم من أنه الابن الثاني لعثمان، فإن أباه قد أوصى بالحكم إليه من بعده، لاتصافه بعلو الهمة والشجاعة، بينما لم يوص لابنه الأكبر علاء الدين لميله للعزلة والفقه والورع، وبالفعل امتثل علاء الدين لوصية والده فقدّره أخوه أورخان وسلّمه الأمور الداخلية، وتوجه أورخان لتوسيع رقعة الدولة والأعمال الخارجية، ونقل أورخان عاصمة البلاد إلى مدينة بورصة.

قام علاء الدين بضرب العملة من الفضة والذهب، ووضع نظامًا للجيش وجعلها جيوشًا دائمة؛ حيث كانت الجيوش قبل ذلك لا تجمع إلا وقت الحرب وتصرف بعده، وخشي من تحزب كل فريق من الجند للقبيلة التابع إليها فأشار عليه القائد قرة خليل، الذي صار وزيرًا بعد ذلك باسم خير الدين باشا بأخذ الأطفال المشرّدين والأطفال الذين فقدوا آباءهم في الحرب من الروم وتربيتهم تربية إسلامية وتدريبهم على فنون القتال في ثكنات عسكرية؛ بحيث لا يعرفون حرفة إلا الجهاد في سبيل الله ولا يعرفون إلا السلطان سيدًا لهم، فمن جهة يحمونهم من التشرد والانحراف والضياع، ومن جهة أخرى يدخلون في الإسلام ويكونون ردءًا ضد أعدائه، وأطلق عليهم (يني تشري) أي الجيش الجديد، ثم حرفت بالعربية لتكون (إنكشارية)، وفي فترة وجيزة جدًّا صار هذا الجيش قوة عسكرية كبيرة ساعدت في مد الفتوحات العثمانية في أوروبا، وقد جنّ جنون أوروبا من الإنكشارية؛ حيث رأت أوروبا فيهم جيشًا مدربًا تدريبًا عاليًا في أصله من أبناؤهم الذين لم يكتفوا باعتناق الإسلام بل تحولوا لقتالهم وفتح بلادهم، وأجتهد المؤرخون الأوروبيون في تشويه صورة الإنكشارية في التاريخ، واتهموا الدولة العثمانية بأخذ الأطفال من آبائهم قهرًا وإجبارهم على اعتناق الإسلام.

ولكن مصير الإنكشارية مع مرور الأيام أخذ منحى بعيدًا مع ضعف سلاطين بني عثمان الذين سمحوا للإنكشارية بالتدخل في شئون الحكم، وأدى ذلك إلى

زيادة نفوذهم في الحكم وتحولهم إلى طريق الفساد والهزيمة حتى قُضي عليهم سنة 1242هـ في عهد الخليفة محمود الثاني.

كما اهتم أورخان بإعمار البلاد، ففتح المدارس وسن الأنظمة اللازمة لاستتباب الأمن بالداخل، وأكثر من بناء المساجد والتكايا وأجزل العطايا للعلماء والشعراء. واتخذ أورخان شكلًا دينيًا في ممارسته أعباء الحكم بصورة أسست لمن بعده.

وواصل أورخان فتوحاته، ففتح إزمير وأزنيق وإمارة قرة سي التي مات حاكمها فاختلف ولداه، فضمها أورخان كي لا تقع فريسة بيد الروم، بذا دانت له معظم الأناضول. وكان أورخان ذكيًا عادلًا إذا فتح مدينة عامل أهلها باللين والرفق ولم يعارضهم في إقامة شعائر دينهم وأذن لمن يريد الهجرة بأخذ ماله وبيع عقاراته.

وحدثت في عهد أورخان معركة كبرى بين البيزنطيين والصرب الذين تحالفت معهم البندقية واستعدوا للهجوم على القسطنطينية. وطلب إمبراطور بيزنطة يوحنا الخامس من السلطان أورخان مساعدته ضد إمبراطور الصرب أصطفان دوشان، على أن يزوجه بابنة الوصي على العرش يوحنا كانتا كوزين، وهي في نفس الوقت أخت زوجته أي يصبح عديلًا للسلطان، ووافق أورخان. وتحركت جيوشه لنصرة بيزنطة. إلا أن أصطفان أدركه الموت والجنود العثمانية في الطريق فعادوا إلى بلادهم ولكن الزيجة تمت كالمتفق.

والملاحظ ظاهرة جديدة على ملوك المسلمين تفشت منذ ذلك الوقت، وهي الزواج بالأوروبيات بنات السلالات الملكية العريقة؛ فقد سبق لعثمان الأول الزواج بمسيحية من فليقيا، وسبق لأورخان الزواج بفتاه يونانية مسيحية، وتبعهم الكثير من السلاطين العثمانيين في ذلك، وقد عده البعض من سلبيات الدولة العثمانية؛ حيث استغللن منصبهن كزوجة للسلطان في التعصب لأبناء جلدتهن، ومن على دينهن من رعايا الدولة العثمانية.

■ أورخان والعبور للبر الأوروبي..

لاحظ أورخان ضعف الدولة البيزنطية وانكماش رقعتها فقرر النزول إلى الشاطئ الأوروبي وفتح الأراضي التي تقع غرب القسطنطينية تمهيدًا لفتحها، حيث إن المسلمين حاولوا فيما سبق فتحها من جهة الشرق وفشلوا. وعليه انطلق ابن أورخان الكبير القائد سليمان مع أربعين من رجاله خيرة الفرسان في مهمة خلف خطوط البيزنطيين، وعبروا للشاطئ الأوروبي واستولوا على السفن الراسية هناك، ثم عادوا إلى الشاطئ الشرقي حيث لم يكن لدى الدولة العثمانية أسطول في ذلك الوقت، ثم انطلقوا مرة أخرى إلى الشاطئ الأوروبي وقد حملوا السفن المستولى عليها بالرجال فاتحين، فسيطروا على قلعة تزنب وشبه جزيرة غاليبولي ذات القلاع المهمة، وبها تحكموا في مضيق الدردنيل.

وفي عام 760هـ، توفي القائد الجسور سليمان ولي العهد نتيجة سقوطه عن جواده، وبعده بشهور مات أورخان وتولى الحكم ابنه الثاني مراد الأول.

■ السلطان الغازي مراد الأول..

تولى مراد الأول واستمر في نهج والده في توسيع رقعة الدولة العثمانية، سواء من جهة الأناضول أو من جهة أوروبا، ولأن جهات الأناضول تحتوى على إمارات مسلمة فقد حاول بقدر الإمكان ضمها بالطرق السلمية، مثل مصاهرة الأمراء؛ وذلك لأنه أراد توحيد المسلمين لمنازلة ملوك أوروبا. كما أنه وجد أن الجيش المسلم شديد الحماسة للجهاد في أوروبا، أما في القتال داخل الأناضول فكان الجيش قليل الحماسة حتى قيل إن الجنود كانوا يساقون سوقًا للقتال في الأناضول.

عندما تسلم السلطان مراد الأول الحكم واجه عداوة أمير القرمان علاء الدين، الذي استنهض بقايا همم الأمراء المستقلين في الأناضول لمحاربة الدولة العثمانية، فأعدَّ السلطان مراد الأول جيشًا استطاع به دخول أنقرة عاصمة إمارات القرمان، واضطر علاء الدين إلى أن يتنازل عن أنقرة للعثمانيين؛ حتى يحافظ على بقية أملاكه وتزوج السلطان ابنة علاء الدين.

ولكن نار الحقد ظلت مشتعلة في قلب الأمير علاء الدين، وانتظر الوقت المناسب حتى يعاود الكرّة في الهجوم على الدولة العثمانية، حتى إذا أعدَّ العُدَّة واتحد معه بعض الأمراء المستقلين في الأناضول، قاموا بحرب ضد الدولة العثمانية في سنة 787هـ، فأرسل لهم مراد الأول جيشًا انتصر عليهم في سهل قونية، وأسر الأمير علاء الدين غير أن ابنته قد توسطت له عند السلطان فعفا عنه، وأبقى له إدارته ولكنه فرض عليه مبلغًا من المال سنويًا.

زوج السلطان ابنه يزيد بابنة أمير كرميان، فقدم الأب مدينة كوتاهيه لابنته، فضمت إلى الدولة العثمانية.

وبـدأ العثمانيـون القتال في أوروبـا في عام 762هـ بفتـح مدينة أدرنه في الجزء الأوروبي، ونقل مراد إليها عاصمته لتكون نقطة التحرك والجهاد في أوروبا، وقد ظلت عاصمة للعثمانيين حتى فتحوا القسطنطينية عام 857هـ.

كـما اجتهد مراد في فتح مدينة فليبه (جنوبي بلغاريا اليوم) وكلجمينا ووردار، وبذلك صارت القسطنطينية محاطة بالعثمانيين من كل جهة في أوروبا.

تنبـه أمـراء أوروبـا وأجمعـوا أمرهـم على الاتحـاد لمقاومـة الطوفـان العثماني، وكتبـوا إلى البابا يسـتنجدونه، بل ذهـب إمبراطور القسـطنطينية إلى البابا، وركع أمامـه وقبل يديه ورجليه وطلب منه الدعم، مع أن الإمبراطور كان على المذهب الأرثوذكـسي والبابا عـلى المذهب الكاثوليكـي، فلبى البابا النداء وراسـل ملوك أوروبـا، يطلـب منهـم الاسـتعداد للتجمع لوقف المـد العثماني في قلـب أوروبا، لم ينتظـر ملك الـصرب المغـرور أورك الخامس وصـول دعم البابـا، وانطلق في اتجاه أدرنه هـو وأمراء البوسـنة وضـم عـددًا من فرسـان المجر المرتزقـة. غير أن الحاميـة العثمانيـة في أوروبـا اصطدمـت بهم عـلى نهر مارتيـزا الذي يمـر بأدرنه، وهزمتهم هزيمة منكرة في معركة مارتيزا فولوا الأدبار، وخشـيت إمارة راجوزة الواقعـة على سواحل دلماسـيا المطلة على البحـر الأدرياتيكي من قـوة العثمانيين، فأبرمت صلحًا مع الدولة العثمانية تدفع بموجبه جزية سنوية قدرها 500 دوكٍ.

اتفـق ملك الـصرب لازار بلينـا نوفيتـش وأمـير البلغار سيسـمان عـلى قتال العثمانيين، ولكن بعد مناوشات خفيفة مع العثمانيين أدركوا مدى ضعفهم مقارنة بالعثمانيـين، فاضطروا إلى دفع جزية سـنوية، وكالعادة تزوج السـلطان بابنة أمير البلغار.

لكن ما لبث أن تأخر الصرب والبلغار في دفع الجزية فاندفعت إليهم الجيوش العثمانيـة، ففتحت بعـض المدن الصربية في جنـوبي يوغوسـلافيا اليوم، وتمكنت مـن فتـح مدينة صوفيا عام 784هـ بعد حصار اسـتمر ثلاث سـنوات، وتم فتح مدينة سالونيك المقدونية التي تقع في اليونان الآن.

وفي أثناء انشغال مراد بمحاربة الأمير علاء الدين في الأناضول، استغل الصرب الفرصة وانقضوا على الدولة العثمانية، واستطاعوا أن يحققوا بعض الانتصارات في جنوب الصرب؛ مما شجع أمير البلغار وسيسمان لنقض المعاهدة والهجوم على الدولة العثمانية، ولكن الجيوش العثمانية داهمته سريعًا ففر إلى الشمال واعتصم في مدينة نيكوبلي في شمال بلغاريا، وجمع ما بقي من جيوشه وهجم على القوات العثمانية فهزم شر هزيمة ووقع أسيرًا ولكن السلطان أحسن إليه وأبقاه أميرًا على نصف بلاده وضم النصف الآخر إلى الدولة العثمانية، ولما علم ملك الصرب ما لحق بسيسمان انسحب بجيوشه إلى الغرب، فأدركته الجيوش العثمانية والتقت معه في موقعة قوص أوه أو سهل كوسوفو (إقليم حصل على الاستقلال عن يوغوسلافيا الآن وتسكنه أكثرية ألبانية مسلمة)، وكان القتال سجالًا بين الطرفين حتى انحاز صهر الملك لازار إلى جانب العثمانيين بفرقته البالغ قوامها 10000 مقاتل، فانهزم الملك لازار بلينا نوفيتش.

وتأتي نهاية السلطان مراد درامية؛ حيث كان يتفقد القتلى الصرب فقام إليه جندي صربي ما زال به رمق من حياة من بين الجثث وطعنه بخنجره فصرعه، وأجهز الجنود العثمانيون على الجندي الصربي على الفور.

■ السلطان الغازي بايزيد الأول الملقب بالصاعقة..

تسلَّم الحكم بعد مقتل والده المفاجئ وهو يبلغ من العمر 30 عامًا، واشتهر بالفروسية والشجاعة حتى لقب باسم (يلدرم)، أي الصاعقة لإقدامه وانقضاضه المفاجئ على العدو.

استهل ولايته بضم إمارات منتشا وآيدين وصاروخان دون قتال، ولجأ أبناء حكامها إلى قسطموني عاصمة إمارة أسفنديار، كما فتح مدينة الأشهر آخر المدن للروم في غرب الأناضول، كما تنازل له أمير القرمان علاء الدين عن جزء من أملاكه بدلًا من ضياعها كلها.

واشتهر علاء الدين بالمراوغة والخيانة كما سبق في عهد السلطان مراد الأول، فاستغل انشغال السلطان بايزيد بالمعارك المحتدمة في أوروبا فقام بهجوم على العثمانيين استطاع به أن يسترد بعض الأراضي التي تنازل عنها لهم، وتمكن من أسر كبار القادة العثمانيين في الأناضول، فأسرع إليه الصاعقة بايزيد فهزمه وأسره هو وولديه وباقي أهل بيته، وبذلك انتهت إمارة القرمان، ولحقتها إمارة سيواس وتوقات ثم شق طريقه إلى إمارة أسفنديار ملجأ الفارين من أبناء الأمراء، فطلب من أمير أسفنديار تسليم الأمراء الفارين فأبى، فانقضّ عليه بايزيد وضم بلاده إليه.

ثم توجه بايزيد لترتيب الأوراق في أوروبا فعيّن الأمير أصطفان بن لازار بلينا نوفيتش ملكًا للصرب، وسمح له بالاستقلال مقابل دفع جزية سنوية، ومساعدته هو وجنوده في أي وقت يطلبهم، وكالعادة توثقت عرى هذه الاتفاقية بزواج بايزيد بأوليفير أخت أصطفان.

ثم اتجه إلى القسطنطينية عام 794هـ وحاصرها، ليكون بذلك أول سلطان عثماني يحاصر القسطنطينية. ضم السلطان بايزيد الأول نصف بلاد البلغار

المتبقي بعد موت ملكها سيسمان، وأسلم ابنه فأخذه السلطان وجعله واليًا على صامسون، وبذلك أصبحت بلغاريا ولاية عثمانية.

وكان طبيعيًا أن يدب الذعر في أوروبا من انتصارات الدولة العثمانية، وكالعادة استغاث ملوك أوروبا بالبابا الذي أعلن النفير العام على العثمانيين، واستجاب له دوق بورغونيا وأمراء النمسا وبافاريا جنوب ألمانيا وفرسان القديس يوحنا، الذين أخرجوا من عكا ثم إلى قبرص ثم رودس فمالطة وسار الجميع في عام 798هـ وحاصروا مدينة نيكوبلي شمال بلغاريا، ووصل جيش العثمانيين الذي كان بقيادة صهر بايزيد أمير الصرب أصطفان، ومعه كثير من المسيحيين الخاضعين للدولة العثمانية، والتقى الجمعان وهزم جيش أوروبا هزيمة منكرة، وأسر الكثير من أمراء أوروبا في هذه المعركة.

وبعد هذا الانتصار، دفع إمبراطور بيزنطة 10000 دينار ذهبية مقابل فكّ العثمانيين للحصار المفروض على القسطنطينية، وسمح للمسلمين ببناء مسجد لهم فيها.

■ الصدام الدامي مع تيمورلنك وتقسيم الدولة العثمانية..

كان كل شيء يسير في طريقه أمام الحلم العثماني حتى دق أبواب الدولة كابوس عنيف اسمه تيمورلنك.. اجتاح إعصار تيمورلنك الشرق ووصل إلى بغداد وخربها عن آخرها. وفر أميرها إلى بايزيد، فأرسل إليه تيمورلنك يطلب تسليم الأمير الفار، فرفض السلطان بايزيد فانطلق تيمورلنك إلى الدولة العثمانية ودخل مدينة سيواس، وقتل الأمير أرطغرل بن بايزيد، وأخذ يتوغل في الدولة العثمانية حتى التقى بجيشه البالغ قوامه 80.000 مع الجيش العثماني البالغ 150.000 في أنقرة سنة 804هـ، واستمرت المعركة الدامية من قبل شروق الشمس إلى ما بعد غروبها. وفي خضم المعركة حدثت خيانة مروعة في جيش بايزيد، حيث أنضمت فرق آيدين ومنتشا وكرميان وصاروخان إلى جيش تيمورلنك، فانهزم بايزيد ووقع هو وابنه موسى في يد تيمورلنك واختفى ابنه مصطفى وفر أبناؤه سليمان وعيسى ومحمد، وحاول السلطان بايزيد الفرار 3 مرات، ولكنه فشل فأصابه الحزن الشديد من الإهانة التي لحقت به، وتوفي في عام 805هـ وقيل إنه انتحر. وسرعان ما استولى تيمورلنك على بقية أراضي الدولة العثمانية في الأناضول، ولم يتركها إلا وقد عادت الإمارات التي كانت موجودة فيها قبل أن تضمها الدولة العثمانية إلى التجزؤ من جديد.

وانتهزت الولايات الأوروبية التي تحت الحكم العثماني ما حل بالدولة فأعلنت استقلالها، وهي البلغار والصرب والأفلاق فانكمشت الدولة العثمانية.

ومما زاد الدولة المنكسرة تمزقًا تنازع أبناء السلطان بايزيد على السلطة، فاستقل سليمان بالجزء الأوروبي من الدولة العثمانية بما فيها مدينة أدرنه، وعقد حلفًا

مع عمانويل الثاني إمبراطور بيزنطة ليساعده ضد إخوته، وأعطاه في سبيل ذلك مدينة سالونيك وبعض سواحل البحر الأسود وتزوج كالعادة بإحدى قريباته.

أما عيسى فبمجرد وفاة أبيه أعلن نفسه سلطانًا في مدينة بورصة.

وأما محمد الذي كان مختبئًا في الأناضول فحينما خف ضغط التتار خرج ومن معه من الجند يقاتل ما بقي من التتار وتمكن من السيطرة على توقات وأماسب، واستطاع تخليص أخيه موسى من الأسر وسار لمحاربة إخوته.

وسرعان ما استطاع محمد أن ينتصر على أخيه عيسى بعد عدة معارك بينهما، وقتل عيسى ثم أرسل جيشًا بقيادة أخيه موسى لمحاربة أخيهما سليمان، ولكنه عاد يجر ذيل الخيبة وراءه، ولكنه لم ييأس فحاول موسى مرة أخرى الهجوم، واستطاع في هذه المرة أن ينتصر وقتل سليمان على أبواب أدرنه عام 813هـ.

اتجه موسى لتأديب الصرب على موقفهم أثناء الهجوم التتري، وحارب ملك المجر الذي حاول مساعدة الصرب وانتصر موسى عليه.

وكأن الخيانة طبع في أبناء بايزيد، فقد أراد موسى أن ينفصل بالجزء الأوروبي، وبالفعل ضرب الحصار على القسطنطينية، فاستنجد إمبراطورها بالأمير محمد الذي أسرع فعقد حلفًا مع إمبراطور القسطنطينية لحماية المدينة، وملك الصرب ضد أخيه، وانتصر الحلف وقُتل الأمير موسى وانفرد الأمير محمد بالسلطة.

■ السلطان الغازي مراد الثاني ومسلسل الخيانات..

تولى السلطة عام 824 هـ وعمره لا يزيد على 18 سنة، وانتهج سياسة حازمة في طريق استعادة السيطرة على إمارات الأناضول التي استقلت عن الدولة العثمانية أثناء غزو تيمورلنك، واجتهد في تكوين قوة كبيرة تنطلق لفتح أوروبا.

وعندها طلب إمبراطور بيزنطة من السلطان مراد عدم الهجوم على القسطنطينية، ولكي يضمن ذلك طلب من السلطان أن يسلمه اثنين من إخوته كرهينة، وهدد إمبراطور بيزنطة بإطلاق سراح مصطفى عم السلطان مراد إذا لم ينفذ شروطه، فرفضها السلطان مراد الأول فأطلق سراح عمه مصطفى، وكالعادة يقتتل الإخوة والأعمام من بني عثمان ويستخدمون في تنفيذ مخططات الأعداء، فينطلق مصطفى عم السلطان وبعد أن زوده البيزنطيون بعشرة مراكب فانطلق بها مصطفى لحصار مدينة غاليبولي على مضيق الدردنيل، فدخلها وترك فيها حامية، إلا أنه لم يتمكن من دخول قلعتها، وسار مصطفى نحو أدرنه وقتل القائد العثماني بايزيد باشا، وسار نحو ابن أخيه مراد ولكن حدثت خيانة في صفوف قواده، ففر مصطفى إلى مدينة غاليبولي حيث قبض عليه وأعدم.

وسارع السلطان مراد الثاني لينتقم من إمبراطور بيزنطة، فضرب الحصار على القسطنطينية عام 825هـ، ولكنه لم يتمكن من فتحها.

فتنة أخي السلطان:

وما لبث أن استغل الأمير مصطفى أخو السلطان مراد - كعادة العثمانيين على الخيانة - انشغال السلطان بمحاصرة القسطنطينية، فقام بالتمرد عليه يدعمه أمراء الدويلات المستقلة في الأناضول، فاضطر مراد إلى أن يفك الحصار عن القسطنطينية ويقاتل أخاه حتى هزمه وقتله.

واصل مراد تحقيق هدفه الأول، وهو إعادة الإمارات التي استقلت عن الدولة العثمانية في الأناضول، فعقد صلحًا مع أمير القرمان.في حين وجد أمير قسطموني نفسه في موقف شديد الحرج لسبق دعمه للأمير مصطفى - أخي السلطان مراد - فأسرع بالتنازل عن نصف إمارته للسلطان مراد وكالعادة التي لا تبطل أبدًا زوجه ابنته.

ثم سارع مراد الثاني للسيطرة على إمارات: آيدين، منتشا، وصاروخان، وإقليم الحميد، وكرميان التي أوصى أميرها قبل موته بإلحاقها بالدولة العثمانية؛ حيث لم يكن له من يعقبه، وانتهت بذلك مشكلات الأناضول وأصبح السلطان متفرغًا لمواجهة ملوك أوروبا.

وبالفعل بدأت استعدادات مراد للتوغل في أوروبا. وهنا خشي أمير الصرب جورج برنكوفتش على ملكه، فعقد معاهدة مع العثمانيين تنازل فيها عن بعض المواقع للعثمانيين، وبمقتضاها يدفع جزية سنوية وتعهد بقطع علاقاته مع ملك المجر، ودخلت حريم السلطان زوجة جديدة كعادتهم هي بنت برونكوفيتش مارا.

ثم زحف مراد الثاني إلى مدينة سالونيك التي آلت إلى البندقية عام 833هـ، واعترف أمير الأفلاق بالسيادة العثمانية عام 836هـ، واستطاع السلطان إخضاع ألبانيا، بل وسلم أميرها أبناءه الأربعة كرهينة للسلطان، وعندما مات الأمير عام 834هـ ضم السلطان أملاكه إليه، وما كاد السلطان يستعد لفتح القسطنطينية حتى بدأت حركة تذمر بين ملوك أوروبا بدأها ملك الصرب جورج برنكوفتش فلم يتوانَ مراد عن مهاجمة صهره وقتله، وفتح جزءًا من بلاد الصرب وحاصر بلغراد ستة أشهر، ولكنه عجز عن فتحها، وأرسل مراد جيشًا إلى إمارة ترانسلفانيا (جزء من رومانيا حاليًّا)، فهزم الجيش العثماني هزيمة منكرة واستشهد قائده مع 20.000 من الجند، جنّ جنون مراد

فأعد جيشًا ثانيًا قوامه 80 ألفًا، فانهزم للمرة الثانية وأسر القائد العثماني عام 845هـ.

■■■

وهنا استغل ملك المجرالهزيمتين الأخيرتين للجيش العثماني وسار بجيشه ومن انضم إليهم من كل أنحاء أوروبا من ألمان، وفرنسيين، وبنادقة، وبولنديين، وجنوبيين، وصرب، إلى بلاد الصرب وانتصر على العثمانيين في ثلاث معارك طاحنة. انكسر بعدها مراد ورضخ لتوقيع معاهدة تنازل بمقتضاها عن الأفلاق للمجر، ورد للصرب بعض المواقع وقامت هدنة مدتها 10 سنوات، واختار السلطان أن يخلد إلى الراحة بعد هذه الحروب الطاحنة المتتالية. وبعد وفاة ابنه الأكبر علاء الدين ذهب إلى ولاية آيدينفي غربي الأناضول، وترك ابنه محمدًا الذي لم يبلغ من العمر 14 عامًا يتولى السلطة.

وكان قرار مراد بترك الحكم لطفله سببًا في فتح شهية ملوك أوروبا للثأر. سريعًا تجمع ملوك أوروبا وهاجموا بلاد البلغار، وهنا كان لا بد أن يترك مراد عزلته ويخرج لملاقتهم، وقاد بنفسه جيشًا تعدى المائة ألف مقاتل، والتقى الجمعان في مدينة فارنا البلغارية على البحر الأسود، فهزم ملوك أوروبا هزيمة منكرة وقتل ملك المجر في المعركة، والغريب أن مراد فور معركة فارنا عاد مرة أخرى لترك الحكم لابنه الصبي محمد.

كان طبيعيًّا أن يستغل الإنكشارية صغر سن الحاكم الصبي ويستخفوا به رغم أنه كان صبيًا نابهًا، وللمرة الثانية يخرج مراد من عزلته لتأديب الإنكشارية، ثم أرسلهم للحرب في بلاد اليونان ليشغلهم عن مشاغباتهم.

و توفي السلطان مراد الثاني في عام 855هـ، وتسلم السلطة ابنه محمد الثاني الملقب بـ (محمد الفاتح).

■ السلطان الغازي محمد الفاتح..

يحتل السلطان محمد الثاني الملقب بمحمد الفاتح درة التاج في السلاطين العثمانيين عند أغلب المؤرخين، بل وعامة المسلمين. ودومًا تزين صفحات تاريخه بحديث المصطفى -صلى الله عليه وآله وسلم- «لتفتحن القسطنطينية، ولنعم الأمير أميرها، ولنعم الجيش ذلك الجيش».

فصفحات التاريخ تحكي عن محاولات مستميتة وعديدة في كل عهود الإسلام لفتح القسطنطينية المدينة العصية. وقد اهتهم الفاتح بالإعداد لغزو القسطنطينية، فبدأ ببناء قلعة على البر الأوروبي تشرف على مضيق البوسفور، وتقابلها على البر الآسيوي القلعة التي بناها السلطان بايزيد الأول، وبذلك يتحكم في ضفتي مضيق البوسفور ويمنع وصول الإمدادات إلى القسطنطينية.

وشعر صاحب القسطنطينية عند بناء القلعة بعزم السلطان على فتحها، فعرض عليه دفع الجزية فرفض السلطان في مقابل عدم مهاجمة القسطنطينية، وهنا أيقن الرجل أن الفاتح قد انتوى الهجوم على المدينة فأسرع لطلب النجدة من ملوك أوروبا، فأرسلت له جنوة 30 سفينة حربية. وكان العثمانيون يحاصرون القسطنطينة بأكبر جيش سبق أن طوقها حيث كان عدد الجنود العثمانيين الذين يحاصرون المدينة من الجهة البرية قرابة 250.000 جندي، أما من الناحية البحرية فكان هناك قرابة 180 سفينة بحرية.

لكن سرعان ما استطاعت سفن جنوة كسر الطوق المضروب والنفاذ إلى القسطنطينيه. وهنا تملك محمد الفاتح الحزن الشديد وجمع قواده وبثّ فيهم خطابًا دينيًّا لينقلوه لجنودهم قوامه: أنه إذا تم فتح القسطنطينية سيتحقق فيهم حديث رسول الله ومعجزة من معجزاته، وسيزيد الإسلام قدرًا وشرفًا.

أخذت المدافع العثمانية تدكّ أسوار القسطنطينية من جميع الجهات في حماسة منقطعة النظير، ولم يمضِ الوقت الطويل حتى تهاوت الحصون، وسقطت القسطنطينية في فجر يوم 15 من جمادى الأولى عام 857هـ، وقتل إمبراطورها في المعركة، وسيطر العثمانيون على المدينة سيطرة كاملة، وأمر محمد الفاتح أن يؤذن في كنيسة آيا صوفيا إيذانًا بتحويلها إلى مسجد.

كما أمر السلطان بتغيير اسم المدينة إلى إسلام بول (إستانبول) أي مدينة الإسلام، واتخذت عاصمة للدولة العثمانية وظلت العاصمة حتى إلغاء الخلافة، وبذلك سقطت تمامًا الدولة البيزنطية بعد حروب ضارية مع الدول الإسلامية المتعاقبة استمرت أكثر من 8 قرون، وسارع محمد الفاتح لتغيير طبيعة المدينة وصبغها بالصبغة الإسلامية، فاشترى نصف كنائس المدينة وحولها إلى مساجد، وترك النصف الآخر من الكنائس للمسيحيين لممارسة شعائرهم.

وأثناء حصار المسلمين للقسطنطينية عثر على قبر الصحابي الجليل أبي أيوب الأنصاري، وهو خالد بن زيد بن كليب، أبو أيوب الأنصاري الخزرجي، من أكابر الصحابة شهد بدرًا والعقبة والمشاهد كلها، وشهد مع الإمام علي قتال الخوارج، وفي داره كان نزول رسول الله -صلّى الله عليه وآله وسلّم-، حين قدم إلى المدينة مهاجرًا من مكة فأقام عنده شهرًا حتى بنى المسجد ومساكنه حوله، ثم تحوَّل إليها، وكانت وفاته ببلاد الروم قريبًا من سور القسطنطينية، أثناء محاصرة القسطنطينية في ملك يزيد بن معاوية، وبعد فتح القسطنطينية بني على قبر أبي أيوب مسجدٌ عظيمٌ في هذا الموقع أطلق عليه أيوب سلطان، وغدا تسلم السلاطين مقاليد الحكم في هذا المسجد عُرفًا متبعًا حيث يتسلم السلطان الجديد سيف عثمان أرطغرل مؤسس الدولة.

وبعد أن تم فتح القسطنطينية وترميم أسوارها التي هُدمت في أثناء القتال، تقدم السلطان محمد الفاتح ليستكمل جني ثمار نصره. وكان أول ما وجه إليه نظره كانت إمارة الصرب. والمتعارف عليه أن السلاطين العثمانيين السابقين كانوا

يعطون الاستقلال لإمارة الصرب في مقابل جزية تدفع كل عام، ولكن كثيرًا ما كان الصرب يستغلون أي ظروف سيئة تمر بها الدولة العثمانية، ويمتنعون عن دفع الجزية، فأراد السلطان محمد الفاتح أن يعزز سيطرة الدولة العثمانية على بلاد الصرب، فسار إليها ودخلها ولكنه لم يتمكن من فتح عاصمتها بلغراد، بسبب استماتة ملك المجر هونياد في الدفاع عنها، ولكن مع اجتياح العثمانيين بلاد الصرب فقدت إمارة الصرب استقلالها وتحولت إلى ولاية عثمانية، ولم يبق خارج سيطرة العثمانيين إلا بلغراد التي تركها العثمانيون، ونجحوا في إصابة ملك المجر الذي مات متأثرًا بجراحه بعد مغادرة العثمانيين بعشرين يومًا.

وتوغل الفاتح بجيشه الجرار في قلب أوروبا، ووصل إلى مناطق لم يصل إليها من قبل أي من جيوش العثمانيين فاستولى على أراضي بلغاريا والبوسنة والهرسك وألبانيا وجزء من كرواتيا. وحاول محمد الفاتح أن يخضع إيطاليا لحكمه حتى إنه أقسم بأن يربط حصانه في كنيسة القديس بطرس (الفاتيكان). ورأى أن يمهد لذلك بأن يفتح جزيرة رودس التي يسيطر عليها فرسان القديس يوحنا، ولكن الأسطول العثماني فشل في فتحها وأبرم صلحًا معهم عام 885هـ، ثم عاد فاتجه لفتح إيطاليا، فنزل الجيش العثماني بسواحل إيطاليا واستطاع فتح مدينة أوترانت عام 885هـ. وفي العام الذي تلاه اشتغل بإعداد حملة عظيمة لإتمام فتح إيطاليا، ولكن وافته المنية في يوم 4 من ربيع الأول عام 886هـ وعندما توفي انصرف العثمانيون عن هذه الجهة، وأخلى خَلَفه بايزيد الذي اشتهر بميله إلى السلم مدينة أوترانت من الجيش العثماني.

■ السلطان بايزيد الثاني..

اشتهر بايزيد بالميل إلى السلم والعبادة، حتى أطلق عليه المؤرخون سليم الصوفي، ولم يكد يجلس على العرش حتى خرج عليه أخوه جم، ولقي السلطان في محاربته الكثير من العنت إلى أن اضطر إلى الفرار منه إلى مصر. في عهده سقطت غرناطة آخر معاقل المسلمين في الأندلس، ورغم أن غرناطة أرسلت تستنجده فإن بعد المسافة والجبهات العديدة التي كانت الدولة العثمانية تحارب فيها وكذا القلاقل الداخلية التي تضربها منعه من تقديم يد العون الحقيقي، واكتفى بإرسال أسطول بحري تحت قيادة كمال رَئِيس قام ببعض المناوشات التي لم تغير من مصير الأندلس شيئًا. وظهرت في عهده أيضًا دولة روسيا التي تمكن أميرها إيفان الثالث من تخليص موسكو من أيدي التتر المسلمين ومحاربتهم وابتلاع بلادهم وأوقع بهم مجازر مروعة.

سيطرة سليم الأول على الحكم..

كان جنود الإنكشارية لا يعجبهم انكماش بايزيد وضعفه، فالتفوا حول أصغر أبنائه سليم الذي وجدوا فيه دلائل الفروسية والعقلية العسكرية المتقدة، وكان يحكم في ذلك الوقت إمارة طرابزون، وابنه سليمان في كافا عاصمة القرم، فسار سليم إلى ابنه في كافا وجمع جيشًا سار به إلى الولايات العثمانية في أوروبا، وحاول السلطان بايزيد تهديد ابنه بالقتل، لكنه تراجع وترك له حكم بعض الولايات الأوروبية عام 916هـ، فطمع سليم وسار إلى أدرنه وأعلن نفسه سلطانًا، فحاربه أبوه وانتصر عليه، ففر إلى القرم ثم عفا السلطان عنه وأعاده إلى ولايات أوروبا، فلم يهدأ سليم إلا بعد أن جمع الإنكشارية وسار بها إلى إستانبول، وأرغم والده على التنازل عن الحكم ثم سرعان ما مات بايزيد.

بهذه العقلية العسكرية والرغبة المحمومة في السلطة الذي يتمتع به السلطان سليم الأول تولى مسند الدولة العثمانية، وأعلن أن همه كله في توحيد الأمصار الإسلامية الأخرى، حتى تكون يدًا واحدة ضد التحالفات الدولية التي بدأت بعد سقوط الأندلس. ومما زاد رغبته في توحيد المسلمين ما تردد وقتها من أن البرتغاليين احتلوا بعض المواقع في جنوب العالم الإسلامي في اليمن؛ ليواصلوا طريقهم إلى المدينة المنورة وينبشوا قبر رسول الله ويساوموا المسلمين على القدس الشريف.

الهجوم على الدولة الصفوية وموقعة جالديران:

لم يُضع السلطان سليم الأول الوقت، واعتبر أن أول طريق لتوحيد العالم الإسلامي هو منازلة الصفويين! خشي القائد المسلم أن يعترضه السكان الشيعة من رعايا الدولة العثمانية على الحدود المتاخمة للصفويين، فأصدر بكل هدوء وسلام مع النفس قراره بارتكاب مجزرة مخزية بقتلهم جميعًا، ثم سار مباشرة في اتجاه تبريز عاصمة الصفويين. والتقى الجيشان في جالديران شرقي الأناضول عام 920هـ، وانتصر العثمانيون، وبعدها بعشرة أيام دخل السلطان سليم الأول مدينة تبريز واستولى على كنوزها، ثم اقترب فصل الشتاء ففترت عزائم الإنكشارية وأظهروا التمرد، فانتظر السلطان حتى انتهى فصل الشتاء ثم عاود السير مرة أخرى في اتجاه الدولة الصفوية، واستولى على بعض القلاع في أذربيجان، ثم عاد إلى إستانبول وجمع ضباط الإنكشارية الذين فترت عزيمتهم وامتنعوا عن مواصلة الزحف عندما حلّ فصل الشتاء، وبمنتهى الهدوء لم يتورع عن قتلهم جميعًا حتى يكونوا عبرة لغيرهم!..

الصدام مع المماليك:

ما إن انتهى السلطان سليم الأول من الصفويين حتى أعدّ العدة للهجوم على المماليك الذين ضعف أمرهم في ذلك الوقت، ولم يحاولوا الوقوف في وجه البرتغاليين، استطاع سليم الأول استمالة ولاة الشام في صفه لقتال المماليك،

ووعدهم بالإبقاء عليهم في إماراتهم إذا ما تم له النصر، ثم سار بجيشه لملاقاة المماليك الذين بدورهم أعدوا أنفسهم لملاقاة العثمانيين، والتقى الجمعان في موقعة مرج دابق الشهيرة عام 922هـ، واحتدم القتال العنيف بينهما، فتسلل ولاة الشام بجيوشهم وانضموا إلى العثمانيين، فضعف أمر المماليك وهزموا وقتل في المعركة السلطان قنصوه الغوري، وبهذه المعركة أصبحت الشام في قبضة سليم الأول، أي ما يعادل نصف دولة المماليك.

سريعًا تولى السلطان طومان باي مكان قنصوه الغوري، وسارع إليه سليم فانهزم طومان باي على حدود الشام الجنوبية، فتتبعه حتى مدينة القاهرة، حيث التقى الجيشان في موقعة الريدانية قرب العباسية وانتصر العثمانيون رغم الدفاع المستميت للمماليك، ووقع طومان باي في يد العثمانيين نتيجة لخيانة أحد أتباعه، فأعدموه على باب زويلة.

بسقوط دولة المماليك تنازل الخليفة العباسي الأخير محمد المتوكل - الذي كان كمن سبقه من الخلفاء العباسيين في دولة المماليك ليس له أي سيطرة وإنما كان صورة فقط - للسلطان سليم الأول عن الخلافة، ودخلت الحجاز في تبعية الدولة العثمانية بسقوط المماليك، وأصبح السلطان سليم الأول أول خليفة عثماني لعموم بلاد المسلمين، فنقل مقر الخلافة من القاهرة إلى إستانبول، وتوفي السلطان العثماني سليم الأول عام 926هـ.

الخليفة سليمان الأول (القانوني)..

بلغت الدولة في عهده أقصى اتساع لها حتى أصبحت أقوى دولة في العالم في ذلك الوقت، واشتهر بسليمان القانوني؛ لأنه وضع نظمًا داخلية في كل فروع الحكومة، فأدخل بعض تغييرات في نظام العلماء والمدرسين الذي وضعه محمد الفاتح، وصبغ دولته بعدما صارت صاحبة الخلافة بصبغة دينية وجعل أكبر الوظائف العليا هي وظيفة المفتي، وأدخل التنظيمات على جيش الإنكشارية المتمردين دومًا.

احتدم الخطر الإسباني والبرتغالي على المسلمين، فبعدما استولوا على آخر معاقل المسلمين في بلاد الأندلس، وعاهدوا المسلمين على أن يكفلوا لهم الحرية الدينية وممارسة الشعائر، سرعان ما أخلفوا العهود ونقضوا المواثيق، ودارت رحى التنصير الضارية تطحن المسلمين في الأندلس، واستخدمت كل الوسائل من إبادة وتشريد وهتك للأعراض واستعباد، فهام المسلمون في الأندلس على وجوههم، منهم من لحقته الإبادة، ومنهم من ذاب في المجتمع النصراني، ومنهم من استطاع أن يفر بدينه ليهاجر للشمال الإفريقي.

ولم يكتف الإسبان والبرتغاليون بالأندلس، فبعد أن استتب لهم الأمر فيها اتجه الإسبان نحو شمال إفريقيا، واحتلوا بعض المراكز في شمال إفريقيا مثل طرابلس والجزائر وبنزرت ووهران وغيرها.

أرادت الدولة العثمانية تحرير شمال إفريقيا من الأسبان، ثم الاتجاه للأندلس ولم شمل المسلمين. وفي عهد السلطان سليم الأول ظهر أحد البحارة الذين لهم صفحات لامعة في التاريخ العثماني، وهو البحار خير الدين الذي كان في البدء قرصانًا مسيحيًّا في جزر بحر إيجه ثم اعتنق الإسلام هو وأخوه عروج، ونذرا نفسيهما لخدمة الإسلام، وكانا ينتقمان من القراصنة الذين كانوا يعترضون السفن

المسلمة ويسترقون ركابها وينهبونها، فكانا بالمثل يعترضان سفن المسيحيين ويبيعان ركابها عبيدًا، ثم في عهد السلطان سليم الأول أرسلا إليه إحدى السفن التي أسراها، فقبلها منهما فأعلنا طاعتهما وخدمتهما للعثمانيين.

وزودهما سليم الأول أسطول وقوات فانطلقا يطهران شواطئ إفريقيا من الإسبان، فحرر عروج مدينة الجزائر ومدينة تلمسان وعين خير الدين واليًا على الجزائر، وبالتالي ضمت الجزائر إلى الدولة العثمانية.

وسريعًا ما أرسل سكان طرابلس إلى الخليفة العثمانى يستغيثونه بعد احتلال الإسبان لطرابلس، فأرسل إليهم قوة بحرية صغيرة عام 926هـ بقيادة مراد أغا ولكنه فشل في تحريرها، فأرسل الخليفة الأسطول العثماني بقيادة طورغول بك فحرر المدينة من الإسبان وطردهم شر طردة، وواصل تحرير المدن الإسلامية من وطأتهم فحرر بنزرت ووهران وغزا ميورقة إحدى جزر البليار جنوب شرقي إسبانيا وكورسيكا، وبذلك صارت ليبيا ولاية عثمانية.

ثم دعا الخليفة سليمان البحار خير الدين وأمره بالاستعداد لغزو تونس وتحريرها من ملكها الحفصي، وكان متحالفًا مع الملك شارلمان ملك فرنسا وإسبانيا ناهيك بأنه كان شديد العداوة لسليم ودولته، فأعد خير الدين العدة وبنى أسطولًا كبيرًا لهذا الغرض، وسار من مضيق الدردنيل قاصدًا تونس، وفي طريقه أغار على مالطة وجنوبي إيطاليا للتمويه، ولكي لا يعرف مقصده الأساسي ثم وصل إلى تونس، وبمنتهى السهولة سيطر عليها وعزل السلطان حسن الحفصي، ووضع مكانه أخاه، فاشتاط شارلمان وصمم على استعادة نفوذه في تونس وإعادة ملكها العميل المخلص له، فقاد شارلمان بنفسه الجيوش وتمكن من دخول تونس وترك الحرية لجنوده في النهب والقتل وهتك الأعراض وهدم المساجد والسبي والاستعباد، وعليه أعاد السلطان خسن الحفصي للحكم بعد أن أجبره على التنازل له عن مدن: بنزرت وعنابة وغيرها، واضطر خير الدين إلى الانسحاب من تونس.

وكما ذكرنا من قبل تزايد الخطر القادم من قِبَل البرتغاليين بعد احتلالهم لبعض المواقع في جنوب شبه الجزيرة العربية وما تردد عن عزمهم مواصلة الزحف حتى البقاع المقدسة لنبش قبر الرسول -صلى الله عليه وآله وسلم- بالمدينة المنورة لمبادلته بالقدس الشريفة، هذا بالإضافة إلى خطرهم على بلاد الهند التي كانت في ذلك الوقت تحت سلطان المغول المسلمين.

أمر الخليفة سليمان بتجهيز أسطول للسيطرة على الجزيرة العربية وتطهيرها من البرتغاليين، فتمكن العثمانيون من ضم اليمن وعدن ومسقط ومحاصرة جزيرة هرمز، وبالتالي أغلقوا الأبواب في وجه البرتغاليين، وفي نفس الوقت استنجد المغول المسلمون بالسلطان سليمان من البرتغاليين الذين احتلوا بعض سواحل الهند، فأرسل إليهم أسطولًا تمكن من تحرير بعض القلاع من البرتغاليين، ولكن الأسطول العثماني هزم في معركة طاحنة تعرف بمعركة ديو البحرية، فاضطر إلى الانسحاب وخصوصًا بعدما حاول الأعداء إثارة الفتن بينه وبين سلطان المغول المسلم، وإشاعة أن العثمانيين يريدون ضم الهند.

وأرسل الخليفة إلى ملك المجر يأمّره بدفع الجزية، فقتل الملك رسول الخليفة، فجهز الخليفة جيشًا قاده بنفسه وسار ففتح بلغراد عام 927هـ بعد أن كانت أكبر مانع للعثمانيين لدخول بلاد المجر.

ثم ادعى أخو الملك شارلمان فرديناند سلطته على المجر، واستطاع أن يحتل عاصمتها بودا، فاستنجد ملكها جان زابولي بالخليفة سليمان، فانقضت الجيوش العثمانية على بودا التي فرّ منها فرديناند فتبعته الجيوش العثمانية وحاصرت فيينا، وأحدثت ثغرًا في أسوارها إلا أن الذخيرة نفدت منهم وأقبل فصل الشتاء فرجع الخليفة إلى بلاده.

ثم حدث تحول في تحالفات الملوك الأوروبيين؛ حيث اقتنع زابولي ملك المجر بفكرة فرديناند في اقتسام المجر، وإلغاء الحماية العثمانية عليها، وأرسل فرديناند صورة من الاتفاق السري بينهما للخليفة ليعلمه بعدم ولاء زابولي له،

وقبل أن يعاقب الخليفة الملك زابولي كان الموت أسرع إلى زابولي عام 946هـ، فاستغل فرديناند الفرصة ليحتل المجر فاحتل مدينة بست على الضفة الأخرى لنهر الدانوب والمواجهة لمدينة بودا، وهما اللتان اندمجتا معًا لتكونا العاصمة الحالية للمجر بوادبست، فانقض عليهم الجيش العثماني عام 947هـ ففرّ النمساويون. وبهذا أصبحت المجر ولاية عثمانية، ورضيت أرملة زابولي بذلك حتى يكبر ابنها الذي ما زال طفلًا، وأخيرًا عُقدت معاهدة بين العثمانيين والنمسا لمدة خمس سنوات تدفع بموجبها النمسا جزية سنوية مقابل ما بقي تحت يديها من المجر.

أرادت الدولة العثمانية استمالة أحد الأطراف الأوروبية إليها حتى تفرق وحدتهم ضدها، فعقدت مع فرنسا اتفاقية في عام 942هـ، ولكنها شملت الكثير من الامتيازات لفرنسا التي سببت مشكلات كثيرة للعثمانيين لاحقًا حتى سقطت الخلافة، خصوصًا أن الكثير ممن خلفوا الخليفة سليمان قد تبعوه في منح الامتيازات لدول أوروبا التي جعلت الأجانب دولة داخل الدولة العثمانية، وجعلت القنصل يحكم بقوانين بلاده في الدولة العثمانية في كل ما يتعلق بالرعايا الفرنسيين، ومن أمثالها: ألا تسمع الدعاوى المدنية للسكان المسلمين ضد تجار ورعايا فرنسا، ولا يحق لجباة الخراج إقامة دعاوى عليهم، وأن يكون مكان دعواهم عند الصدر الأعظم لا عند أي محكمة كباقي الشعب، وإذا خرج فرنسي من الدولة العثمانية وعليه ديون فلا يسأله أحد عنها، وتكون في طي النسيان، وغيرها من الامتيازات التي جعلت لهم نفوذًا كبيرًا في أنحاء الدولة بمرور الزمن حتى أصبحوا يعيشون في أرض يباح لهم فيها فعل كل ما يريدون من استحلال للمنكرات والفجور، ولا يستطيع أحد أن يكلمهم، بل قيل إن سجونهم التي كانت تدار بواسطة بلادهم في الدولة العثمانية كانت عبارة عن قصور، بها ما لذ وطاب من الجواري والخمور وغيرها.

ولم يقتصر الأمر على ذلك، بل أخذت كل دولة أجنبية تطالب بامتيازات لها في الدولة العثمانية كلما قوي أمرها، كما سنعلم في الصفحات الآتية، ليزداد الخناق

على الدولة العثمانية من الداخل، إضافةً إلى الخناق المفروض عليها من الخارج والمتمثل في الحروب.

واتفق أن أسر التتر المسلمون في القرم في إحدى غاراتهم على الروس فتاة يهودية روسية بالغة الجمال تُدعى روكسلان، فأهدوها إلى الخليفة العثماني الذي ما لبث أن اتخذها زوجة له، فعكفت على التدخل في شئون الحكم، فطلبت من الخليفة أن يسمح لليهود الذين طُردوا من الأندلس مع المسلمين بالاستيطان في أرجاء الدولة العثمانية، والذين يطلق عليهم يهود الدونمة، والذين لم يحفظوا الجميل للعثمانيين بعد أن رفضهم العالم وضاقت بهم الأرض بما رحبت، فلم يجدوا إلا الدولة العثمانية تفتح لهم أحضانها، وتظلهم بظلها، وسيكون لهم دور رئيس فيما بعد في سقوط الخلافة العثمانية، كما سنعلم في الأحداث التالية.

وأقنعت الخليفة الضعيف أمام جمالها أن يمنع التتر في القرم من محاربة الروس، ولم تكتف روكسلان بذلك، بل اجتهدت لتولي ابنها من السلطان سليمان - الذي سمِّي بسليم - الخلافة بعد أبيه رغم وجود أخيه الأكبر مصطفى، وهو القائد العظيم الذي حظي بحب الجيش والشعب له، فقامت بعمل دسيسة نفذها الصدر الأعظم رستم باشا وهو المعيّن بواسطتها وهو في نفس الوقت زوج ابنتها من السلطان، فحرّض رستم باشا الخليفة ضد ابنه، وكتب إليه يحذره أن ابنه مصطفى يريد عزله وتنصيب نفسه على السلطنة فخرج إليه الخليفة، وكان مصطفى يحارب الدولة الصفوية فاستدعاه أبوه إلى خيمته، فما إن جاء ابنه حتى انقض عليه بعض الخدم فخنقوه، ولم تكتف الأفعى روكسلان بقتل مصطفى فأرسلت من يقتل ابنه الرضيع.

ثم توفي الخليفة سليمان عام 974هـ، وتولى بعده ابن روكسلان الخليفة سليم الثاني.

■ الخليفة سليم الثاني..

وفي عصره صار الصدر الأعظم هو صاحب السلطة التنفيذية. وكان بمثابة رئيس للوزراء وقائد للجيوش، وكان من أسباب اللجوء إلى هذه الوظيفة كبر رقعة الدولة واتساعها، وتدفق الأموال على خزائنها، مما جعل الحكام بعد ذلك يلجأون للترف والراحة تاركين للصدر الأعظم تحمل المسئولية.

وكان هذا الخليفة الذي ارتقى مسند خلافة العثمانيين بالخيانة التي حاكتها أمه اليهودية روكسلان ضعيفًا خاملًا. ولولا وجود الصدر الأعظم محمد باشا الصقلي لانهارت في خلافته دولة بني عثمان.

واستطاع العثمانيون في عهده بعد طول عناء طرد الإسبان من تونس وجعلها ولاية عثمانية عام 981هـ، وكان قائد التحرير فيها هو سنان باشا والي مصر.

واستطاع محمد باشا الصقلي أن يعقد صلحًا مع النمسا ينص على اعتراف الدولة بحماية النمسا على بعض الأجزاء في المجر، وفي مقابل ذلك تدفع النمسا جزية سنوية، وتعترف في نفس الوقت بتبعية ترانسلفانيا والأفلاق والبغدان للعثمانيين.

أكد الخليفة تأييده للمعاهدات والامتيازات المبرمة مع فرنسا، ولكن في نفس الوقت ساعد ذلك على تدفق الإرساليات الكاثوليكية في أنحاء الدولة العثمانية وبالذات في بلاد الشام وبدأ العمل ضد الدولة العثمانية بضربها داخليًّا عن طريق زرع الانتماء إلى فرنسا وأوروبا.

واستطاعت الدولة العثمانية انتزاع قبرص من أيدي البنادقة الذين كانوا يحتلونها، وبعد ازدياد الخطر العثماني في البحر المتوسط على أوروبا، وخصوصًا بعد انتزاعهم جزيرة قبرص، وبعض المواقع على بحر الأدرياتيك، وهجومهم على جزيرة كريت، اتحدت أساطيل البندقية مع إسبانيا مع رهبان جزيرة مالطة

تحت مباركة البابا، واصطدمت هذه الأساطيل بالأسطول العثماني عام 979هـ في موقعة ليبانت البحرية وانهزم الأسطول العثماني وفقدَ في هذه المعركة 130 سفينة و300 مدفع وسقط منه30 ألف أسير.

وكان لهذا الانتصار البحري دويّه الشديد في أوروبا، فخطب البابا في الفاتيكان يشكر دون جوان قائد الأساطيل المظفرة. وما إن وصلت أخبار الهزيمة إلى إستانبول إلا وثار السكان المسلمون، يريدون أن يفتكوا بالمسيحيين لولا أن تصدى لهم بحسم الصدر الأعظم محمد باشا الصقلي، وأخذت الدولة تعد أسطولًا جديدًا للأخذ بالثأر، فخافت البندقية فعرضت الصلح على العثمانيين مقابل اعترافها بسيادة العثمانيين على قبرص، ودفع غرامة حربية كبيرة، وتم ذلك عام 980هـ.

وكان سليم الثاني بعيدًا عن هذه الأحداث مترفًا، حتى إن كثيرًا من الروايات تحكي أن سبب وفاته كان إفراطه في شرب الخمر الذي انتشر في عهده. في حين تقول الروايات الأخرى إن الموت أدركه بعد سقوطه بالحمّام عام 982 هـ.

■ الخليفة سليم الثالث..

بمجرد توليه الحكم أصدر الخليفة العثماني أمرًا يدل على ورعه وتقواه، كان هذا الأمر هو قتل إخوته الخمسة ! مبررًا ذلك بإغلاقه باب الفتن مخافة أن يخرج عليه أحدهم وينازعه العرش. وفي المقابل وجد مراد الثالث أن الخمر قد استفحلت أيام أبيه، وضاعت معها هيبة الإنكشارية والجند. فأصدر قرارًا بمنعه فثارت الإنكشارية وأجبروه على إلغاء هذا القرار.

وبادر لتجديد الامتيازات لفرنسا والبندقية وأعطى سفير فرنسا مكانة خاصة، حيث يتقدم باقي السفراء في المحافل الرسمية، وأجبرت السفن الأوروبية التي تدخل الموانئ العثمانية أن ترفع علم فرنسا، باستثناء البندقية، ثم استُثنيت إنجلترا أيضًا في عهده. وأتخم دفتر الامتيازات في عهده بصفحات جديدة تدل على الوهن الذي بدء ينتشر في أوصال الدولة.

استنجد سلطان مراكش بالعثمانيين لإخماد ثورة اندلعت في بلاده، واستعان قائدها بالبرتغاليين، فلبى العثمانيون النداء، واصطدموا مع البرتغاليين في موقعة القصر الكبير عام 985هـ، وتحقق النصر للعثمانيين فأعادوا السلطان إلى الحكم.

استغل العثمانيون الاختلاف على تولية حاكم للدولة الصفوية بعد موت الشاه طهماسب، فسارعوا وضموا إليهم من أملاكها جورجيا ثم أذربيجان الشمالية ثم بلاد داغستان.

نظرًا لتوقف الحروب سواء في أوروبا أو مع الصفويين لم تجد الإنكشارية عملًا لها إلا السلب والنهب في المدن العثمانية، فأراد الصدر الأعظم أن يشغلهم بالحروب مع النمسا في المجر، ونظرًا لما وصل إليه الإنكشارية من فوضى توالت عليهم الهزائم، وفقدوا بعض القلاع، واستطاع سنان باشا أن يستردها بعد ذلك.

واستغل أمراء الأفلاق والبغدان وترانسلفانيا الموقف، وانضموا إلى النمسا في حروبها ضد العثمانيين، فدخل سنان باشا عاصمة الأفلاق بوخارست، إلا أن أميرها استطاع أن يجعل الجيوش العثمانية تتقهقر إلى ما بعد نهر الدانوب، وانتزع منهم عدة مدن.

وفي هذه الأجواء المضطربة تسلل اليهود إلى سيناء لاستيطانها. وكان مقصدهم مدينة الطور لموقعها المتميز على خطوط المواصلات البرية والبحرية. وكان المنظم لحركتهم رجل يهودي يدعى إبرهام، وحدثت بين اليهود ورهبان دير سانت كاترين مشاحنات عديدة انتهت بارسال الرهبان شكاوى مكتوبة إلى الباب العالي. فبادر مراد الثالث لإصدار فرمانات ثلاثة أخرج بها كل اليهود من سيناء. ومنعهم من العودة إليها في قابل الأيام..

وتوفي الخليفة مراد الثالث في العام نفسه 1003هـ، وتولى ابنه محمد الثالث. وكانت أمه إيطالية الأصل وتعرضت الدولة في عهده لاضطرابات عديدة. وجاء بعده ولده السلطان أحمد الأول وكان عمره أربعة عشر عامًا. واستمرت حالة الاضطراب تضرب الدولة العثمانية. وهكذا توالى على حكم الدولة سلاطين من بني عثمان ليس لهم من السلطة إلا الاسم فقط. وخرجت كثيرٌ من أقاليم الدولة عن سلطتهم. وبدأ العثمانيون ينسحبون من أوروبا تدريجيًا ويدخلون في عصر التفكك والاضمحلال السريع. وتدخلت الإنكشارية في كل شيء وعاثوا في البلاد فسادًا.

لم تنته سطوة الإنكشارية إلا في عهد السلطان محمود الثاني الذي حكم في الفترة من 1808 م حتى 1839 م حيث استعان بفرق المدفعية الحديثة واستعد للقضاء على فرق الانكشارية. وفي صباح يوم (9 من ذي القعدة 1240هـ/ 15 من يونيو 1886م) خرجت قوات السلطان إلى ميدان الخيل بإستانبول وكانت تطل عليه ثكنات الإنكشارية، ولم يمض وقت طويل حتى أحاط رجال المدفعية الميدان، وسلطوا مدافعهم على الإنكشارية من كل الجهات، فحصدتهم

حصدًا، بعد أن عجزوا عن المقاومة، وسقط منهم ستة آلاف جندي إنكشاري. وفي اليوم الثاني من هذه المعركة التي سميت بـ(الواقعة الخيرية) أصدر السلطان محمود الثاني قرارًا بإلغاء الفيالق الإنكشارية إلغاءً تامًّا، شمل تنظيماتهم العسكرية وأسماء فيالقهم وشاراتهم، وانتهى بذلك تاريخ هذه الفرقة التي كانت في بدء أمرها شوكة في حلوق أعداء الدولة العثمانية. كما استبدل بالعمامة الطربوش الرومي وتزيا بالزي الأوروبي. وألزم به كل موظفي الدولة العثمانية.

واستمرت الدولة العثمانية في سيرها الحثيث نحو الاضمحلال رغم محاولات يائسة لتأخير هذا المصير. فقد كانت مفاصل الدولة قد تهالكت وصار من الصعب أن تقوم لها قائمة. وتوالى على مسند الحكم فيها سلاطين خاملو الشأن وإن صحت نوايا بعضهم، حتى وصل الأمر إلى قرب محطة النهاية.

وجاء السلطان عبد الحميد وبدأت سطور نهاية الدولة العثمانية.

والحق أن عبد الحميد كان علامة هامة في تاريخ الدولة العثمانية، حيث استطاعت شخصية عبدالحميد القوية أن تجمد الدعوة إلى القوميات المختلفة التي تضمها الدولة والتي استشرت بصورة مزقت دولة بني عثمان. وكان سلاحه لذلك رفع شعار (يا مسلمي العالم اتحدوا). وكانت الأجواء الدولية تستعد لالتهام الدول الإسلامية الواهنة القوى وتقسيمها. وفي نهاية القرن التاسع عشر عقد المؤتمر الصهيوني في بازل سنة 1897، وقرروا إنشاء وطن لليهود في فلسطين. وزار هرتزل زعيم الحركة الصهيونية السلطان عبدالحميد مرتين وعرض عليه مبالغ طائلة وكذا مساعدته في إنشاء أسطول عثماني والدفاع عن سياسته في أوروبا وأمريكا وسداد كثير من ديون الدولة العثمانية، كل ذلك مقابل السماح لليهود بوطن في فلسطين. وكان جواب السلطان عبدالحميد قاطعًا بأن: (قطع عضو من أعضائي أهون علي من أن تقطع فلسطين من الدولة العثمانية). وظهر من عرض هرتزل أن أوروبا تساندة وأنها قررت العمل سريعًا على حل مشكلاتها مع الجاليات اليهودية على حساب الدولة العثمانية المريضة.

كما بدأت في نفس الوقت دعوة لإحياء القومية العربية وعقد في سبيل ذلك مؤتمر باريس سنة 1913م الذي يكاد كثير من كتاب القومية العربية يعتبرونه أساسا للقومية الحديثة، وكانت أهم مطالبهم جعل اللغة العربية لغة رسمية في البلاد العربية. واضطرت الحكومة لأول مرة إلى أن تفاوضهم وترضيهم بإدخال 3 وزراء عرب وخمسة من الولاة العرب كذلك في سلك الدولة.

كما كانت هناك عوامل هامة كان لها أثر كبير في تأجيج نار القومية العربية في الربع الأول من القرن العشرين، ومن أهم هذه العوامل بروز جمعية الاتحاد والترقي وسطوتها على السلطان عبد الحميد بفرض عملية التتريك على جميع المحافظات العربية وغيرها. ففرضت التركية في الدواوين والمدارس والمناهج. وبدأت عملية التتريك كذلك في أجهزة الدولة، وقد ظهر هذا واضحا في انتخابات مجلس النواب الذي انتخب على أثر إعلان الدستور سنة 1908، فأشرفت جمعية الاتحاد والترقي على الانتخابات لتكون النتيجة في جانب الجنس التركي، فكانت النتيجة أن نجح 150 من الأتراك و60 من العرب بينما العرب متفوقون في عدد السكان بنسبة 5 : 2.

ولم يكن أمام العرب وقتها إلا إنشاء الجمعيات السرية والعلنية التي تنادي بالقومية العربية وتنادي بفصل الدول العربية عن الأتراك ولو على الأقل إدراك الحكم الذاتي في داخل الدولة العثمانية. وأن يكون للعرب حق إدارة أمورهم الداخلية من تعليم واقتصاد وثقافة، وكذا مشاركة الدولة العثمانية في الأمور الخارجية كالدفاع وغيرها.

كان العرب يبحثون عن أي مخرج يحقق لهم مطالبهم، واتصل زعماؤهم بفرنسا. مما جعل الوالي العثماني جمال باشا على الشام يقتحم السفارة الفرنسية في كل من بيروت ودمشق ويضبط وثائق فيها تثبت اتصال قادة التنظيمات والجمعيات العربية بفرنسا وتنادي بانفصال سوريا عن العثمانيين، إلا أن جمال باشا أراد تهدئة لخواطر العرب وكسب لهم أن يغض الطرف عن القضية؛ طمعًا

في وقوف العرب بجانب تركيا في الحرب.. ولكن بعدما أحس جمال باشا بنية الشريف حسين شريف مكة والحجاز بدخول الحرب ضد تركيا وإلى جانب بريطانيا استشاط جمال باشا غضبًا وأمر بإعدام 11 شخصية عربية بعد المحاكمة العسكرية في عاليه. وبالفعل شنق 21 شخصية عربية أخرى منهم عبدالحميد الزهراوي (رئيس مؤتمر باريس وعضو مجلس الأعيان التركي) وسليم الجزائري مساعد عزيز باشا المصري في الجمعية القحطانية.

ولقد أحدثت هذه الإعدامات هزة عنيفة في العالم العربي، ولقد نفذ جمال باشا الإعدام بعد توسط الشريف حسين وابنه فيصل إلّا أنه لم يصغ إليهما. وقد كان الأمير فيصل بن الحسين آنذاك في دمشق فرمى كوفيته على الأرض وداسها وقال كلمته الشهيرة: (طاب الموت يا عرب).

والجدير بالذكر أن الشريف حسين عاش في تركيا ستة عشر عاما إذ كان السلطان عبدالحميد يخشى منه ويعلم أن له ميولًا للسلطة ويملك تحريك الشارع العربي، وبعد إعلان الدستور سنة 1908 اختارته جمعية الاتحاد والترقي ليكون أميرا لمكة وعارض عبدالحميد في هذا التعيين.

وقد كان الشريف حسين يتلمس الفرصة للتخلص من الحكم التركي والثورة عليه وإعلان نفسه سلطانًا على العرب خصوصًا أنه أحسّ أن الاتحاديين يريدون التخلص منه. وكان ولده عبدالله بن الحسين آنذاك نائبا في البرلمان التركي وقد اتصل بكتشنر المعتمد البريطاني في مصر وروناالدستورز المستشار الشرقي في دارالاعتماد البريطاني. وأطلعه على النفور الشديد بين أبيه والأتراك وسأله عن إمكانية وقوف بريطانيا بجانب الشريف فيما إذا أعلن الشريف الحرب على تركيا إلّا أنه لم يلق أي تشجيع منهما وقال كتشنر: «ليس من المحتمل أن تقف بريطانيا بجانب أبيك».

ونشبت الحرب الكبرى في سنة 1914 وكان عبدالله متحمسًا لإعلان الحرب على تركيا، بينما كان الأمير فيصل بن الحسين يرى الوقوف معها. وفي تلك الفترة

زار فيصل دمشق وإستانبول، وفي دمشق انضم إلى جمعية العربية الفتاة. وتغيرت نظرته قبل الدولة التركية تماما وصار مثل أخيه عبد الله مؤيدًا للثورة عليها. وعليه أعلن والده الشريف الحسين الحرب على تركيا من جانب قبر سيدنا حمزة بن عبدالمطلب بالمدينة بعد أن استجابت بريطانيا له ووعدته باستقلال بلاد العرب وبتتويجه ملكا عليها، وكان كتشنر قد أصبح وزيرا للحربية البريطانية وتسلّم مكماهون معتمدا لبريطانيا في مصر، وحدثت المكاتبات المعروفة الحسين - مكماهون.

واندفع الشريف حسين بكل طاقته يؤجج نارالحمية العربية ضد الأتراك. وبالفعل هُزم الأتراك. وحصلت اتفاقية سايكس بيكو لتقسيم البلاد العربية بين بريطانيا وفرنسا وأعطيت فلسطين لليهود بوعد بلفور وكان الجزاء الجميل للشريف حسين أن نفته بريطانيا ست سنوات وسلبت ملكه، ولقد كانت الصدمة عنيفة لأعصاب الشريف حتى داهمه المرض وذاب جسده حسرة وألمًا، وكان يصب جام غضبه طيلة حياته على مكماهون ولويد جورج - الوزير البريطاني المعروف.

ولقد حذر بعض الصادقين العقلاء الشريف حسين من مغبة غدر الإنجليز ومن هذه الفاجعة المتوقعة، فقد كتب شكيب أرسلان إلى الشريف عندما بلغه عزم الشريف على غزو سوريا ضمن جيوش الحلفاء قائلًا: «أتقاتل العرب بالعرب أيها الأمير، حتى تكون ثمرة دماء قاتلهم ومقتولهم استيلاء إنجلترا على جزيرة العرب وفرنسا على سوريا واليهود على فلسطين؟».

وفي هذا المقام، يقول لورنس في أعمدة الحكمة السبعة: (لقد كنت أعلم أننا إذا كسبنا الحرب فإن عهودنا للعرب ستصبح أوراقًا ميتة ولو كنت ناصحا شريفا للعرب لنصحتهم بالعودة إلى بيوتهم. لقد كان قادة الحركة العربية يفهمون السياسة الخارجية فهمًا عشائريًا بدويًا وكان البريطانيون والفرنسيون يقومون بمناورات جريئة اعتمادًا على سذاجة العرب وضعفهم وبساطة قلوبهم

وتفكيرهم ولهم ثقة بالعدو.. إنني أكثر ما أكون فخرًا أن الدم الإنجليزي لم يسفك في المعارك الثلاثين التي خضتها لأن جميع الأقطار الخاضعة لنا لم تكن تساوي في نظري موت إنجليزي واحد). ويقول اليهودي وايزمان (لقد قدم لنا لورنس خدمات جليلة). هذا هو لورنس الذي كانوا يسمونه ملك العرب غير المتوج.. وأمجاد يا عرب أمجاد.

وسرعان ما استعاد ملوك أوروبا دول البلقان النمسا والمجر والبوسنة والهرسك وبلغاريا. واستولت إيطاليا على ليبيا في خريف سنة 1911، ثم نشبت الحرب العالمية الأولى سريعًا.

وجاء أنور باشا على موعد مع القدر ليخطّ بسياسته نهاية الدولة العثمانية وكان يشغل منصب وزير الحربية. ورغم ما كانت عليه الدولة من حالة الإنهاك المروعة فانه جر البلاد إلى أتون الحرب العالمية الأولى المستعر، وقام بفرض الأمر الواقع على كل من عارضه، وكان القرض المالي الذي عرضته ألمانيا على العثمانيين والمقدر بـ(5 ملايين ليرة ذهبية) من الأشياء التي شجعت المعارضين على الرضوخ للحرب.

وفي البداية، أرادت الدولة أن تساوم الحلفاء في دخول الحرب، فقدمت لهم مذكرة مقابل حيادها تمثلت في إلغاء الامتيازات الأجنبية وخروج الإنجليز من مصر وضم جزر بحر إيجة للعثمانيين، ومنع روسيا من التدخل في شئون العثمانيين، فلم يرد الحلفاء على شروطها، هنا دخلت الدولة العثمانية الحرب، التي كانت بمنزلة القشة التي قصمت ظهر البعير، وكان القتال على أربع (4) جبهات هي:

1 – **جبهة شرقية**: حاول فيها أنور باشا بنفسه اجتياح روسيا من الشرق في الشتاء القارس، ولكنه مُني بالفشل الذريع واضطر إلى الانسحاب.

2 – **جبهة قناة السويس**: سارت القوات العثمانية في سيناء متجهة إلى قناة السويس، وقاموا بالهجوم قبل الموعد المحدد مع المصريين الذين اتفقوا

معهم على حرب الإنجليز، وفشل هذا الهجوم الذي أتبعه هجومان آخران بقيادة الألمان ولكنهما فشلا أيضًا.

3 - **جبهة عدن**: حاول فيها العثمانيون طرد الإنجليز من عدن ولكنهم فشلوا، وساعد الإدريسي حاكم اليمن الإنجليز في عسير على العثمانيين.

4 - **جبهة الدردنيل**: حصّن العثمانيون مضيق **الدردنيل** حتى يعجز الأعداء عن الوصول إلى إستانبول، وبدأ الإنجليز في هجومهم على الدولة العثمانية واستطاعوا دخول فلسطين، وعندما وصل القائد الإنجليزي اللنبي إلى القدس قال عبارته المشهورة: «الآن تنتهي الحروب الصليبية». واستطاع الفرنسيون احتلال سوريا.

وتوالت الهزائم على العثمانيين بشكل مروع، استطاع الحلفاء أن يحتلوا إستانبول لتسقط لأول مرة منذ فتحها السلطان الغازي محمد الفاتح. واحتلت **إيطاليا** جزءًا من جنوب **الأناضول**، بينما احتلت **اليونان** القسم الغربي من **الأناضول**، بالإضافة إلى تراقيا فاستسلمت الدولة العثمانية.

وفي هذا الوقت الذي تولى فيه الخليفة محمد السادس قرب إليه مصطفى كمال أتاتورك، الذي كان يرافقه في رحلته إلى برلين عندما كان وليًّا للعهد، وكان مصطفى كمال قد بدأ يعمل لنفسه فرفض الخليفة أن يكون صورة كمن سبقه، فتنازل عن الخلافة لعبد المجيد الثاني.

وعقد مؤتمر لوزان سنة 1341هـ بعد ثلاثة أيام من تولي عبد المجيد الثاني الخلافة، حضره ممثلون من حكومة أنقرة، و وضع فيه شروطًا للاعتراف باستقلال تركيا عُرفت بشروط كرزون الأربعة وكان أهمها إلغاء الخلافة العثمانية.

وانتهت بذلك خلافة بني عثمان بعد قرون من الزمان وجاء أتاتورك...

■ وجاء أتاتورك..

ولدت الجمهورية التركية على يد مصطفى أتاتورك الملقب بأبو الأتراك في مارس 1923 م، وكان أتاتورك أحد أبرز أبطال الجيش العثماني في الحرب ضد إيطاليا إبان غزوها لليبيا، وقاتل بشجاعة ضد الإنزال البريطاني الشهير في غاليبولي في بواكير الحرب العالمية الأولى، وله دور ملموس في قيادة قوة الدفاع ضد القوات الإنجليزية في فلسطين، والمشهود له أنه دافع دفاع الأبطال وكان آخر الضباط المنسحبين من فلسطين عام 1917، وترك الخدمة العسكرية ليقود المقاومة التركية الشعبية ضد القوات اليونانية المدعومة من محور فرنسا - بريطانيا التي احتلت منطقة أزمير عام 1919، واستطاع بحرفية عسكرية عالية ودهاء سياسي كبير أن يجمع فلول الجيش العثماني والقبائل التركية وعددًا من علماء الدين ليقود حرب استقلال باسلة، وكان الرجل في قلب المعركة في الوقت الذي كان السلطان العثماني المنبطح ألعوبة في يد السفارات الغربية في إستانبول وعلى رأسها السفارة البريطانية. وبعد تحقيقه عددًا من الانتصارات الميدانية على جبهة القتال في أزمير صدح أتاتورك بتحديه للسلطان العثماني وتأسيسه لهيئة برلمانية تحت اسم المجلس الوطني الكبير، وبعد أن استطاع أتاتورك تطهير أزمير والمناطق المحيطة من الوجود اليوناني صار زعيما شعبيا ومحبوبًا لغالبية الأتراك، فتشجع لأخذ الخطوة التالية التي تعد في حقيقتها نقلة حاسمة على رقعة شطرنج الحياة السياسية التركية، بل وتغييرًا لشكل التاريخ الحديث وذلك بإلغائه السلطنة العثمانية والإبقاء شكليًا على مؤسسة الخلافة، ثم سرعان ما أصبحت تركيا جمهورية، واختيرت أنقرة بدلًا من إستانبول كعاصمة للجمهورية التركية الوليدة.

ثم اندفع أتاتورك لتبنى النموذج الغربي بعد أن استقر على أن التراث العثماني صار قيدًا ثقيلًا يكبل نهوض تركيا الجديدة. وبعد قليل أُلغيت الخلافة الإسلامية ومعها منصب شيخ الإسلام ولبست تركيا ثوبًا علمانيًا جديدًا قبض فيه أتاتورك بيد من حديد على مقاليد الأمور، وصار منقذًا للأمة التركية وأبًا للأتراك.

وتـلا ذلك الأمر إلغاء التكايا والطرق الصوفية وأظهرها الطريقة النقشبندية والبكتشية، بل وتم تغيير أبجدية الحروف التركية من العربية إلى اللاتينية.

وفي النهايـة مضى أتاتورك إلى ربه عام 1938 بعد أن غير تاريخ المنطقة وليس تركيـا فقـط ؛ وتولى رفيق دربـه وكفاحه عصمت أينونو رئاسـة تركيـا، وقد ظن الغالبية أن الإسلام السياسي قد انتهى في تركيا إلى الأبد.. لكن الواقع كان يحمل منحى آخر. فقد اسـتمرت حركة تنشـيط الولاء للموروث الإسلامي عن طريق الطـرق الصوفيـة، وكان عـماد ذلك رسـائل بديع الزمـان النـورسي. وقد كانت الصـورة غارقـة في المفارقة، فبينـما كانت الإذاعـة التركية تبث الموسـيقى الغربية الحديثـة صباحًـا، كان كثـيرٌ من الأتـراك وخصوصًا البسـطاء يتمايلـون ليلًا على مدائح الصوفية وأهازيج البردة النبوية.

وسرعـان ما عـادت وزحفت الثقافة الإسـلامية بثوبها العثـماني بعدما أيقنت النخبـة التركية نفسـها أنه من المسـتحيل تصور وجود أمـة تركية من دون ميراث الدولـة العثمانيـة.. ثم حـدث التحول السريع الصـادم للفكر العلـماني عندما تم السـماح بعد الحرب العالمية الثانية بتأسـيس الأحزاب السياسـية، وقام السـياسي الليبرالي الذي يحترم الموروث الإسلامي العثماني عدنان مندريس بتأسيس الحزب الديمقراطـي، والـذي فاجأ الجميع ووعد في أول انتخابـات خاضها بالترخيص مرة أخرى للطرق الصوفية وعودة الأذان باللغة العربية، والسماح ببناء المساجد، ورفع القيود عن ممارسة الشعائر الدينية وارتداء الحجاب.. وعلى أساس من هذا البرنامج المثير للجدل العنيف اكتسـح حـزب مندريس الانتخابات ففاز بـ 420 مقعـدا مقابـل 61 مقعـدًا لحزب أتاتـورك، وتكرر هـذا الاكتسـاح في انتخابات 1954 و1957 و1960. وحينها اشـتد الصراع على هويـة تـركيا، ولم يعد أمام الجيش التركـي القوي إلا أن يتدخل بعد تزايد الحـوادث والصدامات، وانتـهى الأمـر بإعدام مندريس. ودخل الإسـلام السـياسي مرة أخـرى في حالة كمون.. يتحين فيه الفرصة لمعاودة إنتاج نفسـه والظهور على سـاحة الأحداث السياسـية مرة أخرى..

■ وجـــاء أربـــكان..

شـهدت الساحة السياسية التـركية في عام 1970 دخول سياسي شاب تلقى تعليمه في ألمانيا هو نجـم الديـن أربكان، الذي أعلن عن تأسيس حزب إسـلامي النزعة، أطلـق عليه حزب النظـام الوطنـي، وإذا كان عدنان مندريس ليبراليًا يحترم الإسـلام فقد أعلن أربكان منذ البداية ولاءه الكامل للإسـلام، ولم يكن من السهل أن يقف الجيش التركي مكتوف الأيدي قبل هذا الحزب الجديد الـذي كانـت مبادئـه صادمة للنخبة السـياسـية والقادة العسـكريين. فسـارع الجيش بمنع حزب أربكان وكذلك حزب العمال الماركسي من العمل السياسي، إلا أن أربكان الدؤوب لم يفتر حماسه ولم يُصِبْهُ اليأس لكنه عاد للحياة السـياسية مـن جديد بعد عامين بحـزب الإنقاذ الوطني، ولم يبالـغ هذه المرة بإظهار هويته الإسـلامية في وسـط شـديد التربص به، إلا أنه فاجأ الجميـع بحصوله على 49 مقعدًا في انتخابات البرلمـان، ويضطر بعدها بولنت إيجيفيت صاحـب الصدارة في ترتيـب الفائزيـن إلى التحالـف مـع أربـكان؛ ليتمكـن من تشـكيل الحكومة. واسـتطاع تحالف أربكان وإيجيفيت أن يحصد الرضا الشـعبي بجدارة بعد قـرار حكومتهـما بإرسـال الجيش التركي لحمايـة الأقلية التركية بقـبرص، إلا أن الرضا الـذي تحقـق بالآلـة العسـكرية سرعان مـا تبدد في خضـم الأزمـة الاقتصادية ووصـول نسـبة التضخم إلى المائـة في المائة وانهيار مذهل للـيرة التركية، ودخلت البلاد في أزمات متتالية وفوضى في كل مؤسساتها، وتزامن ذلك مع حدث مزلزل للمنطقة تمثل في انتصار الثورة الإسلامية بإيران، وتحولها لملهمة لعدد من تيارات الإسلام السياسي، وتشـجع أربكان ونظم مظاهرة حاشدة بقونية لنصرة القضية الفلسـطينية للمرة الأولى، واشـتد الاحتقـان في تركيا، وبعد مظاهرة قونية بسـتة أيام فقط أصبح لزامًا أن يحدث تغير في معادلة القوى السياسية، وهنا برز الجيش وأعلـن الجنـرال كنعان ايفرين قائد الجيش تولي السـلطة في البـلاد وحل البرلمان

وتعليق الدستور.. وكان هدفه الرئيس إنهـاء حالة الفوضى التي ضربت البلاد، وبـدأ في إجراءات عاجلـة لتحقيق ذلك.. ناهيك بأن الحـرب الباردة التي كانت تركيا أهم محطاتها كانت تلزم أن يكون المشـهد السياسي بها منضبطًا قدر الإمكان لتحقيـق اسـتراتيجية دفـاع حلف الأطلسي والمعسـكر الغـربي في مواجهة حلف وارسو والمعسكر الشرقي..

واجتهـد كنعـان ايفرين في وضع دسـتور جديد يوصف بأنه الدسـتور الأكثر تفصيـلا بين دسـاتير العـالم. فلم يكد هذا الدسـتور يـترك شـاردة ولا واردة إلا أحصاهـا على غـير المفترض في صياغة الدسـاتير التـي تأتي بقواعـد عامة وتترك للقوانين التفصيل. وسمح الدستور الجديد بعودة الحياة السياسية بشكل تدريجي حَذِر، وبدأت شـمس زعيم قـوي في البزوغ وهو تورجوت أوزال الذي أسـس حـزب الوطـن الأم الذي اسـتطاع أن يحصل على الأغلبيـة في انتخابات 1987، وشـهدت السـاحة أيضًا عودة أربكان الذي أسـس حزب الرفاة الوطني ونافس معهـم السـياسي المخـضرم إيجيفيت عـلى رأس حزب اليسـار الوطنـي، وكذلك حزب الشعب الديمقراطي بزعامة إينونو.

ودخلـت تركيـا في عـصر من الازدهـار الاقتصـادي في حين شـهدت منطقة الأناضول التركية عودة لنشاط الإسلام السياسي.

وفي عـام 1989، تـرك الزعيم المحبوب أوزال رئاسـة الوزراء ليتولى رئاسـة الجمهورية، وفقدَ حزب الوطن الأم سـحره بمغادرة الرجل موقعه، وهنا عادت مرحلة عدم الاسـتقرار والصراعات السياسـية وانتخابات غير حاسـمة النتائج. حتـى جـاءت انتخابات 1995 م ليسـتطيع حـزب الرفاة الإسـلامي أن يحصل عـلى 158 مقعـدًا ليتصـدر الفائزيـن ويدخـل في تحالـف مع حـزب الوطن الأم بزعامة تشيلر، وفصل جديد شديد التشويق من صراع الإسلام السياسي وسعيه للتمكين في تركيا.

وانتهت الجولة الانتخابية عام 1989 بتحالف الرفاة والوطن الأم، ونص اتفاق هذا الحلف على أن يتولى أربكان رئاسة الحكومة أولًا لمدة عامين، ثم يخلي مقعده لزعيمة حزب الوطن الأم تشيلر. واستمرت سنوات الحلف الأربع شديدة التوتر بين فصيلين لا يوجد بينهم قواسم مشتركة يؤسس عليها تحالف حقيقي. وسرعان ما مرت الأيام ليصعد نجم الدين أربكان منفردًا بعد انتخابات 1996 إلى مقعد رئاسة الوزراء للمرة الأولى بعد كفاح لما يزيد على ربع قرن، وقد أحدثت سياسات وزارته الاقتصادية بعض الرواج، إلا أن السياسات الخارجية لأربكان كانت هي المدوية، فقد اتبع أربكان سياسة إسلامية بصبغة عثمانية، وانطلق يصدح بمشروعه الحالم بتأسيس تكتل إسلامي مشابه للاتحاد الأوروبي، ولم يلقَ مشروع أربكان الإسلامي نجاحا في الداخل التركي كما توقع نظرًا لان الأتراك وقتها كانوا في أوج نزاعاتهم الثقافية حول بوصلة الهوية التركية من الولاء للإسلام العثماني أو الانخراط في الاتحاد الأوروبي، الذي بدوره تعامل بتوجس شديد مع تركيا. هذا التوجس وعدم الترحاب أعطى دفعة شعبية قوية لمشروع أربكان الإسلامي الدولي، وبدأ أربكان يسطر إبعاد مشهد الأمن القومي التركي الجديد من البلقان للصين الغربية، معتبرًا أن دول الجوار العربي هي المجال الحيوي التركي، ومن هنا بدأت أول معالم المشروع التركي الراغب في أن يتخذ من الأمة العربية ظهيرًا وداعمًا لمشروع تركيا الحديثة، وكان لابد أن تتوغل تركيا في الشأن العربي ولم تجد بابًا أوسع من باب القضية الفلسطينية. ولم يقف الجيش التركي مكتوف الأيدي أمام مشروع أربكان فسارع القادة العسكريون في توجيه النقد العلني له، ومطالبته بتقديم فروض الولاء لرموز النظام العلماني ومبادئه لإظهاره أمام أنصاره المفتونين به في مظهر الزعيم الإسلامي الذي خضع للدولة العلمانية، حتى بدأ عدد من رموز مشروع أربكان في التساؤل عن جدوى الاحتفاظ بمنصب رئيس الوزراء أمام التخلي عن المبادئ والقناعات.

ولم يطل الأمر والجدال طويلا واضطر أربكان أخيرًا إلى التسليم والتنازل عن منصب رئيس الوزراء بعد أن أصبحت العلاقة بينه وبين قادة الجيش أصعب من

أن تستمر من دون صدام مروع، لذا آثر الانسحاب مؤقتًا حتى لا يصل الوضع إلى كارثة تعصف بالجميع.. وبعد عام واحد صدرت أحكام القضاء التركي شديد الولاء للمبادئ العلمانية بحظر حزب الرفاة الإسلامي ومنع رموزه وعلى رأسهم أربكان من العمل السياسي لانتهاكه مواثيق العمل العلمانية؛ لم يفت ذلك كثيرًا في عزيمة أربكان الذي لجأ إلى الحيلة التركية التقليدية وسارع بتأسيس حزب جديد هو حزب الفضيلة، إلا أن هذا الحزب نفسه سرعان ما تعرض للحظر بعد عامين من تأسيسه. وبدأ المفتونون بأربكان ينفضون من حوله شيئًا فشيئًا، خصوصًا مع ما أعتاده أربكان من السيطرة على مقاليد الأمور بشدة بشكل جعل منه ديكتاتورًا، وصيرَّه عبئًا على مريديه ودراويشه أكثر منه مصدر إلهام.. وساهم في ذلك تقدمه في العمر وانفصاله عقليًا عن جيل جديد من الإخوان الأتراك الذين يريدون تقديم صورة مختلفة عن توجهاتهم بما يسمح بإعادة سيطرتهم على مقاليد البلاد بعيدًا عن الصدام مع المؤسسة العسكرية الحارسة للمبادئ العلمانية التركية..

وفي عام 2000 م، بدأ نجم القيادي الشاب رجب طيب أردوغان في البزوغ، وصارت مساحة سيطرته على مقاليد الأمور في حزب الفضيلة تتسع وتزيد يومًا بعد يوم، وبحث أردوغان بمرونة وحيوية الشباب كيفية الخلاص من ميراث العداء بين الجيش التركي ومنتسبي الإسلام السياسي.

وبمجرد حَظْر حزب الفضيلة سارع أردوغان لتأسيس حزب جديد هو وعبدالله جول تحت اسم حزب العدالة والتنمية. واستطاع تقديم نفسه كرجل للبناء على خلفية رئاسته لبلدية إسطنبول لمدة ست سنوات حقق فيها نقلة نوعية لمظاهر الحياة هناك. كما استطاع الرجل ورفاقه الوصول إلى صيغة توافقية بين هويتهم الإسلامية والتراث الأتاتوركي العلماني، بعيدًا عن تشدد أربكان وحساباته المحدودة الجامدة. واستطاع أن يقود سفينة الحزب القَلق الهوية بين الأتاتوركية والإسلام بمهارة فائقة ليحقق فوزًا ساحقًا على الأحزاب العلمانية في انتخابات 2002. وسارع الرجل الخُطى نحو التقارب مع أوروبا، وفي الطريق استطاع إقناع أمريكا بالخلطة السحرية الجديدة، وقوامها اعتماد النموذج

الأوردغانـى للتوجه العلماني الإسـلامي كنموذج يمكـن أن يعمم في العديد من البـلاد الإسـلامية الأخرى. وهو ما أسـهم في تدخل أمريـكا بصلاتها القوية لمنع الجيـش التركـي وقادتـه من توجيـه ضربـة لأردوغان وحزبـه كما هـي العادة في السياسـة التركية.. وكادت أن تحدث أزمـة مع الحليف الأمريكي عندما اعترض البرلمـان التركـي صاحـب الأغلبيـة الإسـلامية على السـماح للقـوات الأمريكية باستخدام الأراضي التركيـة في غزو العـراق. لكن أردوغان اسـتطاع بقدر كبير مـن المهـارة عبور الأزمة مع حلفائـه الأمريكان عن طريق الـسـماح لهم بتحريك إمدادات لوجيستية عبر الأراضي التركية. كما أن أمريكا استطاعت الحصول على ما تشاء من تسهيلات وقواعد في الخليج خصوصًا قاعدة (العـديـد) بقطر.

واسـتكمل أردوغان نسج خيوط الصداقة والولاء للأمريكان بتحول حميمي قبـل الكيان الصهيـوني، حيث أسرع الخطى لتوثيق عـرى التحالف معه، والتقى مع السـفاح المقبور شارون وأعلن توسطه للوسـاطة مع الفلسطينيين. في الوقت الذي كان أهلنا بفلسطين يتعرضون لوابل من القصف العنيف والملاحقة المروعة من آلة الحرب الإسرائيلية. وروّج أردوغان لنفسه في العالم العربي - الباحث عن زعيم حتى ولو من خارجه - أن وسـاطته مـع الدولة العبرية هدفها فتح الطريق لمسـاعدة الفلسـطينيين وكسر الحصار المفروض عليهم من سـنين، بل وتكشفت الصـورة أكثر بوسـاطة تركيـا بين باكسـتان الدولـة النووية الإسـلامية والكيان الصهيـوني، ليتضـح بجـلاء دور أردوغـان كعـراب للأمريكان في تنفيذ سياسـة الشرق الأوسـط الجديد. وجاء الثمن لجهود الرجـل الحثيثة سريعًا بقبول مبدئي طال انتظاره لعضوية تركيا في الاتحاد الأوروبي، لينطلق بعدها مارثون طويل من المفاوضات حول هذه العضوية المثيرة للجدال في معظم دول الاتحاد الأوروبي.

ومـا لبـث أن جـاء صمـود مقاتلي حـزب الله في معركـة الوعد الصـادق أمام الهجمة الصهيونية على لبنان ليشكل إرباكًا شديدًا لسياسة أردوغان، الذي أحس أن بسـاط الزعامـة على العـالم العربي يكاد أن ينازعه فيه السـيد حسـن نصر الله، فعمل سريعًا على رفع لغة الرفض بميزان حسـاس لسياسـات الكيان الصهيوني.

وتعليق لبعض أوجه التعاون غير المؤثرة مع سفاحيه. ثم كانت عملية الرصاص المصبوب التي شنتها إسرائيل على غزة وما تبعها من تسيير سفن تركية لكسر الحصار إيذانًا بحالة من الجمود والفتور المؤقت. وإن ظل في حدود المسموح والمقبول من الإدارة الأمريكية راعية الحلف غير المقدس بين الصهاينة والإخوة الأتراك.

الخليفة أردوغان ورعيتهُ الإخـوان

ومـع مرور الوقـت والزمان تطـورت حالة السـلطان أردوغان وقـد أصابته عدوى عشيرته الإخوان، يريد الرجل أن يستقر له الـُمقام، يظن أنه بعد أن تمطى وصـار في يـده الزمام يملك أن يغير نظام تركيا. يسـعي حثيثًـا ليحولها من حكم برلماني إلى رئاسي. يسـتهدف تعديلًا دسـتوريًا يتيح له فترتي حكم بطريقة أخرى. يمـن عـلى الأتراك ما أحدثـه من تطور اقتصـادي، وهو بهذا يغامر بهـذا الإنجاز مغامرة قد تكون فيها نهاية الرجل. تركيا تغلي وتمور بصراعات أيديولوجية مُرة. صراع تتناحـر فيـه الهويات، لم تسـتطع تركيا بعـد ما يزيد على عشر سـنوات من التقدم الاقتصادي أن تدفـن هذه الخلافات العابرة للقرون والقارات. والغريب أن الذي أشعل النار ويحار اليوم في أن يطفئها كان هو نفسه السلطان أردوغان.

الرجل منذ مجيئه إلى سدة الحكم تلبسته شخصية السلطان العثماني، ثم أعجبته اللعبة فصار يرى نفسـه يسـتحق عن جدارة أن يكون خليفة للمسـلمين لا مجرد سـلطان عليهم، ولكنه حتى لا تسـحقه عجلة التاريخ راح يروج لنفسـه بوجوه عدة ترضي جميع السـادة، ففي أوروبا يروج لنفسـه بأنه الطبعة العصرية للإسلام السـياسي المسالم الذي تستطيع أوروبا أن تـأمن جانبه، بل تمتطي أحلامه التي لن تتعارض يومًا مع أوروبا الموحدة، وفي نفس الوقت يسـارع السـلطان وقد أخفى

عمامته وتسربل بثياب العسكرية الأتاتوركية الأنيقة لـيُقدم للشيطان الأكبر أمريكا وربيبتها إسرائيل أوراق اعتماده شرطيًّا للمنطقة، ورجل إطفاء لحرائق الشرق الأوسط المستعرة، يكفل الأمان لبني صهيون ويخفف العبء عن مارينز العم سام، وحين وجد أنه قد تلقى عين الرضا من سادة العالم سارع ليتمطى في مجاله الحيوي القديم ببلاد العرب والمسلمين، ليعلن نفسه أنه الراعي الرسمي لثورات الربيع العربي. تحاشى الرجل أن يتجه شرقا لكيلا يصطدم مع النفوذ الإيراني القوي ويستعيد ذاكرة الصراع الصفوي العثماني، وزيَّن له شيطانه أن الخطوة الأولى لفتح المعابر للعالم العربي تكون بحرق سوريا، لكيلا تكون حجر عثرة أو ممانعة لحلمه الكبير، ثم جاء إلى مصر ونصح الإخوان بأن قليلًا من العلمانية تُصلح صورة النظام. طلب منهم ألا يكون الحكم دينيًّا صرفًا. قليل من الرتوش لن تعبث بالمضمون ولن تدمر فكرة الآباء المؤسسين للإسلام السياسي، ولكن العائد من ذلك سيكون تسويق مشروعهم للطبعة الجديدة من الإسلام السياسي بما يسمح لهم بحكم مصر ومن ورائه العالم العربي قرونًا طوالًا، وكما دعمهم أردوغان لم يقصر الإخوان في تقديم التحية والولاء للباب العالي، فشمروا عن ساعد الجد في سبيل أن يصنعوا منه خليفة للمسلمين لا مجرد سلطان تركي يحكم من الآستانة. اضطربت جوانح الرجل سعادة بمسند الخلافة، ها هو الحلم يكاد يتحقق وبدعم من الجماعة، ذهل عقله طار صوابه ولبه، وداخل الرجل إحساس بأنه ليس فقط خليفة بل سادس الخلفاء الراشدين، استجاب أردوغان لدجل الإخوان وقال لنفسه: أنا الخليفة ظل الله في المكان صاحب الأمر والنهي في جميع بقاع خلافة الإسلام. تمادى في تلبية شروط مسند الخلافة، تناسى أردوغان من فرط سعادته بمسنده الوهمي جذوره السياسية التركية المغرقة في العلمانية. وتغافل عن شروط اللعبة مع الجيش التركي الحارس لمدنية الدولة، فالرجل ببساطة صار خليفة وسلطانًا للعرب والمسلمين. هنا قرر الأتراك أن يذكروه بما نسي.

طرقت صيحاتهم الغاضبة إيوان عرشه، زلزلت جنبات قصره، سارع الرجل ليصـدح بأن هذه مؤامرة خارجية وداخلية. الغريـب أن الخليفة صار يتكلم مثل رعيتـه الإخوان، ليس مثل الزعماء الأوروبيين. كان قبل أن يصيبه هوس الخلافة يُقلد الديمقراطيات الغربية. هذه لها قواعد مرعية وتلك لها قواعد تختلف بالكلية. بدأ يظهر جبروت السلطان الذي في داخله فراح يتوعد، يهدد، يصف المعارضين بأنهم أعضاء في مؤامرة. أفلت من يد الخليفة زمام البلاد وسيكون الحساب شديد القسـوة؛ لأن الشعب لن يقيمه للحسـاب كخليفة له عندهم السمع والولاء، بل سيقيمونه كرئيس حاول أن يعبث بهوية تركيا، وهذا عند القوم سقطة لا تُغتفر.

الإسلام السياسي الشيعي
ونظرية ولاية الفقيه

من أكثر نظريات الفقه الشيعي إثارة للجدل، ليس بينهم وبين طوائف وفرق المسلمين الأخرى فحسب، بل بين الشيعة الجعفرية أنفسهم. زاد هذا الجدل في الفترة الأخيرة عندما أصبح للشيعة الاثنى عشرية دولة وإقليم يسيطرون عليه منذ ثورة الإمام الخوميني. وقد ظن البعض أن الخوميني قد صاغ نظرية ولاية الفقيه ونقلها إلى حيز التطبيق دون أن يكون هناك أساس قديم تستند إليه؛ ليستطيع إقامة دولة في زمن غيبة الإمام المعصوم كما يعتقد الشيعة. ولكن حقيقة الأمر أن الحديث عن ولاية الفقيه بدأ بذات مسمياته ومباحثه الموجودة اليوم منذ أكثر من قرنين قبل الإمام الخوميني، وذلك على يد الشيخ أحمد بن محمد مهدي النراقي الكاشاني المتوفى عام 1248هـ - 1867 م ،وقد ثارت إشكاليات عديدة طوال العقود الماضية حول هذه النظرية نعرض لها بالقدر الذي يتسع له المقام.

وقبل أن نعرض لنظرية ولاية الفقيه ومراحل نشأتها عند الجعفرية، لا بد من الإشارة إلى أن الشيعة الزيدية من أهلنا باليمن لم تُثر عندهم مسألة ولاية الفقيه حالة غياب الإمام المعصوم؛ لأنهم يبطلون القول بغياب الإمام، ولا حصر عندهم للأئمة بعدد محدد أو بفترة محدودة، ولا يعتقدون في الإمام إلا إذا توافر له

شرط الدعوة والخروج، ولم يجعل الزيدية شرعية الإمام قائمة على تفقهه وكونه مستجمعًا لأطراف العلم الشرعي، بل الأساس في ذلك أن يكون فاطميا شجاعًا يدعو لنفسه شاهرًا سيفه. ولذا خلت مدونات الفقه الزيدي من الإشارة إلى هذه النظرية؛ نظرًا لاعتقادهم أنه لا يجوز أن يخلو الزمان من رجل من آل البيت يصلح للإمامة، فلا غيبة للإمام تستدعي القول بنيابة فقيه أو أكثر مكانه، وهذا يؤدي إلى استمرار الإمامة عندهم إلى يوم القيامة. ونعود إلى نظرية ولاية الفقيه، فنشير إلى مراحل نشأتها التاريخية عند الاثنى عشرية ومحطات تطورها.

في عقيدة القوم أن الإمام محمد بن الحسن الملقب بالمهدي المنتظر قد بدأت غيبته منذ عام 329 هـ، وهي الغيبة الكبرى التي انقطعت فيها رسله لشيعته. وقد سبب غياب الإمام المعصوم للقوم إشكالية عميقة الأثر تمثلت في الموقف من الحكم الإسلامي في عصر الغيبة، وما مدى مشروعية الدولة القائمة فيه. وقد اختلفت في صدد حل هذه الإشكالية أفئدة القوم وآراؤهم، خصوصًا أن الفقه الشيعي منذ بداياته - وحتى في الوقت الحالي عند بعض فقهائهم - ينفي شرعية قيام دولة إسلامية في عصر الغيبة، فالإمام المعصوم حي موجود في عقيدتهم، فالفراغ في السلطة عند الشيعة الإمامية الاثنى عشرية ليس ناشئًا عن عدم وجود الإمام، وإنما هو ناشئ عن غيابه الذي تسببت فيه أوضاع الأمة وسيطرة حكام الجور عليها.

ولقد مرت نظرية ولاية الفقيه بمراحل عدة حتى تبلورت في صورتها النهائية التي نراها اليوم التي صاغها فقيههم آية الله الخوميني وطبقها بعد نجاح الثورة الإسلامية في إيران، والثابت أن الخوميني لم يبعث ولاية الفقيه من العدم؛ فقد سبقه بقرون علماء كثيرون منذ عصر الغيبة الكبرى شيدوا بعض أركان هذه النظرية، وتوالت اجتهاداتهم في هذا الصدد، خصوصًا أن الإمام محمد بن الحسن العسكري، وهو الإمام المهدي الغائب، لم يضع أساسًا محددًا لتسيير أمور المؤمنين، فكان لزامًا صياغة نظرية تفي بهذا الغرض. وعاق ذلك عزوف معظم فقهائهم عن بحث الشئون العامة وعكوفهم على المسائل الفقهية.

والملاحـظ أن الغالب في اتجاه فقهاء الشـيعة منذ غيبة المهـدي المنتظر كان إلى التعمـق في تحليل النص الشرعي وسـبر أغواره، وتطوير البحـوث الفقهية التي كانـت بداياتهـا في زمن الأئمـة الاثني عشر. واسـتهدف فقهاء الشـيعة من ذلك التحليـل والتطويـر توطيـد أركان عقيدة التشـيع عن طريق صياغـة إطار معرفي للمذهـب وترتيـب أصوله وفرزهـا، وكذلك تفصيل فروعـه وشرحها. وكانت ثمـرة هـذا التحليـل والتأويل والترتيـب مجموعة المبـادئ والأصول التـي نراها لدى المؤسسـة الدينية الشيعية الآن. ومتابعة تطور الفقه الشيعي تؤدى إلى انطباع مفاده وجود نوع من القطيعة بين اهتمام فقهاء الشـيعة بالشـئون العامة من ناحية، واهتمامهـم بالأمـور الاجتماعية والفقهيـة من ناحية ثانية، فاهتـمام الفقهاء بالبعد الأول هـو جـد حديث، أمـا اهتمامهم بالبعد الثـاني فقد كان ملازمًـا لنظرياتهم واجتهاداتهم الفقهية.

ويرجـع الضعف التاريخي لاهتمام فقهاء إخوتنا الشـيعة الاثنى عشرية بأمور السياسـة إلى عوامـل متعـددة ومتداخلـة. ويتصـدر هـذه العوامل اعتقـاد القوم بالإمامـة المنحـصرة في شـخص الإمام المعصـوم، الـذي يقود الحكـم والمؤمنين بموجـب الحق الإلهي الممنـوح له. وأفضى ذلك الاعتقـاد عمليًّا إلى عزوفهم عن بحث المسـائل المتعلقة بالحكم والدولة، بسـبب وجود الإمـام المعصوم، حتى لو كان غائبًـا عـن الأنظار. أما ثاني العوامل التي أدت إلى إحجام المسـلمين الشـيعة عن الانشـغال بأمور الحكم، فـكان يتمثل في حالة العداء المسـتحكم بينهم وبين الغالبيـة العظمى من السـلطات السياسـية التـي قامت على مـر تاريخهم وتاريخ الإسـلام. وبإزاء هذه الحالة العدائية تكرسـت عقيدة (التقيـة)، وازداد الانعزال الشيعي عن الدولة والسلطة داخل المجتمعات التي عاشوا فيها. وثالث العوامل الرئيسـة التي أدت إلى إحجام الشـيعة عن الاهتمام بأمور الحكـم كان التراجيديا الخاصة بغياب الإمام الثاني عشر، من دون وجود مشروع سياسي سابـق لغيابه.

ولم يستمر الأمر على عزوف القوم عن بحث المسائل المتعلقة بالحكم، بل بدأت أفكار تُطرح، وكتابات تُسطر، تنحو لبحث هذه المسائل، وكانت بذلك الإرهاصات الأولى لميلاد ما سيُعرف بعد ذلك بولاية الفقيه.

■ ولادة نظرية ولاية الفقيه وتطورها التاريخي..

لعل أول محاولة تاريخية لطرح مسألة ولاية الفقيه كانت من محمد بن بابويه القمي، صاحب أحد أهم أربعة كتب في فقه الشيعة وهو كتاب «من لا يحضره الفقيه» المشهور باسم الصدوق، المتوفى سنة 381 هـ وذلك في مرحلة الحكم البويهي للعراق والذي كان يتبنى التشيع. وقد دعا ركن الدولة البويهي الشيخ الصدوق ليكون مرشدًا له في سياسته وإدارته وعلاقته مع الرعية. وهذه البداية لا تعدو أن تكون بداية غامضة لفكرة ولاية الفقيه.

ثم كانت المحاولة الأكثر وضوحًا وتحديدًا في جبل عامل بلبنان على يد محمد بن مكي الجزيني المتوفى سنة 876 هجرية، وبها أخرج الجزيني الفكرة للنور وكانت أول تطوير أساسي في الفقه الشيعي؛ حيث مد نطاق عمل الفقهاء ووسع من تأثيرهم في حياة المؤمنين. واستند الجزيني إلى ما سماه نيابة الفقهاء العامة عن المهدي المنتظر، وشملت هذه النيابة القضاء والحدود وإقامة صلاة الجمعة. وذكر الجزيني في كتابه (اللمعة الدمشقية) أن الفقيه هو «نائب الإمام». ولكن هذا الكتاب لم يحظ باهتمام كبير لدى الباحثين إلا بعد اكتشاف أنه الأساس لنظرية ولاية الفقيه، ولذلك فهو الآن أحد أشهر الكتب عند المسلمين الشيعة. وعلى الرغم من أن الجزيني كان أول من تحدث عن نيابة الفقهاء العامة للأئمة عند الشيعة، فإن نطاق تلك النيابة كان محصورًا في أعمال محددة. ولم يكن الجزيني أو «الشهيد الأول»، كما يطلق عليه في الأدبيات الفقهية الشيعية، قريبًا من فكرة الحكومة الإسلامية بقيادة الولي الفقيه، بل مجرد تحسين لشروط عصر الانتظار حتى عودة الإمام المهدي المنتظر. على أية حال كان أهم ما ظهر في كتابه «اللمعة الدمشقية» لأول مرة في التاريخ لقب «نائب الإمام»، ولكن الأهم أن الجزيني أخرج تطويرًا جديدًا للفكر الشيعي تمثل في إلقاء حجر نيابة الفقهاء العامة في بركة الانتظار الراكدة. وبحق كانت أفكار الجزيني عن نيابة الفقهاء حجرًا ثقيلًا.

ثـم جاءت الدولة الصفوية التـي اصطدمت طويلًا مع الدولة العثمانية كما مر بنا لتسـهم بنصيب كبير في ترسيخ دعائم هذه النظرية، فلقد واجهت هذه الدولة معانـاة من سـيادة الفكر الصوفي، ونقـص أعداد الفقهاء الذيـن يحتاج إليهم نشر المذهب الشيعي في بلاد إيران وكان أغلب سكانها وقتها يعتنقون المذهب السني، لذا عمل الشـاه إسـماعيل الصفوي وابنه طهماسـب إلى اسـتدعاء عدد من علماء الشيعة من العراق والبحرين ولبنان، ليعملوا على نشر التشيع في إيران، وكان من بين هؤلاء العلماء الشيخ عليّ بن عبدالعال الكركي.

وقد نجح الشيخ الكركي في تشكيل مؤسسة دينية رسمية مختصة، تبث التشيع انطلاقا من فكرة الولاية العامة للفقـيه «ويقصد به الفقيه العادل الجامع لشروط المرجعيـة». وبذلك أصبح الشـيخ الكركي مطلق اليد في شـئون الدولة الشـيعية الجديدة: الاقتصادية والدينية، بوصفه نائبًا عامًا عن المهدي، بل وبوصف الشـاه نفسـه نائبًا لهذا الفقيه، وبهذا المعنى اعتبر الشاه الصفوي الشيخ الكركي صاحب الدولـة الحقيقي ونائب الإمام الغائب، وأن عـلى الجميع امتثال أوامره. فمعزول الشيخ لا يستخدم ومنصوبه لا يعزل.

ولقـد أثـارت ولايـة الفقيـه، التي ادعاهـا الكركي، جـدلًا حادًّا بـين العلماء الشـيعة أدى إلى انقسـامهم في حينـه إلى فريقـين متنازعـين. فقـد انتقـد فريق من فقهاء النجف، وهم زملاء الشـيخ الكركي، تأييده للصفويين واعتبار نفسه «نائبًا للإمـام»، وكان أبـرز من وجه إليـه نقدًا في مناظرات مفتوحة آنـذاك الفقيه الذي يوازيـه في العلـم والمكانة، الشـيخ إبراهيم القطيفي، الذي خالفه في عدة مسـائل بالإضافـة إلى قضيـة ولايـة الفقيـه، مثل: مسـألة الخراج ومسـألة صـلاة الجمعة وإجازة القطيفى التشهير بالخلفاء الثلاثة الراشدين أو لعنهم.

وأتـوقف عند الشـيخ الكركي الـذي أراه نموذجًا يشـكل منعطفًا تاريخيًا في اتجاه القول بنيابة الفقيـه العامة، ثم وصولًا بعد ذلك لولايـة الفقيه. فلأول مرة يتبوأ الفقيه منصب النيابة العامة في كل شـأن عن الإمام المهدي، ويصل إلى ذروة

سنام السلطة والهرم السياسي بما يخوله ذلك من مكنات متنوعة، بل شكلت مساجلات الكركي مع القطيفي مثالًا حيًا على عمق إشكالية السلطة والدولة في الفقه الشيعي خلال فترة الغيبة الكبرى، وتمثل خروجًا صارخًا على المبدأ الثابت في تعامل فقهاء الشيعة مع السلطان والقائم على حرمة الدخول في أعمالهم، وكان القطيفي يصدر في كل هذه المساجلات عن تأكيد المعارضة لأية نيابة عن إمامهم المعصوم في عصر الغيبة، والتشدد في اعتناق عقيدة الانتظار، وأنتج اجتهاد الشيخ الكركي آثارًا فقهية مهمة، كان من أبرزها رسالته في وجوب صلاة الجمعة زمن غيبة الإمام، وكذا إفتاؤه بجواز أخذ السلطان الخراج خلال الغيبة الكبرى بحسبانه نائبًا عن الفقيه صاحب النيابة العامة عن الإمام، وهو ما اطّرد علماء آخرون بعده مثل الشيخ محمد حسن النجفي والشيخ المقدس الأردبيلي على القول به، وإبطال سب الصديق والفاروق وذي النورين -رضي الله عنهم- وهو ما اتفق مع سعي الشاه طهماسب في توطيد أركان دولته وتخفيف الاحتقان مع السنة.

وقد وجدت أنه اعتبارًا من النصف الأول من القرن الثالث عشر الهجري (التاسع عشر الميلادي) ظهر عدد من البحوث الفقهية الجديدة التي ركزت على مبدأ نيابة الفقيه للإمام، وتحدثت عن صلاحيات الفقيه وحدود ولايته وأنواعها، وهي عمومًا بحوث أدخلت الفقه السياسي لمدرسة الإمامة مرحلة جديدة، وأهمها:

1 - **«ولاية الحاكم الشرعي»** للشيخ أحمد النراقي (ت 1245هـ)، وبحثه عبارة عن فصل مستقل من كتاب «عوائد الأيام»، ويعد باكورة البحوث الفقهية الاستدلالية الجامعة التي أكدت اختصاص الفقيه (الجامع للشرائط) بولاية الحكم والافتاء والقضاء وإقامة الحدود والتصرف في الأموال الشرعية وشئون القاصرين بمساحة الولاية نفسها التي كانت للنبي ﷺ والأئمة، إلا أن يقوم دليل شرعي على الاستثناء، استنادًا إلى قاعدة نيابة الفقيه للإمام، والوكيل كالأصيل عند غيابه، فجاء هذا

البحث نقلة حقيقية في الفقه السياسي لمدرسة الإمامة ؛ إذ مثل طليعة البحوث المعمقة والشاملة في ولاية الفقيه. ورغم أن النراقي لم يصرح بولاية الفقيه على الحكم واختصاصه برئاسة الدولة الإسلامية، بالنظر - لما يبدو - إلى ابتعاد هذا الموضوع عن الواقع وعن معطيات المستقبل المنظور، وكأنه من أشد الموضوعات افتراضية آنذاك، فإن حيثيات البحث واستنتاجه تشير بمجموعها إلى رأي النراقي الراسخ باشتمال ولاية الفقيه على شئون الدولة والحكم. والأهم أن الشيخ النراقي كان أول من استخدم اصطلاح «ولاية الفقيه».

2 - «**الولايات والسياسات**» للشيخ مير فتاح حسين المراغي (ت 1250 هـ)، وهي ثلاثة بحوث مستقلة من كتاب (العناوين)، درس المؤلف في أولها موضوع ولاية الفقيه، وأثبت فيه الولاية العامة للحاكم الشرعي (الفقيه)، واختص الثاني بولاية المؤمنين العدول، وطرح فيه الكثير من موضوعات الفقه السياسي وشئون الحكم الإسلامي. وفي الثالث درس الولايات الخاصة، كولاية الأب والوصي.

وقد وجدت أن بحوث الشيخ المراغي لم تحظ بالاهتمام الذي حظي به بحث الشيخ النراقي، ربما بالنظر لشهرة الأخير وموقعه العلمي الكبير في المرجعية، وكونه أحد أساتذة الشيخ مرتضى الأنصاري الذي اعتنى بآثار أستاذه النراقى، وكذا تناوُل الفقهاء اللاحقين لبحوثه بالدرس والتحقيق والنقد، وهو ما لم يحصل مع بحوث الشيخ المراغي على الرغم من أهميتها البالغة ؛ إذ نادرًا ما يتطرق الباحثون الجدد لكتابه «العناوين» خلال تناولهم موضوعات الفقه السياسي.

3 - «**تذكرة الغافل وإرشاد الجاهل**» للشيخ فضل الله النوري (ت 1907 م)، الذي يمكن اعتباره تحولًا مهمًا في مسار تطور فقه الدولة في الفكر الشيعي. ففي هذا البحث دعا فضل الله إلى الحكومة المشروعة أو الشرعية في مقابل الحكومة المشروطة التي تستند إلى الملكية الدستورية التي طغت

أفكارها على الساحة السياسية. والحكومة المشروعة - حسب الشيخ النوري - هي التي تستمد شرعيتها ووجودها من الشرعية الإسلامية وأحكامها، أي التي تحكم بالشريعة الإسلامية، وبما أن الفقهاء هم علماء الشريعة، فلابد أن يكون لهم الإشراف الكامل على شئون الدولة. أما الحكومة المشروطة فهي التي تدعو إلى حكم الدستور الذي يعطي لنظام الأكثرية البرلمانية حق منح الشرعية للحكومة، وهو ما رفضه الشيخ فضل الله النوري بشدة. وبناء على ذلك اضطر دعاة الحكومة المشروطة إلى إضافة مادة مهمة في دستور الدولة الإيرانية، يتلخص مضمونها في إشراف الفقهاء على القوانين والقرارات التي يصدرها مجلس الشورى الإيراني، وتمثلت آليته في اختيار مراجع الدين في النجف الأشراف وإيران لخمسة من الفقهاء يكونون بمثابة مجلس رقابة دائم داخل البرلمان.

4 - «تنبيه الأمة وتنزيه الملة»، للميرزا محمد حسين النائيني (ت 1936 م)، ويعد أهم بحث صدر حينها، فهو أول بحث شامل في الفكر السياسي الشيعي ينشر مستقلًا، ويكتب بهدف تأسيس نظام سياسي وليس لمجرد التنظير الفقهي، كما أن كاتبه كان من أبرز فقهاء النجف الأشراف قبل تسلمه موقع المرجعية الدينية العليا، وأيد آراءه الفقهية المطروحة في الكتاب عدد من أهم فقهاء الشيعة، وفي مقدمتهم الشيخ محمد كاظم الأخوند الخراساني (ت 1911 م)، والشيخ عبد الله المازندراني (ت 1913 م). وعلى أساس مضامين هذا الكتاب تأسس النظام السياسي في إيران في أعقاب ثورة الحكومة المشروطة. وقد أكد الشيخ النائيني مفهوم نظام الحكم المنتخب من قبل الأكثرية المتمثلة في البرلمان، وعد هذه الأكثرية مصدرًا لمشروعية النظام، وإن كان الشاه يترأس هذا النظام، فبشرط أن يكون مقيدًا بالدستور والقوانين وليس له مطلق الصلاحيات.

والحقيقـة أن مطالعـة ما سـطره الشـيخ النائيني يظهـر منه أنـه لم يكن يهدف مـن وراء كتابـه إلى طـرح نظرية متكاملة في فقـه الدولة الإسـلامية، أو يقول بأن مضامـين الكتـاب تمثـل الموقف العقائدي لمدرسـة الإمامـة، بـل كان يتعامل مع الممكن والواقع، فقد عدّ هذا النوع من النظام السـياسي الدسـتـوري أكثر أنظمة الحكـم عقلانية وملاءمـة للواقع وللظـروف الموضوعية؛ فالحكومة الدسـتورية خيار الأمة في مقابل الاسـتبداد والنظام الشـمولي من باب دفع الأفسد بالفاسد، وعلى اعتبار أنه أهون الشرين، وليس باعتباره الخيار المثالي للأمة.

والجدير بالذكـر أن الكتاب لم يكتب بالعربية بل بالفارسية، مما يعني محدودية تداوله وأغراضه، في حين أن كل البحوث الفقهية الأخرى للشـيخ النائيني كتبها - كغيره من الفقهاء - بالعربية، كما احتوى الكتاب مضامين وتحليلات تدخل في إطار الفلسـفة السياسية والرؤى السياسية التحليلية، وربما تكفي مطالعة الفصل الخامـس من الكتاب، الـذي احتوى كثيرًا من المصطلحات القانونية والسياسـية المتداولـة، للوقـوف على ذلك. وبشـكل عام نسـتطيع أن نقول إن رؤيـة النائيني نجـحت نسـبيًّا في تحـديد سلطات الشاه، وتأسيس مجلس للشورى تنتخبه الأمة ويضـم عددًا من الفقهاء يشرفون على تشريعاته.

وكان هناك حدث مهم في نفس الحقبة الزمنية تمثل في ثورة العشرين بالعراق، والتي فجرتها فتاوى الفقهاء الشيعة، وكان في مقدمة هؤلاء مرجع الشيعة الأعلى محمـد تقي الشـيرازي المتوفى عـام 1920م، حيث قـاد هذا المرجع الثـورة ومعه معظـم فقهاء العـراق، وبادر إلى تأسـيس إدارات محليـة في المناطق المحـررة تتبع سـلطته، ويمكن القول بأنها كانت حكومة إسـلامية ثورية يقودها الفقيه وتعمل بأحـكام الشريعة وهي خطوة عملية رائدة في حينها، تأسسـت وقامت على سـند من آراء المرجع الشيرازي وغيره من الفقهاء المعاصرين.

وشـهدت السـاحة بعد ذلـك بعـض الكتابـات والآراء السياسـية لعدد من فقهاء مدرسـة الإمامة، كمرجعهم الـسيد محسن الأمين في سوريا، والسيد حسن

المدرسي والسيد أبي القاسم الكاشاني في إيران، والسيد هبة الدين الشهرستاني والشيخ محمد مهدي الخالصي والشيخ محمد حسين كاشف الغطاء والسيد محسن الحكيم في العراق، تدور كلها حول شكل الدولة ومشروعيتها زمن الغيبة الكبرى.

بيد أن عقود الخمسينيات والستينيات والسبعينيات شهدت منعطفًا جديدًا آخر في مسار الفقه السياسي الإمامي، بسبب انتشار فكر الحركات الإسلامية الشيعية في إيران والعراق، والتي كانت تدعو إلى تأسيس الدولة الإسلامية. وتميز هذا الفكر بالجمع بين الفقه السياسي والفقه الحركي، وهي ظاهرة لم تكن معروفة في الوسط الفقهي والفكري الشيعي. ولعل من أهم بحوث هذه المرحلة التي حملت هذه السمة بحث «وجوب إقامة الدولة الإسلامية» للشهيد محمد باقر الصدر (ت 1980م).

وبعد هذه المسيرة العلمية التاريخية الطويلة التي قطعتها مدرسة الإمامة، استقر فقهها السياسي على شكلين من الحكم الإسلامي:

الأول: الشكل الأصلي، وهو الذي يختص بالإمام المعصوم الغائب المنصوص عليه عندهم، وهو الأساس الثابت.

والثاني: الشكل المتفرع من الشكل الأصلي، وتطبيقاته مؤقتة، وتقتصر على عصر غيبه الإمام المهدي، ويقف على رأسه نائب الإمام (وهو الفقيه العادل الجامع للشروط).

ولا يختلف الشكلان في مساحة الحكم والصلاحيات التنفيذية كما يذهب القائلون بولاية الفقيه العامة، فللفقيه الحاكم ما للإمام المعصوم من شئون ولاية المسلمين؛ باعتباره نائبًا ووكيلًا في غيبته، من دون المساس بمنزلة الإمام المعصوم وخصائصه التي ينفرد بها.

■ الخوميني ونظرية ولاية الفقيه..

يعد آية الله الخوميني علامة فارقة في الفقه السياسي الشيعي الحديث، فقد صاغ الخوميني منذ الستينيات من القرن الماضي منهجه في صدد نظرية ولاية الفقيه، وطور من آراء من سبقه حتى جعلها أطروحة فقهية متكاملة تشيد أركان الحكومة الإسلامية. بل وجه سهام النقد القاسية للاتجاه السائد - آنذاك - في الحوزات العلمية الدينية الذي يركز على البحث الفقهي في مجال العبادات وغيرها من الأبواب التقليدية، ولا يولي اهتمامًا كافيًا بموضوعات الفقه السياسي وشئون المسلمين العامة. ورأي الإمام الخوميني أن تأسيس الفقهاء للحكومة الإسلامية وقيادتهم لها ليس خيارًا إلى جانب الخيارات الأخرى، بل هو واجب ليتمكن الإسلام من أداء رسالته كما أراد الله سبحانه وتعالى. ويؤكد الخوميني على ضرورة أن يضطلع الفقهاء بدورهم في إقامة الحكومة الإسلامية، فيسوق في كتابه الحكومة الإسلامية أدلة عديدة على هذه الضرورة، منها:

1 - **ضرورة المؤسسات التنفيذية**، التي من شأنها إخراج التشريعات الإسلامية إلى حيز التطبيق، والحكومة الإسلامية هي التي تنفذ قوانين الشريعة الإسلامية، لهذا قرر الإسلام إيجاد سلطة التنفيذ إلى جانب سلطة التشريع، فجعل للأمر وليًا للتنفيذ، وهو ما تدل عليه سيرة النبي ﷺ.

2 - **ضرورة استمرار تنفيذ الأحكام**، إذ لا تختص أحكام الإسلام بزمان الرسول ﷺ، بل إنها خالدة، ولا بد من الاستمرار في العمل بها، فلا يجوز تعطيل الحدود والقضاء وإهمال جباية الأموال الشرعية وترك الدفاع عن الأمة الإسلامية وأراضيها.

3 - **حقيقة قوانين الإسلام**، فهذه القوانين شرعت لتكوين دولة فيها إدارة وفيها اقتصاد وفيها ثقافة، وكل ما من شأنه إيجاد نظام اجتماعي متكامل

يسد احتياجات الإنسان، والحكومة هي الكفيلة بإقامة ذلك، فمثلًا الأحكام المالية تدل على أنها تهدف إلى تأسيس دولة، وكذلك أحكام الدفاع وأحكام الحدود والديات والقصاص.

4 - **ضرورة الثورة السياسية**، التي تستهدف الحيلولة دون مسايرة أنظمة الشرك والانحراف والفساد والظلم، وتستبطن حرمة التعاون معها؛ لأنها حكومات غير شرعية. ومواجهة هذه الحكومات يستدعي إيجاد البديل الذي يكفل إجراء العدالة والقسط والصلاح والاستقامة.

5 - **ضرورة الوحدة الإسلامية**، فلا سبيل إلى توحيد الأمة الإسلامية ولم شمل المسلمين والقضاء على مؤامرات الاستعمار إلا بالحكومة الإسلامية التي تكون محورًا لحركة الأمة ووحدتها.

6 - **ضرورة إنقاذ المظلومين والمحرومين**، فالشريعة الإسلامية تفرض على أتباعها العمل على إنقاذ المظلومين في كل مكان، وتخليصهم من براثن الظالمين والمستغلين، وهي رسالة الإسلام الأساسية.

ولقد ساق الخوميني أدلة عديدة لإسقاط نظرية الانتظار للإمام المهدي التي كانت تهيمن على قسم كبير من الفكر السياسي الشيعي، كان أبرزها أن ضرورة تنفيذ الأحكام لم تكن خاصة بعصر النبي صلى الله عليه وآله وسلم وستظل إلى الأبد من ضروريات الحياة، لذا كان وجود حكومة فيها مزايا السلطة المنفذة المدبرة ضروريًا. ويخاطب الخوميني في كتاب آخر له الملتزمين بنظرية الانتظار قائلًا: لا تقولوا ندع إقامة الحدود والدفاع عن الثغور وجمع حقوق الفقراء حتى ظهور الحجة، فهلا تركتم الصلاة بانتظار الحجة.

ولا شك أن الخوميني قد واجه صعوبات شتى وعقبات عديدة لتحريك الفكر الشيعي وإخراجه من دائرة عقيدة الانتظار إلى رحاب فكرة ولاية الفقيه. ويشير الدكتور/ محمد عمارة إلى التقية كعقبة صعبة واجهت الخوميني، فيقول: (لقد أدرك الخوميني أن «التقية» كعقيدة شيعية، تبيح أن يظهر الإنسان غير ما

يعتقد، وأنها غدت عقبة أمام التغيير والثورة، ومن ثم عموم ولاية الفقيه.. فبالتقية يستريح ضمير الشيعي التقليدي مهما شاع في المجتمع من ظلم وفساد وجور؛ لأن الرفض في ظل عقيدة التقية يكون قلبيا ووجدانيا، على حين يستمر التعايش مع المجتمع الجائر الفاسد).

ويرسم الخوميني ملامح ولاية الفقيه، فيجعل من الفقهاء سلطة أعلى من الملوك والأمراء، فيقول: (من المسلَّم به أن الفقهاء حكام على الملوك، وإذا كان السلاطين على جانب من التدين، فما عليهم إلا أن يصدروا في أعمالهم وأحكامهم عن الفقهاء، وفي هذه الحالة فالحكام الحقيقيون هم الفقهاء ويكون السلاطين مجرد عمال لهم). ويقسم الخوميني أدوات الحكم واختصاصاته فيقول: (علينا أن نستفيد من ذوي الاختصاص العلمي والفني، فيما يتعلق بالأعمال الإدارية والإحصائية والتنظيمية، أما ما يتعلق بالإدارة العليا للدولة وبشئون بسط الرعاية، وتوفير الأمن، وإقرار الروابط الاجتماعية العادلة، والقضاء والحكم بين الناس بالعدل فذلك ما يختص به الفقيه). والخوميني يأخذ بأقصى درجات التوسع في ولاية الفقيه، فلم تعد تقتصر على ولاية شئون الإفتاء والقضاء ولكنه صاغ نظرية تُعنى بإقامة سياسة دولة يحكم أمورها الفقيه على أساس من مرجعيته الفقهية.

والسؤال الذي يطرح نفسه: أين كان فقهاء الشيعة في العصور السالفة ولِمَ لمْ ينادِ أي منهم بهذه الولاية بالصورة الواسعة التي صدح بها الخوميني؟ وكذلك ما سر معارضة عدد من علماء الشيعة المعاصرين له وعلى رأسهم آية الله شريعتمداري ومحمد جواد مغنية ومحمد جميل العاملي وغيرهم؟ مردّ ذلك إلى اختلاف غاية الخوميني عن غاية من سبقه من علماء الشيعة الذين قصروا هذه الولاية على أمور القضاء والإفتاء، فالخوميني له هدف سياسي محدد منذ بدأ حركته المعارضة للشاه في نظام حكمه. هذا الهدف السياسي هو إقامة حكومة إسلامية ترث حكم الشاه وتقيم في إيران دولة إسلامية. وكانت العقبة التي تقف في وجه هذا الاتجاه، وتحول دون تحقيق هذه الغاية عقبة فكرية تتمثل في

عدم اقتناع أتباع المذهب الشيعي بحكومة تتصف بصفته الإسلامية إلا إذا كان على رأسها الإمام المعصوم، وهذا الإمام - في نظرهم - لم يعد بعد، ويتعين على الشيعة انتظار عودته ليقوم بأمر الدولة الإسلامية، ولم يكن أمام الخوميني من سبيل لتخطي هذه العقبة في المذهب الشيعي - وإن شئنا قلنا في الفكر السياسي للشيعة - إلا تطوير نظرية ولاية الفقيه من منطلق سياسي يتيح للشيعة إقامة دولة إسلامية على الرغم من غيبة الإمام المعصوم، ولعل هذا الاتجاه السياسي المحدد في حركة الإمام الخوميني هو الذي ميّز جهاده وزعامته الدينية والسياسية عن جهاد غيره من علماء الشيعة المعاصرين حتى الذين ناضلوا مع الخوميني ضد حكم الشاه.

حدود ولاية الفقيه..

يتناول فقهاء الإمامية الاثنى عشرية ببحث جانب آخر من نظرية ولاية الفقيه، وهو حدود هذه الولاية سعة وضيقا، ويذهب جانب من فقههم إلى التوسع في حدود هذه الولاية، فيجعلون لولاية الفقيه العادل الجامع للشرائط نفس حدود ولاية الإمام المعصوم، فيقول عالمهم النراقي: (كل ما كان للنبي والإمام الذين هم سلاطين الأنام، وحصون الإسلام فيه الولاية، فللفقيه أيضا ذلك إلا ما أخرجه الدليل من إجماع نص أو غيرهما).

ويذهب البعض إلى القول بأن الجعفرية يقولون بامتداد نطاق سلطة ولاية الفقيه إلى كل صلاحيات الرسول والأئمة من بعده، إلا أن مدونات القوم تشير إلى أن هذا الرأي ليس هو المعتمد عند سائر علماء الجعفرية، لأن جانبًا كبيرًا من مؤيدي ولاية الفقيه لا يثبت له عمومية الولاية مثل الرسول والأئمة من بعده، ويعتبرون أن ذلك يجعل ولاية الفقيه صيغة أخرى لصيغة الإمامة المعصومة، وأن هذا غير صحيح من الناحية الفقهية، فحقيقة ولاية الفقيه أنها صيغة مستقلة ومختلفة عن صيغة الإمامة المعصومة وإن كانت تستمد شرعيتها منها، ويقول في ذلك آية الله محمد مهدي شمس الدين: (لأن الحكومة الإسلامية على صيغة ولاية الفقيه الثابتة باعتبار كون الفقيه نائبًا عامًا عن الإمام ليست حكومة الإمام المعصوم ولا تثبت لها عمومية ولاية الإمام المعصوم، وإن كان البعض يحاول ذلك ويدعيه، لاعتبارات يدعي أنها فقهية. وهي في حقيقتها اعتبارات سياسية ليس لها سند فقهي معتبر).

ولم يكن شمس الدين هو الوحيد من علماء الشيعة البارزين الذين رفضوا القول بولاية الفقيه العامة، بل صرح برفضها أحد كبار علمائهم المعاصرين وهو محمد جواد مغنية، ورغم أنه كان شديد الولاء لآية الله الخوميني وثورته الإسلامية فإنه في صدد القول بولاية الفقيه العامة كان له موقف مغاير، فيقول:

(أما الفقيه فحكمه يعتمد على الظاهر، وليس هذا فقط بل الفقيه عرضة للنسيان وغلبة الزهو والغرور، والعواطف الشخصية وتأثير المحيط والبيئة. وقد عاينت وعانيت الكثير من الأحكام الجائرة ولا يتسع المجال للشواهد والأمثال سوى أني عرفت فقيها بالزهد والتقوى قبل الرياسة، وبعدها تحدث الناس عن ميله مع الأولاد والأصهار). وقد عزز رأيه هذا بأقوال كبار علمائهم، فنقل عن الشيخ الأنصاري في المكاسب قوله: (لا دليل على وجوب طاعة الفقيه كالإمام، وربما يتخيل من أخبار واردة في شأن العلماء أن الفقهاء كالأئمة مثل العلماء ورثة الأنبياء وأمناء الرسل وكأنبياء بني إسرائيل، ومجاري الأمور بيد العلماء بالله الأمناء على حلاله وحرامه وغير ذلك، ولكن الإنصاف بعد ملاحظة سياقها أو صدرها أو ذيلها يقتضي الجزم بأنها في مقام البيان لوظيفة الفقهاء من حيث نشر الأحكام الشرعية لا يكون الفقهاء كالنبي والأئمة -صلوات الله عليهم- في كونهم أولى الناس في أموال الناس، فلو طلب الفقيه الزكاة والخمس من المكلف فلا دليل على وجوب العطاء إليه شرعًا، وبالجملة فإقامة الدليل على وجوب طاعة الفقيه كالإمام إلا ما خرج بالدليل دونها خرط القتاد). وعالم آخر هو السيد محمد تقي الطباطبائي المعروف ببحر العلوم يعلن في مصنفه «بلغة الفقيه» في عبارات موجزة رفضه للتوسع في حدود ولاية الفقيه فيقول: (لا شك في قصور الأدلة عن إثبات أولوية الفقيه بالناس كما هي ثابتة للأئمة -عليهم السلام-).

والدكتور موسى الموسوي وهو من علمائهم أصحاب الآراء المعارضة لولاية الفقيه ولحكم رجال الدين يقول: (إن فقهاء إيران الكبار والمراجع الدينية العظام فيها عارضوا ولاية الفقيه معارضة شديدة وأعلنوا أنها لا تمت إلى الدين بصلة وأنها بدعة وضلال، وكاد الإمام شريعتمداري الزعيم الروحي الكبير والذي ساهم في الثورة الإيرانية مساهمة عظيمة في آخر أيامها أن يدفع حياته ثمنا لمعارضته هذه الفكرة....).

وباليقين: إن الشيعة الاثنى عشرية لم يجمعوا على القول بولاية الفقيه العامة، ولم تكن محل اتفاق علمائهم، ورغم أنها أصبحت محل التطبيق منذ عام 1979م،

تاريخ نجاح الثورة الإسلامية في إيران، فإنها شهدت خلافًا شديدًا وعقبات عدة زادت الجدل حولها. بل أفرز النموذج العملي للتطبيق إشكاليات عدة زادت في حدة اختلاف القوم عليها.

وتتبقى لنا نقطة أخرى تثار عند الفقهاء الذين قالوا بالولاية العامة للفقيه وتدور حول الموقع العقائدي لولاية الفقيه، وهل هو عين الموقع العقائدي للإمامة، وإذا كان الإمام الخوميني في كتاب البيع ينتهي إلى أن دليل الإمامة بعينه هو دليل لزوم الحكومة بعد غيبة ولي الأمر، وإذا كانت الإمامة أصلًا من أصول مذهب الشيعة الجعفرية كما أسلفنا، فهل ولاية الفقيه تنزل منزلتها بعد أن اتحد دليلهما؟

وأنا هنا لا أتساءل عن مسألة افتراضية، بل هو تساؤل يثار على ساحة البحث عند القوم، فقد أرسل بعضهم استفتاء للمرجع الأعلى ومرشد الثورة الإيرانية الحالي آية الله عليّ الخامنئي يسأله فيه عن تحديد الموقع العقائدي لولاية الفقيه، وهل هي من أصول الدين أو المذهب أو غير ذلك، فأصدر الخامنئي بيانًا جاء فيه: (أما أصول الدين، فولاية الفقيه ليست منها، لأنها - أي ولاية الفقيه - ليست من العناصر التي لا بد من الاعتقاد بها لتتحقق الهوية الإسلامية، فعدم الإيمان بولاية الفقيه لا يخل بتلك الهوية، أما أصول المذهب فليست ولاية الفقيه أيضًا منها؛ لأنها ليست من العناصر التي لابد من الإيمان بها لتتحقق هوية المذهب).

وأحسب أن هذا السؤال لو قدر أن يوجه إلى آية الله الخوميني لكانت إجابته اختلفت، فقد كان يثمن غاليًا ولاية الفقيه. وأحسب أن موقع ولاية الفقيه في الجمهورية الإسلامية الإيرانية قد اختلف كثيرًا بعد رحيل الخوميني نتيجة لصراعات الساسة والفقهاء هناك، وإن كنت أرى أن وضع ولاية الفقيه كأحد مظاهر التشيع لا الإسلام يسهم إلى حد بعيد في التقارب مع السنّة.

■ انتخاب الولي الفقيه..

مع تعدد الفقهاء الجامعين للشرائط والصفات، يُثار السؤال التالي: ما الطريق لتحديد هذا الولي من بين جمع الفقهاء؟ وكيف يتم تشخيص الفقيه الذي له الأولوية من بين الفقهاء للقيام بالأمر ؟

وأحسب أن الأمر لا يخلو من حالتين بحسب مصادرهم:

الأولى: هي أن يقوم فقيه يحمل كل المواصفات المشترط وجودها في القائد والولي، ويتصدى لأمر إقامة الحكم الإسلامي، وإحياء دين الله تعالى في جميع أبعاده، ويتولى قيادة الأمة لحفظ نظامها وحقوقها وإقامة العدل فيها. فإذا تصدى مثل هذا الولي الفقيه لهذا الأمر، ولم يكن هناك أي شك أو ريب في كفاءته وقيادته وحسن تدبيره، وجب على الأمة طاعته ونصرته وتأييده والالتزام بقيادته وأوامره. ومثال ذلك ما حدث في ثورة الإمام الخوميني في إيران عام 1979 م.

الثانية: هي أن يوجد في الأمة مجموعة من الفقهاء الذين يتمتعون بمواصفات القيادة وولاية الأمر.

وفي الحالة الثانية: تُثار إشكالية اختيار الولي الفقيه من بين المستجمعين للشرائط، ولا شك أن التطبيق الذي حدث في الجمهورية الإسلامية الإيرانية بعد وفاة الخوميني كان هو المثال الحي الوحيد على طريق هذا الاختيار وأسلوبه. وقد نظر الدستور الإيراني إلى أهمية الولي الفقيه ودوره البالغ الأهمية وتبوئه سُدة السلطة وقمة هرمها، فعمد إلى تنظيم هذا الاختيار وآلياته، فنشأت فكرة قيام الأمة بانتخاب مجموعة من الفقهاء الجامعين للشرائط والذين يحملون مواصفات الكفاءة والخبرة، يشكلون مجلس خبراء القيادة، وعدد أعضائه ستة وثمانون عضوًا يُنتخبون بالاقتراع السري من الشعب الإيراني لا تقل سن أحدهم عن

ستين عامًا، ويوكل إلى هذا المجلس كذلك، بخلاف انتخاب المرشد الأعلى، مهمة التأكد من استمرار الشروط الأساسية في الزعيم المنتخب بما يعني نوعًا من الرقابة على أعمال الزعيم.

وقد تحدث الدستور عن آلية عمل مجلس خبراء القيادة في المواد 107 و108 و111. ففي المادة 107 من الدستور جاء بشأن طريقة انتخاب الخبراء للقائد: (.... توكل مهمة تعيين القائد إلى الخبراء المنتخبين من قبل الشعب. وهؤلاء الخبراء يدرسون ويتشاورون بشأن كل الفقهاء الجامعين للشرائط المذكورة في المادتين الخامسة والتاسعة بعد المائة، ومتى ما شخصوا فردًا منهم باعتباره الأعلم بالأحكام والموضوعات الفقهية، أو المسائل السياسية والاجتماعية، أو حيازته تأييد الرأي العام، أو تمتعه بشكل بارز بإحدى الصفات المذكورة في المادة التاسعة بعد المائة انتخبوه للقيادة، وإلا فإنهم ينتخبون أحدهم - أي أحد أعضاء مجلس الخبراء - ويعلنونه قائدًا، فالدستور يمنح الخبراء المنتخبين من قبل الشعب صلاحية انتخاب أحدهم للقيادة (وهم من الفقهاء الجامعين للشرائط). في حالة عدم الاتفاق على من تتوفر فيه شروط القيادة من خارج المجلس، يكون الانتخاب الحاصل منهم هو انتخابًا من قبل الشعب بطريقة غير مباشرة.

ونجد هنا أن جعل وسيلة تولي الولي الفقيه مسند الولاية عن طريق الشورى والانتخاب وعلى أساس من الإرادة الشعبية لهو تجديد مهم جدًا في فقه الولاية وخروج من دائرة النص والوصية إلى البيعة الحرة، ويمثل ذلك قطعًا لشوط كبير في فتح باب التقريب بين فقه السنة وفقه الشيعة. وانفتاحًا مهما للشيعة على آراء السنة في مسألة إقامة الحكومة الإسلامية، التي يقول فيها أحد كبار علمائهم وهو آية الله منتظري والذي كان يشغل منصب نائب الخوميني بإيران: (ليست مسألة الحكومة الإسلامية أمرًا يختص به الشيعة الإمامية، بل هي ضرورة لجميع المسلمين، فيجب البحث فيها في إطار فقه الإسلام بسعته الشاملة لجميع المذاهب، وهو ما نرجو من إخواننا السنة أيضا أن يلتفتوا إلى فقه الشيعة).

وأحسـب أن تطور الفكر الشيعي للأخذ بمبدأ الشورى والبيعة أساسًا لتبوؤ مسـند الولايـة العامة ومـا يمثله ذلك من تطـور هائل يقرب بين الفكر الشـيعي والسـني، يجـدر بنا نحن أهل السـنة أن نقابلـه بالأخذ بهذا المبدأ كأسـاس وحيد لتبوؤ مسند الولاية العامة، والالتفات عن القول بالاعتراف بإمامة الغلبة وقبول ولايـة المتغلـب والخضوع لها. عند ذلك سـيتم الإجمـاع على مبدأ الشـورى الحرة أساسًـا للولاية وتزول الخلافات بين الشيعة والسنّة فيما يخص الأساس الشرعي لنظام الحكم.

والمتابـع لوقائع الحال في الجمهورية الإسـلامية الإيـرانية باعتبارها النموذج الشـيعي الاثنى عشري الوحيد في دول العالم، يجد أن مسـند رئاسة الدولة تداول عليـه أصحاب العمائم مـن الملالي منذ اندلاع الثـورة على نظام الشـاه في أواخـر السـبعينيات مـن القرن الماضي باسـتثناء الشـهور الأولى للثورة التي تولى رئاسـة الدولـة فيها أبو الحسـن بني صدر، وهو لم يكن مـن أصحاب العمائم، ثم تولى آية الله عليّ الخامنئي، الذي صـار مـرشـدًا أعلى بعد وفاة زعيمـهـم الخوميني، ثم آية الله هاشـمي رافسـنجاني، ثم آية الله محمد عليّ خاتمي، إلا أن اسـتطاع أحد رجال السياسـة تبوؤ هذا المنصب نتيجـة انتخابات 2005 وهو أحمدي نجاد الذي كان محافظ طهران ولم يتقلد أية درجة علمية من الحوزة العلمية بمدينة قـم أو غيرها، وانتزعـه مـن زعيم ديني له ثقله كرئيس سـابق للبلاد ورئيس لمجلس تشـخيص النظـام وهو آية الله هاشـمي رافسـنجاني، وتـأتي انتخابـات 2009 ليعلن آية الله محمد علي خاتمي انسحابه من مقارعة السيد نجاد في صناديق الاقتراع؛ ليقطع أن النموذج الشيعي للإمامة المطبق حاليًا في إيران شهد تحولات متلاحقة في شأن ما يشترط من كفاءة ودراية شرعية لمن يتولى مسند القيادة. ثم فـاز من بعده الرئيس السابع حسن روحاني، وهو مدني.رغم أنه من أصحاب العمائم، وقد تلقى تعليمًا دينيًّا في حوزة قم، وتوقف عند درجة مـجتهد، وأكمل تعليمًا مدنيًا ونال شـهادة البكالوريوس في الحقوق من جامعة طهران، ثم أكمل تعليمه ليحصل على شهادة الدكتوراه في القانون من بريطانيا.

ولاية الفقيه عند فقهاء أهل السنّة

سبق الإمام أبو المعالي الجويني، وهو أحد علماء السنّة، علماء الشيعة في التعرض لحالة خلو الزمان من الأئمة المستجمعين لشرائط الإمام، وقد خلص الجويني، وهو الملقب بإمام الحرمين، في كتابه «غياث الأمم في التياث الظلم» إلى أنه في هذه الحالة وعند تولي الحكم سلطان لم تتوافر له شروط الاجتهاد، فإنه يجب على هذا الحاكم أن يلتزم آراء العلماء، فيقول الجوينى: (إن الحاكم يجب عليه مراجعة العلماء فيما يأتي ويذر فإنهم (أي العلماء) قدوة الحكام وأعلام الإسلام وورثة النبوة وقادة الأمة، وسادة الملة، مفاتيح الهدى ومصابيح الدجى وهم على الحقيقة أصحاب الأمر استحقاقا، وذوو النجدة - أي السلاطين أو الحكام الذين استولوا على السلطة دون أن تتوافر فيهم شروط الاجتهاد - مأمورون بارتسام مراسمهم، واقتصاص أوامرهم والانكفاف عن مزاجرهم. وإذا كان صاحب الأمر (يعني السلطان أو الحاكم) مجتهدًا فهو المتبوع الذي يستتبع الكافة في اجتهاده ولا يتبع، أما إذا كان سلطان الزمان لم يبلغ مبلغ الاجتهاد فالمُتبعون العلماء والسلطان نجدتهم وشوكتهم وقوتهم).

ويعلق الدكتور محمد سليم العوا على اجتهاد الإمام الجويني في صدد خلو الزمان من الأئمة المستجمعين لشرائط الإمام بقوله: (إن الجويني يرى أن

العلماء هم في الحقيقة الذين يجب أن يكونوا حكام الأمة، أو الدولة الإسلامية، إذا لم يوجد شخص يستحق منصب الخلافة بشروطه المحددة في الفقه السياسي الإسلامي. وهو لا يجعل العلماء - كما يفعل غيره من الفقهاء - من أهل الحل والعقد بمكانتهم المعروفة في الفقه الإسلامي، وإنما يجعل الحكم إليهم والحاكم المحتكر لقوة السلطة تابعًا لهم). ويستطرد الدكتور العوا لعقد مقارنة بين اجتهاد الجوينى ونظرية ولاية الفقيه كما صاغها الخوميني فيقول: (ويبدو من ذلك وضوح الشبه بين نظرية ولاية الفقيه كما يعرضها آية الله الخوميني ومكانة الفقهاء عند الجويني. وإذا كان الخوميني يرى للفقهاء الولاية نفسها في حالة عدم وجود الخليفة الشرعي الذي يحكم الدولة الإسلامية. وإذا كان فقهاء الشيعة على مر العصور بدءًا من الشيخ الصدوق ثم الجزيني والكركي والنراقي الذي كان أول من استخدم مصطلح ولاية الفقيه مرورًا بالشيخ مير فتاح حسين المراغى ثم النورى وبعده النائيني، وصولًا للإمام الخوميني والصياغة الأخيرة لنظرية ولاية الفقيه قد شيدوا دعائم النظرية على أساسٍ من كتاب الله والأحاديث المنسوبة لرسول الله ﷺ والأئمة من ذريته -رضوان الله عليهم- فإن منهج الإمام الجويني في إثبات نظريته قام على النظر إلى حاجة النظام السياسي والحكومة الإسلامية ووجوب أن يقوم عليها عالم بالكتاب والسنَّة حتى في حالة أن غلب على مسند الولاية من لا يتوافر له العلم والاجتهاد، فيكون الفقيه هو الحاكم الحقيقى).

وهكذا بعد أن عاش أتباع المذهب الشيعي منذ غيبة الإمام المعصوم - في اعتقادهم - ينتظرون عودته لتقوم الدولة الإسلامية، أصبح في إمكانهم من خلال نظرية ولاية الفقيه العيش في ظل دولة إسلامية تتخذ من الشريعة قانونًا وتقيم على أساس الإسلام بناء مؤسساتها، وإذا أحسن دعاة وحدة الأمة الإسلامية فهم موقف الخوميني من هذه المسألة، والتعامل معه فإنه قد يكون لذلك أثره في التقريب بين أبناء الفرقتين الإسلاميتين الكبيرتين: السنة والشيعة.

الإسلام السياسي على أرض سوريا

عرفت الشـقيقة سوريا الفكر السـلفي مبكرًا بالمقارنة بدول المنطقة الأخرى. فقريب من بلاد الشـام كانت شرارة الدعوة الوهابية قد انطلقت في القرن الثامن عشر الميلادي في جزيرة العرب. شـكلت دعوة محمد بن عبد الوهاب بن سـليمان آل مشرف التميمي وتحالفه مع مؤسـس الدولة السـعودية الأولى محمد بن سعود بن محمد آل مقرن علامة فارقة في تاريخ المنطقة بأسرها. لم تكن سوريا بعيدة عن منطقة النفوذ الوهابي رغم أن السائد في عموم الشعب السوري المتدين بطبعه هو التوجه الصوفي والإسلام الشعبي القريب جدا من إسلام المصريين.

كان صاحب السـبق في نقل الفكر السلفي إلى سوريا هو أحد مشاهير الدعوة السـلفية في القـرن العشرين وهو الشـيخ محمد نـاصر الدين الألبـاني المولود عام 1914 في ألبانيـا، ثـم هاجر وهو صغير مع عائلته عام 1922 إلى سـوريا. ونشـأ الألبـاني في أسرة فقـيرة للغايـة. وكان تعليمه دينيًـا بحكم أنه أقل أنـواع التعليم كـُلفـة، درس عـلى المذهـب الحنفـي في مراحل دراسـاته الجامعية وبـرع في علم الحديـث.. شـارك الألباني في حمـلات الحفاظ عـلى الهوية الإسـلامية التي كانت تتعـرض للتغريب فترة الانتداب الفرنسي.. وكتب عدة مقالات في علم الحديث والآثار السيئة على الأمة التي انتشرت بسبب شيوع الأحاديث الضعيفة.

تزامن ظهور الألباني مع الظهور الأول لجماعة الإخوان المسلمين في أرض الشام من خلال مجموعة من الجمعيات كانت بمثابة واجهة عملهم الأولى مثل جمعية دار الأرقم في حلب عام 1936، وجمعية الرابطة الدينية في حمص عام 1938 وجمعية أنصار الحق في دير الزور عام 1939.. ثم اجتمعت هذه الجمعيات بعد ذلك في نسق واحد تحت اسم (شباب محمد)، وفي عام 1944 تحولت الجمعية الأخيرة إلى مؤتمر تأسيسي لجماعة الاخوان المسلمين بقيادة الدكتور مصطفى السباعي صاحب الصلة الوثيقة بحسن البنا ومكتب الإرشاد العام بالقاهرة. والذي سيكون بعد ذلك المراقب العام الأول للجماعة في سوريا..

ارتبط الألباني بعلاقة وثيقة مع الإخوان لكن الثابت أنه لم ينضم يومًا إليهم، ولم يمنعه عدم انخراطه الرسمي في صفوف الجماعة من أن يكون أحد المنظرين لسجالات كانت تدور داخل جماعة الإخوان في بدايتها الأولى، حيث كان الصراع عنيفًا داخلها بين جناحين أحدهما سلفي والآخر صوفي، وكان الألباني بالطبع مقربًا من الجناح السلفي من الإخوان الدمشقيين الذي كان بزعامة مصطفى السباعي ومحمد المبارك، ثم عصام العطار وزهير الشاويش، ودخل في سجالات عنيفة مع الجناح الصوفي لإخوان حلب بزعامة عبد الفتاح أبو غدة، وكذلك أصحاب نفس التوجه من إخوان حماة بزعامة سعيد حوى.

ذاع صيت الألباني سريعًا؛ صار للرجل أتباع ومنهج يؤطر الحالة السلفية. تكاثر تلاميذه الذين لعبوا دورًا مهمًا جدًا وكان لهم أثر بالغ في تحولات السلفية الوهابية المعاصرة في الخليج العربي عمومًا، والسعودية خصوصًا، وكان على رأسهم الشيخ محمد المبارك المتوفى عام 1982، وهو من الذين ساهموا في ولادة التيار الصحوي السعودي، الذي جمع بين السلفية الحركية الإخوانية القطبية والسلفية النجدية الوهابية، وتضافر معه في صياغة معالم هذا التيار مجموعة منهم: الشيخ الشهير عليّ الطنطاوي، ومحمد أمين المصري، ومحمد قطب وهو شقيق سيد قطب.

كانت الشخصية الثانية في حجم التأثير التي ساهمت في تشكيل تيار جديد من السلفية عرف بتيار السلفية الحركية مقابل السلفية التقليدية - الألبانية في منطقة بلاد الشام هو محمد سرور بن نايف زين العابدين، أحد أبرز الفاعلين السوريين المعاصرين في التيار السلفي المعاصر، فقد تمكن من تأسيس سلفية خاصة باتت تعرف بـ «السرورية» أو ما بات يُسمى بتيار الصحوة في السعودية.

ومن نافلة القول أن سرور سوري الجنسية ينحدر من منطقة حوران. عمل ضابطًا في الجيش ثم ضابط استخبارات، ثم انضم بعد تقاعده إلى صفوف جماعة الإخوان في سوريا في حقبة الخمسينيات، واقترب بشدة من التيار القطبي في الجماعة حين برزت ميوله السلفية بتأثير سيد قطب وناصر الدين الألباني، وشرع بمواجهة الميول الصوفية داخل الجماعة. غادر سوريا إلى السعودية في عام 1965، وتعاقد للعمل في المعاهد العلمية التابعة لجامعة الإمام محمد بن سعود بالأحساء ثم رحل إلى معقل الدعوة الوهابية بالقصيم. وهناك اشتغل في تدريس الرياضيات والدين في حائل وبريدة، قبل أن تأمره السلطات السعودية في عام 1973 بمغادرة البلاد، متوجهًا إلى الكويت لفترة محدودة، ثم ليجد طريقه إلى لندن ويؤسس مدرسة سلفية جديدة.

انفصل سرور عن جماعة الإخوان خلال وجودة في السعودية. وصرف جهده لتأسيس جماعته الخاصة في منطقة القصيم حيث كان يقيم، وكان ينظر إلى الجماعة التي أسسها في البداية باعتبارها جماعة إخوانية. لكن مع الوقت برزت الفروقات بينها وبين الجماعات الإخوانية الأخرى، بتأكيد أبنائها أهمية الجانب العقائدي والعلمي الشرعي في الدعوة.

الغريب أنه على الرغم من خروج محمد سرور من السعودية فإن تلاميذه المتأثرين به تزايدوا، وبرز منهم أسماء صارت بعد ذلك نجومًا لهم أتباع على رأسهم: الدكتور سفر الحوالي، والدكتور سلمان العودة، والدكتور ناصر العمر، والدكتور عائض القرني، وراح سرور يبث من لندن أفكارًا جديدة داخل

الأوساط السلفية بلغت مدى واسعًا حتى شكلت مدرسة مستقلة أطلق عليها السلفية السرورية، واشتهروا بالجمع بين السلفية في جانبيها العقائدي والعلمي المتشدد من جهة، والحركية الإخوانية والاهتمام بالشأن السياسي والحديث فيه من جهة أخرى، وذلك على خلاف المألوف لدى المؤسسة التقليدية السلفية التي قبلت بتقاسم الأدوار بين المجالين الديني والسياسي.

لم يتوقف نشاط محمد سرور في لندن، وبقي تأثيره ملحوظًا في أوساط السلفيين في السعودية، بل وفي خارجها، وأسس في سبيل ذلك في الثمانينيات من القرن الماضي المنتدى الإسلامي، ثم أصدر مجلة السنّة، التي تلقفها بشغف الشباب السلفي، على الرغم من منعها في أغلب البلدان العربية

خلال تلك الحقبة، كان نجم الألباني يسطع بوصفه أحد أبرز الرموز السلفية سواء في سوريا أو على مستوى العالم، فشرع في بلورة نظريته للعمل الإسلامي، ونضجت وجهته تحت تأثير سيطرة البعث على الحكم في سوريا؛ إذ تعرض للاعتقال والسجن مرتين بسبب نشاطه ورحلاته ودروسه التي كان يقوم بها إلى المساجد وبعض المجالس في سائر أنحاء سوريا. ومن جملة التهم التي وُجهت إليه أنه يقوم بدعوة وهابية تشوش على المسلمين البسطاء دينهم، ومع بروز التيار السلفي بالجزيرة العربية دُعي إلى التدريس في السعودية، فرحل إلى هناك والتحق بالجامعة الإسلامية في المدينة المنورة، بل وتم اختياره عضوًا في المجلس الأعلى للجامعة الإسلامية في الفترة من عام 1975 م إلى 1978 م.

بدأت رؤية الألباني للسلفية التقليدية تتطور وتختلف بشكل كبير وخصوصًا بعد فشل السياسيات التي اتبعتها المدارس السلفية المختلفة في العالم الإسلامي، فقد آلت السلفية الإصلاحية في صورتها الأولى إلى الضمور والانزواء بعد وفاة: الأفغاني، وعبده، ورشيد رضا. أما السلفية الوطنية في المغرب فقد فقدت بريقها عقب الاستقلال وذهاب الاستعمار المباشر وغياب شخصيات لها كاريزمتها وقامتها العلمية أمثال: علال الفاسي، ومالك بن نبي. وفي السعودية أخذت

السلفية الوهابية في الانحسار والانشقاق بعد أن تحولت إلى هيئات ومؤسسات رسمية خاضعة للدولة، في الوقت الذي شهد الوطن العربي صعودًا للتيار القومي واليساري، وكذا تباشير الفكر الشيوعي، وهيمنته على مجمل الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وانحسار الفكر الإصلاحي الإسلامي.

■ تيارت سلفية جديدة على الساحة السورية..

ظهرت تيارات إسلامية أكثر راديكالية وثورية تبنت خطابًا جهاديًّا دمويًّا، بعد أن فشلت الدولة القومية ذات التوجهات المدنية في تحقيق الاستقلال التام، وأخفقت في المسار الاقتصادي في تحقيق التقدم والازدهار لشعوبها، ثم جاءت هزيمة يونيو 1967 لتشكل نقطة تاريخية فاصلة في تحديد المسار الفكري والسياسي للدعوة السلفية التقليدية الألبانية. فبعد الصراعات الدامية بين الإخوان المسلمين والنظام في سوريا، استقر الألباني في الأردن عام 1980 حتى وفاته، بعد أن استقر بعد طول صراع على تصوره المعروف بالابتعاد عن العمل السياسي والحزبي، واعتباره مشغلة عن العلم الشرعي النافع، متبنيًا استراتيجية التصفية والتربية باعتبارها «خارطة العمل» المعتمدة لدى مدرسته الفكرية.

من المفيد أن نشير هنا إلى أن نهاية السبعينيات في الوطن العربي شهدت ظهور الحركات الإسلامية السلفية الجهادية؛ ففي مصر صعدت جماعات التكفير والهجرة والجهاد والجماعة الإسلامية عقب إطلاق السادات لسراح أعضائها عام 1974، وفي أفغانستان كان الجهاد الأفغاني قد أطلق نفيره. ودخل مرحلة الاستقطاب العالمي. وأدارت القوى العالمية صراعاتها على جبهة أفغانستان. وتم تدشين ظاهرة الأفغان العرب بفصل عبد الله عزام، ثم تأسيس تنظيم القاعدة بزعامة أسامة بن لادن، وفي السعودية ظهرت حركة جهيمان بن سيف العتيبي التي سنتناولها في معرض الحديث عن الإخوان النجديين، وكان الألباني قد اتهم بأنه المنظِّر الرئيس لهذه الحركة، ومُنع على إثرها من دخول السعودية.

برزت على أرض الواقع في سوريا قوى سلفية جديدة تسمت بـ «الطليعة المقاتلة للإخوان» التي تعتبر بداية ظهور السلفية الجهادية في سوريا، وكان واضع لبناتها الأولى هو السوري مروان حديد الذي اعتنق فكر سيد قطب. وسرعان ما اعتقلته حكومة حافظ الأسد، وتوفي في سجنه عام 1967. وقد ظهر لاحقًا

عـدد مـن منظّري السـلفية الجهادية في العالم مـن أتباع الطليعة المقاتلة السـورية، ومـن أبرزهـم: أبو مصعب السـوري، وهو الاسـم الحركي لمصطفـى عبدالقادر ست مريم، ويعرف بعمر عبد الحكيم، وأبو بصير، ومصطفى عبد المنعم حليمة. وفي حلب برز نجم الشـيخ محمود قول أغاسي إبـان الاحتلال الأمريكي للعراق بخطابه السـلفي الجهادي، وبتدريب مجموعات مـن أتباعه على القتال في العراق تحت سمع وبصر الحكومة التي كانت تستخدمه لمصلحتها، وقد اغتيل في سبتمبر 2007 في عمليـة تبنتهـا جماعـة أطلقـت عـلى نفسـها «التوحيد والجهـاد في بلاد الشام».

ساهمت ضربات النظام السوري الذي كان يحاصر ويقزم الحركات الإسلامية في بدء انتشـار دعوة الشـيخ السلفي السوري المعروف جودت سـعيد ،و المنادية بمبدأ «سـلمية الدعوى» والتركيز على المقاربة الثقافية، بدلًا من الشأن السياسي. وقـد عـزّزت أفكار جودت سـعيد من قناعـة الألباني وتلاميذه بخطـورة العمل السـياسي ومضرته على نـشر أفكارهـم التـي تركز على تصحيـح العقيدة وتصفية العلـوم الدينيـة من البدع والأهـواء والتركيز على الجانب الـذي تميز فيه الألباني، وهو تحقيق كتب التراث وتنقيح الأحاديث النبوية.

واستقرت الرؤية السلفية الإحيائية المحافظة للألباني في السبعينيات؛ إذ التف حوله عدد من الشـباب وطلبة العلم الشرعي، ليشـكّلوا اتجاهًا سلفيًّا يتوافر على رؤية تقليدية خاصة في العمل الإسلامي، يتمتع الألباني في سوريا بدعم وتشجيع جمـع من العلماء السـلفيين والإصلاحيين أمثـال: محمد بهجت البيطار، والشـيخ عبدالفتاح الإمام، والشيخ حامد التقي، والشيخ توفيق البزرة.

وبرزت السـلفية التقليدية الألبانية في سـوريا في عدد من طلابه، وخصوصًا محمد عيد عباسي، ونسـيب الرفاعي، ومحمود مهدي إسـتنبولي، ونافع الشـامية، وعليّ خشّـان. وأحمد سـلام، وعدنان العرعور الذي ستكون له تحولات دامية في وقتنا الراهن.

بدأ الألباني في هذه المرحلة يطور مقولة سوف تصبح شعارًا لدعوته «التصفية والتربيـة» وهي ترجمة عملية للسـلفية التقليدية التي بـشر بها من خلاله الدروس التـي كان يلقيهـا في جولاتـه في مختلـف مـدن ومحافظـات سـوريا، بالإضافة إلى الـدروس التـي كان يُدعـى إلى إلقائهـا في الأردن عن طريق الإخوان المسـلمين، وخصوصًا شـعبة مدينة الزرقاء التي كانت أقرب إلى الاتجاه السـلفي، وكان من أعضائهـا الشـيخ عبد الله عـزام، وديب أنيـس، وكان يحضرها عدد من المشـايخ والأساتذة في الأردن، أمثال: د. أحمد نوفل، وأ. محمد إبراهيم شقرة.

وعلى الرغم من اشـتغال الألباني بالكتابة والتأليف والدعوة، فإنه بقي يعمل في دكان له في مهنة تصليح الساعات التي أخذها عن والده، فكانت مكانًا للدعوة والدراسـة في الوقت نفسـه. وعندمـا ضاقت عن اسـتيعاب الحضـور والأتباع، اسـتأجر أتباعـه وأنصاره مكانًا مسـتقلًا خاصًـا بالدعوة السـلفية وتلقي العلوم الشرعية للشـيخ الألباني، ثم تفرّغ بعدها للعمل مع المكتب الإسلامي الذي تولى نشر التراث السـلفي التاريخي والوهابي. وكان صاحب المكتب الإسـلامي زهير الشـاويش، أحد رموز التيار الإخواني – السـلفي، وتمكـن الألباني في هذه الفترة مـن إخـراج عدد كبير من مؤلفاته ،وفي مقدمتهـا إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل عن طريق المكتب الإسلامي.

كثـر أتبـاع الألباني وأنصاره في سـائر أنحاء العالمين العربي والإسـلامي، فقد تتلمذ على يديه ودان له بالولاء عدد من العلماء الذين أسسوا في بلدانهم سلفيات مختلفـة لها مميزاتها الخاصـة بفعل تكيّفاتها مع الظروف والأوضـاع المختلفة. ففي العراق عمل الشيخ حمدي عبدالمجيد السلفي على نشر تراث شيخه الألباني، وفي الكويت برز الشيخ عبدالرحمن عبدالخالق وهو الأب المؤسس للسلفية الكويتية، وفي اليمن ظهر الشـيخ مقبل الوادعي، وفي مصر ظهر أبو إسـحاق الحويني، وفي لبنان الشيخ سالم الشهال، وفي الأردن الشيخ محمد إبراهيم شقرة.

وعلى الرغم من هذا الرصيد الكبير في الأوساط السلفية للألباني، فإن الثابت أن الرجل لم تكن لديه اهتمامات سياسية مباشرة، فلم يُعرف عن الشيخ دخوله المعترك السياسي، ولا التنظير والتأليف في المسائل السياسية، باستثناء الفتاوى المختلفة التي كان يصدرها بعد سؤاله واستفتائه في قضايا معينة، وهي مسجلة على عدد كبير من الأشرطة وبعض الكُتيبات.

إلا أنّ هذا الاتجاه المسالم لدى «السلفية الألبانية» لم يكن ليشجّع الدولة على الاقتراب بعين الرضا من الاتجاه السلفي، وعانى حالة أقرب إلى الحصار والتضييق الرسمي، بل احتضنت الدولة عمليًا الطرق الصوفية، وقربت علماءها وشيوخها، مثل: الشيخ أحمد كفتارو، والشيخ الشهيد محمد سعيد رمضان البوطي، والشيخ أحمد حسون، وغيرهم، وبقيت السلفية خارج السياق الرسمي في المشهد العام السوري، رغم أن لها أتباعًا هنا وهناك، متأثرين بأفكار الألباني (الذي غادر نهائيًّا في نهاية السبعينيات)، وكذلك العاملون في الخليج العربي، وتحديدًا في المملكة العربية السعودية.

وجاءت حقبة الثمانينيات التي شهدت مواجهات عسكرية دامية مع تيار الإخوان المسلمين خصوصًا في حماة ليشهد التيار السلفي بمدارسه وتياراته المختلفة. ذبولًا وكمونًا كبيرين، تحت وطأة الضربات القاسية للدولة للإخوان ومن يتحالف معهم ولو على سبيل الاحتمال، وتم التضييق على الحركات الإسلامية السياسية عمومًا.

وهاجر أغلب الأسماء السورية اللامعة من التيار السلفي خارج سوريا، مثل: محمد العبدة، وعدنان العرعور، ومحمد المنجد، ومحمد عيد عباسي (أحد أبرز تلاميذ الألباني الذي اعتقل عشرين عامًا في سوريا، قبل أن يُفرج عنه في نهاية التسعينيات ويغادر إلى السعودية)، ومحمد لطفي الصبّاغ، وعبد الكريم بكار.

■ سوريا والسلفية الجهادية..

في السنوات الأخيرة من عهد الرئيس السوري حافظ الأسد، تشكل الطور الأول للسلفية الجهادية وسط بيئة إقليمية ودولية شهدت عدة صراعات ساخنة، مثل حرب الخليج الثانية، التي أعقبها حصار اقتصادي مروِّع للعراق، والعشرية السوداء في الجزائر، والمجازر المروعة في البوسنة ضد المسلمين، بالإضافة إلى انتهاء حرب أفغانستان وما صاحبه من عودة الكثير من الأفغان العرب إلى بلادهم، وقد واكب ذلك كله انفتاح محدود على العالم الخارجي سمح بالإطلاع على معاناة المجتمعات المسلمة في الخارج؛ إذ انتشرت في ذلك الوقت، وعلى نطاق لا بأس به، أشرطة فيديو وكتب ومقالات تتحدث عن مجازر البوسنة والهرسك وجهاد الأفغان العرب. وفي منتصف التسعينيات أُعلن «الجهاد» ضد الروس؛ من أجل استقلال الشيشان؛ أسوة بالدول التي كانت ملحقةً بالاتحاد السوفيتي.

كل ذلك خلق مناخًا يغري الأجيال الشابة بالتفكير الجهادي، ليتشكل جيل جديد من الجهاديين يجمعهم مجرد اهتمام مشترك بهذا الموضوع؛ وهي رغم تشابهها فكريًّا مع تفكير الطليعة السورية المقاتلة في نسختها الأخيرة فإنها بالتأكيد لا تنبت من الذاكرة الإسلامية السياسية السورية في الثمانينيات ولا حتى من أدبيات الطليعة المقاتلة مباشرة، بقدر ما تشربت معنويًا من رموز الجهاد الأفغاني والقوقازي، وبشكل أكثر خصوصًا من كارزمية الشيخ عبد الله عزام الذي تحوَّل إلى رمز الجهاد الأفغاني العربي بعدما قُتل عام 1993 في سيارته مع اثنين من أبنائه في باكستان، بالإضافة إلى بعض رموز الصحوة الإسلامية السلفية الجديدة الصاعدة في السعودية. لكن الجدير ذكره هنا أن عزام في الحقيقة كان يمثل مفصلًا في تطور فكر الطليعة المقاتلة نحو قاعدة الجهاد العالمي.

كانت الانتفاضة الفلسطينية الأولى، التي اشتعلت في 1987 واستمرت حتى 1993، قد ألهبت مشاعر الأجيال الفتيّة وأثارت حماسهم، فعمليات المقاومة

الإسـلامية الفلسـطينية التي كانت تقوم بها «حماس» و«الجهاد الإسلامي» كانت تثير الإعجاب على نطاق واسـع، وذلك بجوار ما يحدث في جنوب لبنان، حيث بدأت المقاومة اللبنانية ممثلة في حزب الله منذ 1994 تحقق انتصارات مدوية ضد جيـش الدفـاع الإسرائيلي. ولم يكن تأثيرهـا بالطبع أقل من جارتيها في فلسـطين رغـم تنغيص الاختلاف الطائفي السـني الشيعي. لكن ذلك لم يمنع قبول القوى الجهادية بسوريا وانفعالها الشديد بالمقاومة اللبنانية وبطولات حزب الله.

مـن جهة أخـرى، كان الاتحاد السـوفيتي الذي طالما شـكّل سـندًا قويًا لنظام الأسـد قد انهـار وتفتت، ومُنيـت العقيدة الماركسـية بهزيمة نهائيـة، وهو أمر زاد الاهتمام بالإسـلام على مسـتوى محلي وعالمـي، وقد عمل النظـام على دعم بعض الرموز الدينية التي تحالفت معه، بشكل خاص تلك التي عُرفت بعدائها للإخوان المسـلمين، للتحكم في الفكر الجهادي الدموي الذي بدأ ينتشر في سوريا والمنطقة عمومًـا، بل إن تصاعد الصحوة الإسـلامية وبروز نجم الحركات الإسـلامية في الدول المجاورة دفع الشـيخ الجليل محمد سـعيد رمضان البوطي شهيد المحراب أبرز خصوم الجهادية السلفية وأقرب الرموز الدينية إلى الحكومة وعموم الشعب في ذلـك الوقت، وكـذا المعروف بعدائه لجماعـة الإخوان المسـلمين، إلى مواجهة الفكر الجهادي الذي بدأت بذوره تنمو فقهيًا بسـطر كتابه المهم «الجهاد في سـبيل الله: كيف نفهمه؟ وكيف نمارسه؟» وذلك عام 1993م.

وباليقين، أسهمت التطورات والأحداث المتسارعة والانفتاح غير المحدود في وسائل الإعلام والتقدم في وسائل الاتصال إلى انتشار مزاج جديد معادٍ لأمريكا والأنظمـة العربية بوجه حاد على وجه العموم بين الأجيال الشـابة حديثة السـن التـي لم يكن لها تجربـة أو كثير فقه. هذا المزاج كان يـؤدي في الغالب إلى اعتناقهم أفـكارًا سـلفية جهادية بشـكل فردي، سـهّلت وسـائل الاتصال تـداول أدبياتها ومكتبتها المرئية بشكل كبير.

كانت هـذه المكتبة المتداولة تسـتند بطبيعة الحـال إلى تجربة مجاهـدي الأفغان العـرب، ولم يكن بمقدور معتنقيها أن يتحولوا إلى عمل تنظيمي، فعمق المواجهة الدمويـة في الثمانينيات تـرك آثارًا لا تمُحى؛ فالخوف مـا زال عميقًا، إلى درجة أنه لم يكن مقبولًا مجرد التفكير في أي تنظيم يتبنى العنف في المجتمع السـوري، ومع انسداد الأفق الداخلي اتجه تركيز قوى السلفية الجهادية الجديدة تلقائيًّا إلى الخارج، مما عزز عقم التربة السورية في تقبل البذرة السلفية الجهادية.

■ السلفية الجهادية المسيسة..

أصدر أبو مصعب السوري (أحد قيادات الصف الثاني في تنظيم الطليعة المقاتلة وأحد رموز القاعدة) بيانًا بمناسبة وفاة الرئيس حافظ الأسد، يشكو فيه مُر الشكوى من خيبة أمله في إعراض السوريين عن الجهاد، وأشار بشديد مرارة إلى أن: «كثيرًا منهم قد رضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها، وسيرفضون هذا الكلام، بل سينتقمون ممن يدعون إليه، وأعلم أن كثيرًا من علماء السوء ومشايخ الضلال، وعميان البصيرة، سيصرفون الناس عن هذا الكلام، وأنه من عام 1986 إلى عام 2000 أُخمدت بذور المقاومة الجهادية لدى أهل السنّة».

وباليقين أدت أحداث 11 سبتمبر إلى تحفيز الجهادية السلفية في كل مكان؛ وسهّل دخول الإنترنت إلى سوريا التواصل مع العالم الجهادي الافتراضي، في وقت كانت السلطات السورية تجري اعتقالات وتحقق في الصلات المحتملة مع تنظيم القاعدة بالتعاون مع المخابرات الأميركية، فاعتقل العشرات، واستدعي كل من يُشتبه في انتمائه إلى التوجه السلفي (ليس بالضرورة جهاديًّا)، وتم التحقيق معه للتأكد من خلوه من الأفكار الجهادية وعدم ارتباطه بأي تنظيم إرهابي. وكان بين الذين اعتُقلوا في ذلك الوقت شاكر العبسي الذي أصبح لاحقًا زعيم تنظيم جهادي جديد في لبنان اسمه فتح الإسلام.

في الفترة التي كانت تجري فيها التحضيرات لاحتلال العراق، ومع اقتراب موعد الهجوم الأميركي مع قوات التحالف لاحتلال العراق، كانت الأجواء تشحن على كل المستويات السورية الرسمية، إعلاميًا وشعبيًا، باتجاه صناعة واستقبال موجة الجهاديين الجدد على أساس مواجهة استباحة الغرب الكافر للأراضي المسلمة. تبادل الشيوخ الرسميون والشيوخ المتحالفون مع الحكومة السورية الأدوار في هذا التجييش الجهادي، بالإضافة إلى تصريحات السياسيين الرسميين. ففي 26 مارس 2003، دعا مفتي الجمهورية الشيخ أحمد كفتارو

المسلمين في كل أنحاء العالم إلى الجهاد، و«استخدام كل الوسائل الممكنة في هزيمة العدوان، بما في ذلك العمليات الاستشهادية ضد الغزاة المحاربين»، وهي دعوة أعادها الشيخ الشهيد البوطي في خطب الجمعة، حيث حثّ فيها المسلمين الشباب على التوجه إلى الأجر العظيم الذي ادخره الله عزّ وجلّ للمقاتلين في جهاد الفريضة التي لم تتجلَّ أسباب فريضتها في عصر من العصور كما تجلت في هذا العصر في أرض العراق الإسلامية. وعلى الخط نفسه سار شيوخ كثيرون. وهكذا التقى المشايخ الرسميون والسلفيون والإخوان لأول مرة على طريق الجهاد في العراق.

وفي ظل هذا التجييش، بدأ نجم الشيخ الشاب محمود قول آغاسي في منطقة فقيرة جدًا بمدينة حلب الشمالية يصعد بشكل فجائي، حيث تبنى خطابًا سلفيًّا جهاديًا علنيًا، فكان يدرب أتباعه على العمليات القتالية في المسجد (مسجد علاء بن الحضرمي) تحت سمع وبصر الحكومة، بل وراجت أقراص ليزرية مدمجة على نطاق واسع تصور هذه التدريبات باللباس العسكري المرقط، إضافة إلى الخطب الجهادية الحماسية، فكان له دور مهم وملتبس في تجييش الشباب الناشئة وتعبئتهم إلى الجهاد، الذي انطلق في العراق توًا.

لكن الحال انقلب فجاءة في خريف 2003، حيث صدرت فتاوى من جماعات جهادية في العراق بإهدار دمه، باعتباره كان «مصيدة أمنية لمئات الشباب الذين صدقوا دعوته» فاختفى الرجل ليعود إلى الظهور بعد سنتين مهذب اللحية إمامًا وخطيبًا سلفيًّا إصلاحيًّا في جامع الإيمان بحي حلب الجديدة الراقي (في مدينة حلب)، تائبًا من الجهاد، ثم لقي حتفه في عملية اغتيال في 28 سبتمبر 2007 تبنتها جماعة أطلقت على نفسها التوحيد والجهاد في بلاد الشام.

اندفع مئات الشباب السوريين إلى العراق، سريعًا تشكلت «لجان نصرة العراق» لتسهيل تطوُّع الشباب ونقل قوافلهم إلى ميدان الحرب، لكن الحقيقة أن معظم المتطوعين للحرب والجهاد في العراق لم يلتحقوا بساحة القتال بناء

على فكر سلفي جهادي، بقدر ما كانت تقودهم مشاعر مختلطة من النخوة العربية والإسلامية، وفي أذهانهم استلهام تجربة حزب الله الناجحة في جنوب لبنان ودحره للإسرائيليين عام 2000. لكن جرى استدعاء كثير من العائدين للتحقيق، فكان طريق العودة ليس بسهولة طريق الذهاب.

في 27 مارس 2004، بدأت الضغوط تتكثف على سوريا بمبررات عديدة من قِبل الأميركيين وقوات التحالف، لوَّحت الحكومة السورية بالفزاعة الإسلامية، فأعلنت عبر وكالة سانا الرسمية للأنباء وقوع اشتباك في مدينة دمشق بين مجموعة مسلحة وُصفت بالإرهابية، وعناصر الأمن في عملية هي الأولى من نوعها في سوريا، منذ أحداث الثمانينيات، شكّك الكثيرون في مصداقيتها، ولم يأخذها الإعلام الغربي نفسه على محمل الجد، وساد اعتقاد بأن «العملية صنّعت محليًا»، ثم توقف الإعلان عن عمليات جهادية أخرى.

في مطلع يونيو 2005، صرّح وزير الداخلية آنذاك غازي كنعان خلال اجتماع للجنة الأمم المتحدة المكلفة بمكافحة الإرهاب بأنه «ليس هناك على الإطلاق أي نشاط للقاعدة أو لحركة طالبان في الأراضي السورية». الغريب أنه بعد شهر واحد فقط في 11 يوليو 2005 أعلن الوزير نفسه عن صدام مسلح أسفر عن ضبط مجموعات تكفيرية تطلق على نفسها اسم «جند الشام للجهاد والتوحيد» المرتبطة بتنظيم القاعدة، تلاها الإعلان عن حوادث شبيهة، والمرجح أن هذه العمليات تمت بالفعل من مجموعات محلية منعزلة وصغيرة ليس لها أدنى امتداد دولي.

الشيء اللافت للانتباه أن النسبة الأكبر من المعتقلين، بتهمة السلفية أو السلفية الجهادية أو الانتساب إلى تنظيمات «إرهابية» دينية متشددة، كانت من إقليم ريف دمشق والمناطق الريفية الأخرى، في حين كان أبناء المدن السورية الكبرى في المقابل نسبة ضئيلة من عدد المعتقلين؛ الأمر الذي يعزز الرأي القائل

إن الفقر والتهميش لهما دور مهم في تحفيز الفكر الجهادي بالتضافر مع السياسات المحلية والظروف الإقليمية.

وفقًا لذلك، لم تكن ثمة تنظيمات دينية سلفية جهادية بالمعنى الدقيق، وتشير الدراسات إلى تزايد مستمر في انتشار هذا الفكر السلفي الاحتجاجي، ونزوح العديد من الشباب السلفيين من الفكر الديني السلفي الدعوي أو لنقل التقليدي إلى السلفية الجهادية كان تحت ضغط تجربة السجن الطويل. ونادرًا ما كان بينهم من يحمل أفكارًا جهادية وكانت باليقين غير ناضجة، وأنه رغم ذلك لم تكن توجد في ذلك الوقت حتى في السجن أية جماعات تؤمن بالعمل الجهادي داخل سوريا.

ثم عاد للبروز بقوة تحول جديد نحو سلفية أنزوت لفترة، وبقيت محدودة الانتشار في إطار جماعة قد لا يزيد عددها على أصابع اليدين، هو السلفية اللاعنفية، وربما لم يشهد الفكر الإسلامي حتى هذا التاريخ حركة إسلامية، فضلًا عن السلفية تعتبر العنف أيًا كان، حتى لو دفاعًا عن النفس، عملًا غير مشروع، ويتزعم هذا التوجه الشيخ جودت سعيد الذي ينتمي إلى الأقلية الشركسية، والذي كان قد بدأ يعمل منذ مطلع الثمانينيات على نشر فلسفته الإسلامية عن اللاعنف، وقد سبق أن خبر معنى الاعتقال السياسي الذي تكرر معه مرات عدة.

تأثر جودت سعيد بفكر محمد إقبال (مفكر إصلاحي باكستاني) ومالك بن نبي (مفكر إصلاحي جزائري). وإذا كان جودت سعيد يبدو وكأنه قد أطلق نظريته عن اللاعنف كردّ فعل على أحداث الثمانينيات، فإن مرجعيته الفكرية، ودروسه التي كان يلقيها قبل ذلك لسنوات طويلة في جامع المرابط في دمشق، كانت تعكس خطًا فكريًا مختلفًا عن الإسلاميين آنذاك، وقد نشر في عام 1966 كتابه «مذهب ابن آدم الأول: مشكلة العنف في العالم الإسلامي»، الذي جاء ردًّا على اتجاه الإخوان المسلمين نحو ممارسة العنف السياسي. إن أهمية هذا الكتاب تكمن في أنه كان أول محاولة حقيقية لصياغة مفهوم لاعنفي إسلامي في التاريخ

المعاصر في الساحة السورية، وكونه أول ردّ مباشر على كتابات سيد قطب التي شكّلت الأساس الفكري لحركات العنف الإسلامي بسوريا.

لم يستطع جودت سعيد أن يشكّل جماعةً تؤمن بأفكاره إلا في مطلع التسعينيات، في وقت كانت أحداث كبرى قد بدأت تعصف بالعالم (سقوط الاتحاد السوفيتي) وبالمنطقة (حرب الخليج الثانية)، فكانت ثمة حاجة إلى فكر جديد. استطاع سعيد أن يملأ بعض الفراغ الرمزي الذي خلّفته حقبة الثمانينيات، إلا أن الجماعة ما لبثت أن بدأت تتفكك وتنحسر في نهاية التسعينيات تحت تأثير تصاعد الأحداث المحيطة بسوريا والتي كانت تدفع نحو التطرف والتشدد. ومع ذلك، حافظت الجماعة على نخبة من التلامذة المعجبين بآرائه، وبشكل خاص في الأوساط النسائية عبر تلميذته النشطة الداعية حنان اللحام (التي تتزعم جماعة نسائية خاصة بها)، وصهره خالص جلبي، أحد الكُتاب والمفكرين الإسلاميين المعروفين، ومجموعة من الناشطين الملتفين حول الشيخ السلفي عبد الأكرم السقا في مدينة داريا.

لم يكن مبدأ اللاعنف مجرد فكر تنويري ديني، ولكنه كان في جوهره فكرة سياسية إصلاحية. وبالرغم من أن شيخ الجماعة جودت سعيد لم يُبدِ أي تطلعات سياسية شخصية، في أي وقت من الأوقات، فإنه لم يخفِ رغبته بالتغيير السلمي للنظام السياسي.

تؤشر حادثة اعتقال «مجموعة داريا» عام 2003 على توسع تأثير فكر جودت سعيد عن اللاعنف، فقد خرج قرابة مائة شاب في تظاهرة صامتة صباح يوم سقوط بغداد رفعوا خلالها شعارات لمقاطعة البضائع الأميركية ومكافحة الفساد وتنظيف شوارع المدينة، إلا أن السلطات اعتقلت 24 متظاهرًا منهم في 3 مايو/أيار 2003، وأحالتهم إلى محاكم عسكرية ميدانية؛ كونهم ينتمون إلى تيار ديني إسلامي سلفي، وإن كان غير عنفي.

سقوط بغداد كان علامة فارقة لزعيم الجماعة السلفية اللاعنفية، فقد بدأ الشيخ جودت سعيد منذ ذلك التاريخ وفي كل المنتديات واللقاءات الفكرية العامة التي كان يحضرها يظهر مرتديًا سترة بيضاء كتب عليها بخط يده «الاتحاد الأوروبي»! ملخصًا بهذه العبارة فكرته السياسية بأن الاتحاد القائم على المصالح هو الحل بدل الصراع والعنف، وقد كان هذا الظهور الاحتجاجي بمنزلة أول نشاط واضح له يدل على مواقفه السياسية على العموم. انغمست الجماعة أكثر بالفكر السياسي، حتى وإن بقي تعبيرها عنه بمفردات دينية قرآنية، فقاد ذلك زعيمها إلى أن يكون أحد أبرز الموقعين على «إعلان دمشق للتغيير السلمي الديمقراطي»، وهو إعلان جمع المعارضة السياسية الحزبية والمستقلة، وأكمل عدد من تلامذته السير نحو المعارضة العلنية للنظام. وعندما انطلقت الثورة السلمية في منتصف مارس/ آذار 2011، بدأ نجم الشيخ جودت يبرز بقوة، فقد وجدت قطاعات لا بأس بها من الشباب في السلفية اللاعنفية فكرًا إسلاميًّا جاهزًا يمكنها أن تستند إليه، وصار مألوفًا ظهور رمز الجماعة (الشيخ جودت) وكلماته في لافتات المظاهرات السلمية، فكان هذا ذروة العهد الذهبي للسلفية اللاعنفية التي تراجعت بعد أشهر مع تحول الاحتجاج السلمي إلى معارك حربية وحرب عصابات مسلحة، اختلطت فيها الأوراق فلم تعد أفكار السلفية اللاعنفية تحظى بالاهتمام ذاته. بعد أن صارت سوريا الحبيبة مرتعًا لعصابات تتسربل باسم الدين والدين منها براء.

■ تحولات في خارطة التنظيمات السلفية..

تراجعت جاذبية سلفية اللاعنف بينما بدأت السلفية الجهادية بالصعود على نطاق واسع وبصورة دموية مع توافد المقاتلين الأجانب والدعم الدولي غير المحدود، ومع انتشار الكتائب أصبح من الصعوبة بمكان وضع خارطة تفصيلية لها، فالكثير من هذه الكتائب كان يتعرض للتحول والتطور أو الاضمحلال مع تدفق المتطوعين وتزايد الانتصارات التي تحققها على الأرض. على أنه في هذا السياق، لا ينبغي أن يكون تعريف الخارطة السلفية للكتائب العسكرية نابعًا من أسماء الكتائب وحدها، فلا تعكس هذه الأسماء دائمًا ميولًا سلفية حقيقية؛ ففي بعض الأحيان تكون التسميات مجرد براجماتية تهدف إلى اجتذاب ممولين خليجيين، أو تمليها مقولات دينية عامة تشكّل جزءًا من الخيال الديني الشعبي. وسرعان ما بدأ نوع من الفرز والتمايز بين الكتائب الإسلامية الجهادية وكتائب الجيش الحر؛ ففي حين تبدو الكتائب الإسلامية الجهادية متماسكة بعض الشيء ولها مرجعية فقهية منظمة، فإن كتائب الجيش الحر تبدو رخوة التنظيم، ومن ثمّ أقل فاعلية مقارنة بها.

وظهرت جبهة النصرة وهي الجيل الثالث للسلفية الجهادية بينما كانت المظاهرات في أوجها في أواخر صيف 2011، حينما قرر مقاتلون سوريون في دولة العراق الإسلامية التوجه نحو الريف الشمالي والجنوبي للاستطلاع، وانتهى الأمر بتقدير المآل إلى عسكرة الثورة، فتشكلت مجموعة من الكتائب الصغيرة أطلقت على نفسها اسم «كتائب النصرة لأهل الشام»، كان بين بعض عناصرها مقاتلون أجانب، وذلك بدعم مالي وعسكري من أمير دولة العراق أبي بكر البغدادي، وأعلنت عن نفسها في يناير 2012.

استفاد قادة جبهة النصرة من التجربة القتالية للدولة الإسلامية في العراق، والفشل الذي مُنيت به، فحاولوا استقطاب جميع أصحاب التجربة في العراق

وأفغانستان أو حتى في لبنان، والذين توثقت علاقات معظمهم في سجن صيدنايا العسكري حيث كان يُعتقل السلفيون الجهاديون وغيرهم، وقرروا العمل على أساس كسب القاعدة الاجتماعية أولًا، تلك القاعدة التي كانوا قد خسروها بالصحوات، فتميز خطاب جبهة النصرة بمعالم عسكرية تخاطب دول الخليج وتغازل تمويلها. تتمثل في إسقاط نظام الأسد ومواجهة الشيعة (العلويون جزء منهم) وإيران، لكن لم يكن لدى النصرة أية إشارة واضحة إلى مرحلة ما بعد النظام، ولم يكن بوسع المعارضة السياسية ولا العسكرية أن ترفض مساندة جبهة النصرة رغم شكوكها في علاقتها بالقاعدة والجهل بشخصية قائدها أبي محمد الجولاني.

دخلت جبهة النصرة انعطافين مهمين:

الأول: عند إعلان الولايات المتحدة في 5 ديسمبر 2012 وضعها على قائمة «الإرهاب».

الثاني: عند إعلان أبي بكر البغدادي تبعية جبهة النصرة له، وإعلان «الدولة الإسلامية في العراق والشام». فقد دفع الكشف الأمريكي عن علاقة جبهة النصرة بالعراق، إلى إعلان الجبهة عن جميع عملياتها الوحشية والتي كانت تصور بعناية بأشرطة فيديو عالية الجودة ونشرها على نطاق واسع. وأدت الخيبة المؤلمة من التزام الولايات المتحدة بوعودها إلى ردة فعل عكسية استثمرتها النصرة في تكثيف دعم التأييد الشعبي، وفرض هيبتها، بحيث إن المعارضة السياسية وجدت نفسها مضطرة إلى الدفاع عن جبهة النصرة في مؤتمر أصدقاء سوريا الرابع في المغرب. كما دفعت محاولة أبي بكر البغدادي استتباع جبهة النصرة وإلحاقها به إلى مسارعة قائد الجبهة إلى إعلان البيعة للظواهري تهربًا من هذا الاستتباع؛ ولكن هذا القرار سبّب شرخًا في صفوفها وهز بعنف التعاطف الشعبي الملحوظ معها، فمعظم المقاتلين لا يعرفون هذه الصلة، فبرز تياران: تيار يريد تأييد العمل المدني التدريجي لإقامة دولة إسلامية، وآخر يؤيد إقامة دولة إسلامية في الشام تمهيدًا

للخلافة الإسلامية العالمية. وقد اعتبر قادة الجهاد السوريون القدماء من أعضاء تنظيم الطليعة المقاتلة الذين لحقوا بالجهاد الأفغاني (مثل أبي بصير الطرطوسي)، إعلان البيعة للظواهري خطأً وخطرًا جسيمًا على العمل الجهادي في سوريا، وخدمة كبيرة للنظام.

وبلا شك فإن جبهة النصرة تمثل الجيل الثالث للقاعدة (الجهاد العالمي)، إذا ما اعتبرنا أن مجاهدي أفغانستان يمثلون الجيل الأول، ومقاتلي العراق يمثلون الجيل الثاني، أما قيادات النصرة فهم من السوريين، وفي الغالب من المراكز الحضرية (بعضهم متعصب لهذه المراكز)، ولكن قواعدها ريفية في الغالب.

ثم ظهر تنظيم جديد في مدينة حلب وشرق سوريا في نوفمبر 2012 باسم مجلس شورى المجاهدين، يحاكي تنظيمًا ظهر في العراق عام 2006 يحمل فكر السلفية الجهادية العالمية، وتنظيمًا مماثلًا في غزة ظهر في 2010. وعلى عكس جبهة النصرة المرتبطة بالقاعدة، لا يرتبط تنظيم مجلس شورى المجاهدين بالقاعدة، وهو لا يعكس أي تطورات فكرية مهمة كتلك التي لاحظناها في الجبهة، وهو واحد من التنظيمات المتوسطة التي لا تزال فاعلة حتى الآن. كما ظهرت بعض التنظيمات تحاول تقليد جبهة النصرة، مثل «جيش الصحابة في بلاد الشام» و«جند الشام» في حلب، ولكن هذه التنظيمات لم تلقَ أي حظ من النجاح، فتفكك بعضها سريعًا، وبقي البعض الآخر هامشيًّا.

توافد «المهاجرون» وهم المقاتلون الأجانب إلى سوريا لأسباب مختلفة، فقدمت طلائعهم من دولة العراق لنصرة زملائهم في جبهة النصرة، ثم تواصل قدوم الباقين عبر الشبكات الاجتماعية الخاصة تحت دوافع سياسية تخص كلًا منهم؛ فالليبيون مثلًا لديهم رغبة في الانتقام من النظام الذي ساند القذافي، والشيشانيون يقاتلون ضد الروس في سوريا، وهكذا. وهؤلاء الوافدون جرت مبالغة كبيرة في تعدادهم لأغراض سياسية نتيجة الاستقطاب الإسلامي-العلماني الحاصل في بلدان الربيع العربي، ولكن واقع الأمر أن تعدادهم جميعًا اليوم لا

يزيد عن ألفي مقاتل من جميع الجنسيات في جميع أنحاء سوريا. يمثل المهاجرون نموذج التفكير القاعدي الصلب في شكله الجهادي في دولة العراق، ومع كل هذه التوجهات المتشددة المختلفة لم يتم تقبل توجهاتهم الأيديولوجية من قبل عموم السوريين، فالشخصية الشامية المدنية المعتادة على الانفتاح لا تستطيع تقبل هذا القدر من التشدد المتطرف، فانزوى الجهاديون على شكل كتائب معروفة باسم كتائب المهاجرين في الأرياف السورية الشمالية الغربية، وهي تدرك الآن أن وجودها مؤقت في سوريا.

وعلى الرغم من أن جميع الحركات الجهادية السلفية تشترك فيما بينها في فكرة الخلافة الإسلامية العالمية، فإن القوى السلفية الجهادية في سوريا تمايزت بملامح مختلفة هي حصيلة خبراتها في الصراع مع النظام والصراع مع الكتائب والبيئة السورية، فقد وُلدت سلفية جهادية تؤمن بضرورة قيام دولة سوريا ولكن إسلامية توقف العمل بالحدود مؤقتًا وتعمل على تطبيق الحدود بشكل تدريجي، مع إبقاء فكرة الخلافة العالمية مؤجلة. هذه الجهادية المحلية الجديدة أشبه ما تكون بجهادية سلفية وطنية، وهي عمومًا تشترك في كثير من الصفات مع جبهة النصرة، بل إن لديها علاقات متميزة مع الجبهة على الرغم من الخلاف الفكري المحدود بينها. ومن بين هذه الكتائب «كتائب أحرار الشام» التي تكونت أساسًا في ريف إدلب الشمالي في يوليو 2012 والتي تحولت في نهاية فبراير 2013 إلى «حركة أحرار الشام الإسلامية»، و«كتائب نور الدين الزنكي» في ريف حلب الغربي التي أُعلن عن تشكيلها في أكتوبر 2012، و«كتائب الطليعة المقاتلة» التي أُعلن عن تشكيلها في أغسطس 2012، و«حركة فجر الإسلامية» في ريف إدلب الشرقي التي تشكّلت في نوفمبر 2012.

وباستثناء كتائب الطليعة المقاتلة، فإن معظم الكتائب الأخرى تضم بين صفوفها بعض المقاتلين الأجانب الذين يُعرفون باسم «المهاجرين» الذين يقابلهم «الأنصار» من المقاتلين المحليين. لعب التمويل الخليجي السخي الرسمي وغير الرسمي دورًا مهمًا في تقوية هذه الكتائب.

كما تشكَّل في ريف دمشق الشرقي تنظيم سلفي بقيادة الشيخ زهران علوش، خريج الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة، باسم «لواء الإسلام» الذي ظهر في مارس 2012، يعتمد أساسًا على الفكر السلفي الوهابي المستند إلى الفقه الحنبلي، وقادته يحملون سلفية كلاسيكية عمومًا، وتصوراتهم السياسية لا تتجاوز الدولة الإسلامية في حدود الدولة الوطنية، مؤقتًا على الأقل، وإن كان عدد من قادته يمتلكون خبرة في القتال في العراق، علمًا بأن (دوما) التي تمثل معقل الثورة في الريف الشرقي لدمشق معقل الحنبلية الوحيد في سوريا. يمثل هذا التنظيم أكبر التنظيمات السورية المقاتلة في محيط العاصمة دمشق، ويُعتقد أن هذا التنظيم هو الذي قام بتفجير مقر الأمن القومي في حي الروضة بدمشق، الذي أودى بحياة صهر الرئيس آصف شوكت، ووزير الدفاع داود الحجة، وقائد الجيش النظامي ونائبه وعدد من كبار الضباط. وعلى الرغم من ميول قادته السلفية، فإن سلفيتهم تتلاقى مع ميول إسلامية تقليدية تصلبت وتشددت بفعل الحرب، فمعظم الكتائب الحليفة لهذا اللواء والمنطوية تحت مظلة «تجمع أنصار الإسلام في بلاد الشام» الذي تشكّل في أغسطس 2012 مثل: «كتائب الصحابة»، و«أحفاد الرسول»، هم مسلمون تقليديون يحملون الفقه الوهابي في معظمهم، لم يسبق لهم أن حملوا توجهات سياسية إسلامية أو تنظيمية أخرى.

والمتابع لتطورات الكتائب المسلحة التي تحارب على الأرض السورية يجد العديد منها بدأت تُظهر ميلًا سلفيًّا لأغراض الحصول على التمويل السخي، يتجلّى ذلك في الاسم أحيانًا، وفي الخطاب الاعلامي أحيانًا أخرى، فتحول الأمر إلى بضاعة وتجارة رائجة.

والغريب أن رداء السلفية اتسع بتأثير جهات التمويل ليتسع لسلفية براجماتية أكثر منها سلفية اعتقادية، مثل «لواء الحق» الذي تشكّل في حمص في أغسطس 2012 من كتائب حمص العاملة في المدينة وريفها. الأمر نفسه ينطبق على «كتائب الفاروق» التي تشكلت في نوفمبر 2011 من منشقين، فبعض القادة المؤسسين لهذه الكتائب هم ضباط منشقون من الجيش النظامي، وتلقوا تربية

عسكرية علمانية، ولا يتفق تكوينهم مع التوجه السلفي المتشدد.لكن التمويل يفعل المعجزات.

وعلى الرغم من أن الحرب المستعرة على الأرض السورية قد ساعدت على انتشار واسع للفكر السلفي فإن انتشاره الطارئ أقرب ما يكون إلى أداة حرب ووسيلة لجلب التمويل؛ إذ لم يأخذ من الوقت ما يكفي ليتحول اعتقادًا راسخًا، ولهذا فإن خارطة الانتشار الجديدة للفكر السلفي معرضة للتغير بشكل كبير بعد أن تضع الحرب أوزارها. غير أنه من الجدير بالملاحظة أن النزوع السلفي الجديد كان عمومًا بين مقاتلي الكتائب الثورية وليس انتشارًا في أوساط المدنيين، لكن مع التأكيد على أن تأثيره سيمتد فيما بعد إلى حاضنته الاجتماعية، وخصوصًا في المنابت التي ينحدر منها هؤلاء المقاتلون.

حتى الآن لم تنشأ حركة سياسية سلفية ذات أهمية أو ثقل يُعتبر في عموم الشارع السوري المضطرب، وذلك على الرغم من أن هناك محاولات لظهور حركات سياسية غير اعتيادية بدأت في صفوف الثورة منذ تعسكرت، وحتى قبل ذلك، مثل حركة «المؤمنون يشاركون»، وحزب الإصلاح والعدالة. لكن لم ينجح أي تنظيم سياسي حتى الآن بالظهور كقوة سياسية واعدة؛ وذلك لأن الثورة لم تنتهِ بعد، ويُنظر إلى العمل السياسي مجردًا عن العمل العسكري بكثير من الريبة. على أن التنظيمات العسكرية شرعت تشكل أذرعًا مدنية لتكوين قاعدة اجتماعية لمرحلة ما بعد النظام تساعدها في تحقيق قناعاتها الأيديولوجية، على سبيل المثال شكلت جبهة النصرة بالتحالف مع لواء التوحيد وعدد آخر من الكتائب الهيئة الشرعية؛ من أجل ملء الفراغ التنظيمي والقضائي والخدماتي والأمني في المناطق المحررة، وفكرة الهيئة الشرعية منتشرة على نطاق واسع، وهي فكرة شبيهة بتلك التي كانت للفصائل الأفغانية أيام الجهاد ضد النظام السوفيتي والحكومة الموالية له. وشكلت واحدة من الكتائب البارزة في الريف الشمالي لمدينة حلب هيئة للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تأثرًا بالنموذج السعودي أو الطالباني، لكنها قوبلت بنفور اجتماعي عام ملحوظ. فكل المعطيات على الساحة السورية والدولية

تؤكد أن الرئيس بشار الأسد عبر عنق الزجاجة بنظامه، وأنه أحد المستفيدين الرئيسين بترتيبات الشرق الأوسط الجديد، وأن الدعم الروسي الإيراني الصيني قد استطاع أن يثبِّت أركان حكمه بجانب الفظائع التي ارتكبتها كتائب السلفيين في القتال الدائر هناك.. ويبقي السؤال: هل ستستطيع التيارات السلفية السورية أن تعيد ترتيب أوراقها لسوريا الجديدة التي تقطع الشواهد بأنها لن تكون من دون الرئيس بشار الأسد ونظامه أم سيأخذ الصراع شكلًا آخر تستمر فيه معاناة الشعب السوري الشقيق؟.. هذا ما ستظهره الأيام والله المستعان..

الإخوان النجديون من فتح الحجاز إلى قتل الحجيج

«جماعة الإخوان» اسم ذو دلالة خاصة ووقع له شجون في التاريخ السعودي، ولكن لا بد من التنبيه بداية إلى أنه ينبغي عدم الخلط تنظيميًّا بحال بين الإخوان النجديين الذين هم ظاهرة سعودية خاصة خالصة نمت في أحضان الفكر الوهابي، وجماعة الإخوان المسلمين التي أسسها حسن البنا الأكثر شهرة وانتشارًا واختلافًا غير يسير لا تخطئه العين في منهج وآليات العمل والتحرك.

الإخوان النجديون - نسبة إلى منطقة نجد بوسط الجزيرة العربية مهد الدعوة الوهابية ومحل ميلاد الدولة السعودية - تعود جذورهم إلى البشائر الأولى لميلاد دولة آل سعود، حيث كانت جموع الإخوان العمود الفقري للقوات المقاتلة تحت قيادة مؤسس الدولة السعودية الثالثة عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود، وكانت تشكل طليعته الأكثر إقدامًا وتدينًا، والإخوان في أغلبهم من أبناء القبائل البدوية التي قام مؤسس المملكة بناء على نصيحة قاضي الرياض آنذاك عبد الله آل الشيخ بتوطينهم في قرى زراعية أطلق عليها اسم (هجر) كناية عن هجر أهلها لحياة البادية واستقرارهم بها. وقد تأسست أول هجرة (قرية) عام 1911، وهي الأرطاوية شمال الرياض، ثم تزايدت أعداد الهجر بعد ذلك حتى بلغت أكثر

200 هجرة موزعة في جميع مناطق شبه الجزيرة العربية. وقد انتشر بينهم الدعاة يبثون فيهم الفكر الوهابي ويحكمون فيهم بأحكام الشرع وفق فهمهم له، وصار أساس الاستقرار في هذه التجمعات هو الأخوة وليست العصبية القبلية، وقد تربى الإخوان في هذه التجمعات على اعتبار الملك عبد العزيز الإمام والقائد. في حين تميزوا بزي خاص عن باقي جنود عبد العزيز من البدو إذ كانوا يقومون بلف عصبة بيضاء على الكوفية بدل أن يلبسوا العقال التقليدي. وقد تزايدت أعدادهم حتى بلغ عدد المقاتلة فيهم عام 1926م سبعين ألف مقاتل. وقد كان للإخوان اليد الطولى والكلمة العليا في النجاحات التي أحرزها الملك عبد العزيز وتحقيق مشروعه في توحيد الجزيرة العربية، لكن رغم ذلك كان قابل الأيام ينذر بصدام وشيك بين القائد والإمام ومريديه من الإخوان.

وقد بدأ الصدام المروع سريعًا ومدويًا. كان أول خيوط هذا الصدام قد نسج بعد ضم الملك عبد العزيز للحجاز عام 1926، والحجاز بلاد تختلف بشكل جذري عن نجد بطباع أهلها وانفتاحهم على الدنيا بفعل الحجيج والمعتمرين الذين يأتون من شتى أصقاع الأرض ويختلط فيها المسلمون من شتى الأعراق والأجناس، وتنتشر فيها الطرق الصوفية وتتميز الحياة فيها بطابع متساهل عن حياة الإخوان بنجد، ولذاانفتل الإخوان يتعرضون للناس في الشوارع ينهونهم عما يرونه خروجًا عن دين الله. كان ذروة ذلك الأمر في تعرض الإخوان للمحمل المصري في منى، فعندما رأى الإخوان المحمل وما يرافقه من طقوس معتادة وما يصاحبه من موسيقى واحتفال، صاحوا عليه بقولهم: الصنم الصنم، وهجموا عليه، فبادر العسكر المصري المصاحب للمحمل بإطلاق نار بنادقهم على المهاجمين وقتلوا عددًا من الإخوان ردًا على هجومهم، وكان هذا الحادث بحضور الملك عبد العزيز بنفسه الذي بادر مسرعًا لتهدئة المصريين، وأمر جيشه بحماية المحمل وحجبه عن أنظار الإخوان؛ حرصًا على سلامته والعسكر المرافقين له من انتقامهم. وقد أدت هذه الحادثة إلى قطع العلاقات المصرية السعودية لمدة

عشر سنوات رغم سفر الأمير سعود ولي العهد للقاهرة ومكوثه شهرًا لتقديم الاعتذار.

وجد عبد العزيز بدهائه أنه لا يفلّ الحديد إلا الحديد، فقام بتأسيس جماعة للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من حاملي العلم الشرعي مهمتهم الأولى التصدي للإخوان بناء على فهم شرعي يسمح بالاتزان في قبول عادات الغير واختلافاته. ولك أن تتعجب أن يكون الهدف من نشأة جماعة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في السعودية الحرص على الحرية وحفظ الوسطية!! ولكن حقًّا كثيرًا ما لا تدوم البدايات.

وكان ثاني خيوط الصراع اجتماع الإخوان في الأرطاوية بزعامة الثلاثي: فيصل الدويش زعيم مطير، وابن حثلين زعيم العجمان، وسلطان بن بجاد زعيم عتيبة، حيث تضامنوا فيما بينهم على نصرة الدين ومواصلة قتال المشركين، وأنكروا على الملك عبد العزيز أمورًا عديدة؛ منها: سياسة التسامح في الحجاز والمناطق الشرقية من البلاد (التي يغلب فيها الشيعة الإمامية الاثنى عشرية)، كما اشتد نكيرهم على عبد العزيز أيضا لاستخدامه أدوات الكفار مثل التلغراف والتليفون والسيارة، ورأوا أنها بدع نصرانية منكرة، وأنها من عمل الشيطان وجنده! وكذا أنكروا سفر ابنه الأمير فيصل إلى لندن. وكذا رفضهم سفر ابنه سعود إلى مصر، التي يحتلها الإنجليز النصارى ويسكنها مسلمون كفار !!.

وجاء الخيط الثالث ولنقل ثالثة الأثافي، في صدام الإخوان بعبد العزيز، بعد انتهاء الحرب في الحجاز، وحال رجوع الإخوان إلى نجد أرادوا متابعة الفتوح في العراق بل شرعوا في ذلك فعلا.. فانقضوا على القبائل العراقية المتاخمة معلنين رفع راية الجهاد منتوين مواصلة المعارك حتى الوصول إلى مناطق النجف الأشرف وكربلاء؛ لإزالة المظاهر الشركية المتمثلة في رأيهم السقيم البعيد عن الدين في مقامات ومراقد الإمام علي والإمام الحسين وسائر آل البيت والصحب الكرام

المدفونـين بالعراق.. وعلى الفور أرسـلت بريطانيا العظمى احتجاجًا شـديدًا إلى عبد العزيز بواسطة مستشاره المصري الجنسية حافظ وهبة.

وقـد تنبهت بريطانيا مبكرًا لخطورة الإخـوان، فبعد أن كانت تنظر إليهم أول الأمـر عـلى أنهم ظاهرة دينيـة داخلية لا تهـدد المصالح البريطانية عـلى الرغم من سـمعتهم المفزعة وبسالتهم التي بدأت تنتشر سـيرتها في منطقة الخليج والعراق، ولكن بعد انتصار الإخوان على جيش الشريف حسـين المدرب والمسـلح بمعرفة بريطانيا العظمى تغيرت نظرتهم للإخوان وتوجسـوا منهم شرا كبيرا، ثم اتخذت بريطانيـا موقفًـا حاسـمًا ردًا عـلى غـارات الإخوان عـلى العراق والكويـت بقيام طائـرات سـلاح الجـو الملكـي البريطاني بالعـراق بمهاجمـة الإخـوان النجديين، الذين أبدوا بسـالة مدهشـة في مقاومة آلة الحرب البريطانية المتطورة، بل وخلال العمليـات أسـقط الإخـوان إحدى طائرات سـلاح الجـو الملكي وقـُتـل قائدها البريطاني.

سـارع سـلطان بن بجاد وفيصل الدويش لحشـد قواتهما من الإخـوان، توقيًا لرد الفعل البريطاني ولشـن هجوم استباقي واسـع على العراق، فسارع الإنجليز لحشـد القبائـل العراقية مـن المنتفق والمظفـر.. وأوضحت لهم رغبـة الإخوان في هدم المراقد المقدسـة فاشتعلت حماسـتهم وغيرتهم على المراقد المقدسة، وتجمعت القبائـل العراقية تحت قيادة غلوب باشـا ودعمتهم بريطانيا بثلاث طائرات تابعة لسـلاح الجو البريطـاني وأكثر من 60 عربة تحمل مدافع رشاشـة، وعندما وصل إلى الإخوان نبأ الحشـود الضخمة للعراقيين من الشيعة والسنة، وتبيَّن لهم أنهم لا قبل لهم بها، تراجعوا وعسكروا في منطقة حفر الباطن الحدودية.

ومـع كـرور الحوادث والأيـام اقترب الفصـل الأخير من الصـدام بين الملك عبدالعزيز والإخوان النجديين بعد أن استنفذ السهم الأخير في كنانته لترويضهم، أو لنقل على الأقل تأجيل المواجهة معهم حتى حين. وتمثل ذلك السـهم في قبول والتزام عبد العزيز بالفتوى التي أصدرها خمسـة عشر من العلماء الذين توسـطوا

لحل الخلاف مع الإخوان؛ وقد قبل فيها على مضض تحريم استعمال الراديو والتلغراف، وقد وصفهما علماء نجد بأنهما: (أمر حادث في آخر الزمان، فتوقفنا في مسألته..)!، ورغم أن العلماء لم يحرموا استعمالهما بصورة قاطعة فإن الملك عبد العزيز أراد قطع موارد الخلاف مع الإخوان الذين كانوا يرون في الراديو والتلغراف صنيعة من حبائل الشيطان، كما استجاب لمنع دخول المحمل المصرى الذي قطعه بالفعل الملك فؤاد إلى المسجد الحرام لما يصاحبه في ظن الإخوان من مظاهر شرك ومنكرات وضرب بالدفوف وقرعٍ للطبول، وتمسح الناس به وتقبيله، وكذا منع دخول الحجيج المصريين بالسلاح.

وقد تحقق لعبد العزيز مؤقتًا ما أراد؛ حيث إن قبوله فتوى علماء نجد قد أعقبه تعاهد زعماء الإخوان مرة أخرى على نصرته وجددوا بيعته إمامًا وقائدًا. لكن ما لبث الإخوان أن عادوا سيرتهم الأولى يقترفون مآثمهم المعتادة أو أشد منها نكرا، فعاودوا غزو القبائل على حدود العراق وأفتوا بكفر هذه القبائل، وفي نفس الوقت لم تقف بريطانيا صاحبة الانتداب على العراق مكتوفة الأيدي بل قامت بمطاردة المعتدين من الإخوان النجديين وتوغلت قوات بريطانيا عدة مرات في الأراضي النجدية، وهو الأمر الذي احتج عليه عبد العزيز لدى المندوب البريطاني في العراق، وقد سبب قيام الإخوان بمهاجمة تخوم العراق من دون إذن منه أو تصريح إزعاجًا شديدًا، وأساء لصورة عبد العزيز بإظهاره ضعيفًا غير قادر على ضبط جنوده أو قيادة مملكته الوليدة.

وكانت قاصمة الظهر لعلاقة الطرفين ما تناقلته الأنباء من اتفاق قادة الإخوان الثلاثة على تقسيم ملك عبد العزيز بعد إنزال الهزيمة به، ليصبح فيصل الدويش حاكما لنجد، ويتولى ابن حثلين حكم الأحساء، وتكون الحجاز من نصيب سلطان بن بجاد، وجاء هذا التقسيم حسب نفوذ كل زعيم منهم ووجود قبيلته. وأصبح عبد العزيز مقتنعًا أن الدافع الرئيسي وراء تصرفات قادة الإخوان الثلاثة لم يكن غيرتهم وحميتهم على الدين والشريعة؛ بل طلبًا لسلطان الدنيا وملكها، وأصبحت كل الطرق تؤذن بمواجهة مريرة حاسمة.

وقد سارع الملك عبد العزيز بإصدار تعليماته بتجمع قواته وحشدها في منطقة الزلفى، وعلم الإخوان بذلك واسْتَيقنُوا أن المواجهة قادمة لا مفر منها ولا مهرب، فقاموا بحشد قواتهم في مواجهة قوات عبد العزيز. وسارع الأخير بأخذ زمام المبادرة، وشنت قواته هجومًا كاسحًا على الإخوان الذين تمترسوا في مواقعهم واستطاعوا صد الهجوم لعدة ساعات حتى اقترب الليل، ثم تطورت الأمور سريعًا بانسحاب بعض قوات عبد العزيز، وهنا توهم الإخوان بقرب النصر، إلا أن تلك القوات كانت قد أُمِرت بالتراجع من عبد العزيز لاستدراج الإخوان من مواقعهم التي تحصنوا بها. وما إن خرج الإخوان لملاحقة فلول المنهزمين من أمامهم حتى استقبلتهم الرشاشات الآلية فانهزموا، ثم قاد الأمير فيصل بن عبدالعزيز (ملك السعودية الثاني بعد عبد العزيز) هجومًا بالخيالة لملاحقة المنهزمين وَأُعْمِلَ فيهم التقتيل. وأصيب فيصل الدويش خلال المعركة إصابة بالغة وحمل إلى الأرطاوية، بينما انهزم سلطان بن بجاد إلى هجرته المسمى: الغطغط. وواصل جيش الملك عبد العزيز تقدمه إلى الأرطاوية، وحُمل إليه الدويش الذي استعفى منه فعفى عنه الملك بعدما رأى جراحه وما لبث أن مات متأثرًا بجراحه، أما باقي زعماء الإخوان ودعاتهم فقد شن عبد العزيز سلسلة من الحملات انتهت بالقبض على كبرائهم ومصادرة أملاكهم وكان نصيبهم الموت في السجن أو القتل، ومُنع الإخوان من العودة إلى الهجر مرة أخرى. ولسنوات طوال وخلال العقود التالية لم يتوقف من ظلوا أحياء من الإخوان في مدن نجد وقراها عن رواية تاريخ التمرد ودوافعه، حتى تخال أنه قد تحول إلى سردية موازية لسردية تأسيس المملكة.

■ ظهور متقطع للإخوان النجديين..

بـلا جدال فإن العقود التالية قد شـهدت جهدًا محمومًا مـن الملك عبد العزيز وأولاده لتثبيـت دعائـم دولتهم، وقد كانـت أفكار الإخـوان النجديين تطل من حـين لآخـر، ثـم تغيب فجـأة كأنهـا أسراب مـن الطيـور المهاجـرة تحمل حصى الأفكار المتشددة في مناقيرها وترمى به مُحْـدِثًا شررًا سرعان ما يخبو وهجه. وكان أشـد إطلالتها إيلامًا ما شـهده عام 1964م من تبني الأمير خالد بن مسـاعد بن عبدالعزيـز أحد أبناء آل سـعود أفكار الإخوان (ابن شـقيق الملك فيصل وحفيد الملك عبدالعزيز)، وقيامه بحركة تمرد صاخبة ضد حكم عمه، ومحاولته الاستيلاء على الإذاعة والتليفزيون واعتبارهما وسـيلة من وسائل الشيطان، لنشر القيم غير الإسـلامية، وسرعـان ما قُبض عـلى الأمير الإخـواني الثائر وتـم إعدامه، ولكن التاريـخ يدخر شـقيقًا أصغر لـه هو الأمير فيصل بن مسـاعد ليعود عام 1975م ليطلب ثأر أخيه ويقتل الملك فيصل رحمه الله تعالى.

ثـم شـهد تاريخ المملكة فصـولًا أخرى من بـروز فكر الإخـوان النجديين، لكنهـا كانـت فصـولًا غـير دموية لم تصب شـظايها أحـدًا خارج المملكـة، وكان يتـم احتواؤهـا سريعًا.. حتى جـاء الفصل المدوي والرهيب الـذي أصاب العالم الإسـلامي كله بصدمة مروعة على يد واحد من أحفاد الإخوان النجديين الذين قتلوا في معركتهم مع الملك عبدالعزيز، وكان الرجل من منتسبي الحرس الوطني السـعودي لمدة خمسـة عـشر عامًا، ثم تركـه لينخرط في حلقات العلم والدراسـة الشرعيـة، وينتهي الأمر به لتكوين جماعة اختار أيضًا أن يطلق عليها (الإخـوان) بـما يحمله هذا الاسـم من دلالة شـائكة مقلقـة في التاريخ السـعودي، وكان هذا الرجـل هـو: جهيمان بن سيف العتيبي.

فقد جاءت نسمات فجر يوم الثلاثاء الأول من محرم 1400هـ الموافق 20 من نوفمـبر 1979م، ليحمل للأمة الإسـلامية أنباء مروعـة؛ حيث طيرت وكالات

الأنباء الدولية خبرًا صادمًا من سطر واحد زلزل وجدان أمة الإسلام، مفاده: قيام مجموعة مسلحة باحتلال المسجد الحرام! ولأول وهلة لم تستوعب العقول والأذهان معنى أن تحتل مجموعة مسلحة الكعبة المشرفة، فليس هناك بقعة مقدسة تجتمع قلوب المسلمين بجميع طوائفهم على إجلالها قدر البيت العتيق، وبدأت الأخبار تترى لترسم أبعاد المفاجأة المفجعة والصادمة لتنقل صورة لما يحدث في الحرم، وتفصح أن زهاء الثلاثمائة من الرجال والنساء دخلوا إلى المسجد وقاموا بإغلاق بواباته في وقت كان المسجد يعمر بالمصلين، وما إن فرغ المرحوم الشيخ محمد بن سبيل إمام الحرم من الصلاة حتى فوجئ بمن يتحدث في مكبرات الصوت ليعلن رفضه لحكم آل سعود القائم على القهر والغلبة، داعيًا لإنهاء حكمهم للبلاد وقطع العلاقات مع حكومات النصارى، وعلى رأسهم الولايات المتحدة الأمريكية.

والحديث حتى هذا المنحى لا يخرج عن كونه صيحة احتجاج سياسي محض تصدر عن عقلية سلفية متحجرة، مغرقة في التشدد. وكان لحديث الرجل تتمة شديدة الغرابة ولنقل صادمة بصورة مدهشة. فلقد أعلن عن مفاجأة مدوية بتقديمه لصهره، وهو رجل يُدعى محمد بن عبدالله القحطاني قائلًا: إنه الإمام المهدي الذي ينتظره المسلمون، داعيًا الجميع لبيعته.

كان هذا الحديث يجري وفي نفس الوقت الذي يحتل فيه المقتحمون منارات الحرم ومآذنه، وسرعان ما أخرجت أسلحة متطورة كانت قد أدخلت عبر توابيت الموتى إلى قبو المسجد، وتحول المسجد الحرام في لحظة إلى ساحة للقتال ترتقب لحظة الاشتباك الدامي. وقد تمكن عدد من المصلين الذين كانوا داخل الحرم لتأدية صلاة الفجر من الفرار، أما الباقون و«يقدر عددهم بمائة ألف» فيقينًا أن الكثير منهم اضطروا صاغرين بشكل أو بآخر إلى مبايعة محمد عبد الله القحطاني باعتباره المهدي المنتظر!.

وقد كان الذي تولى كبر قيادة الطغمة التي احتلت المسجد الحرام هو جهيمان بن سيف العتيبي، ابن قبيلة عتيبة التي كانت إحدى القبائل المتشبعة بفكر الإخوان النجديين، وبعد تركه الحرس الوطني بدأ جهيمان يتنقل في أرجاء المملكة لنشر مبادئه المستقاة من أفكار الإخوان النجديين. وفي الرياض سرعان ما التقى بشخص يدعى محمد بن عبد الله القحطاني الذي كان يدرس القانون والفقه في جامعة الرياض، وكان بدأ يبدي اهتمامًا بما يعرف بظهور المهدي المنتظر وانجذبت أفكار جهيمان والقحطاني وتعاونا بعدما ترك الأخير الدراسة، قبل حصوله على درجته القانونية، ليساهم في نشاط جماعة الإخوان التي أسسها جهيمان ثم تصاهرا. ويعتقد بأنه كان للقحطاني علامة خلقية ما على كتفه، وبذا اجتمعت في نظر جهيمان الدلائل والإشارات على مهدية القحطاني؛ فاسمه يتطابق واسم النبي الأكرم -صلى الله عليه وآله وسلم- وهو من الهاشميين وأكملت الحلقة الشامة التي على كتفه. المدهش أن المهدية لم تخطر للقحطاني على بال ولم يستشعرها يوما في نفسه، وأن جهيمان هو الذي تبناها وأقنع القحطاني وتولى دعوة الناس لمبايعته على أساسها.

وفي عام 1978، بدأت السلطات السعودية تراقب أعضاء الجماعة ونشاطاتها واعتقلت عددًا من الناشطين فيها لكنه تم إطلاق سراحهم لاحقًا إثر توصية من علماء رأوا أن ما ينادون به لا يتعارض مع أصول الدين !.

وانتهت الجماعة لوضع خطة إبليسية لإعلان قيام دولتهم تحت قيادة المهدي القحطاني ونشر تعاليمهم البائسة، كانت الخطة في البداية إعلان ظهور المهدي في موسم الحج لكن عُدلت لاحقًا إلى 20 نوفمبر لتتناسب مع بدء السنة الهجرية. ورأس قرن هجري جديد.. وقد استأجرت الجماعة غرفتين في الطابق السفلي للمسجد الحرام (يتألف هذا الطابق من 250 غرفة كان يتم تأجيرها للصلاة والتعبد والتأمل ومنع هذا الأمر بعد ذلك). وأدخلت المجموعة في الأيام الثلاثة قبل الحادث أسلحة وذخائر ومؤن إلى الغرفتين، وتبين أن من بين الأسلحة رشاشات كلاشنيكوف و22 بندقية حديثة و38 مسدسًا وبعض البنادق القديمة

التي كان يستخدمها رجال القبائل. وظهرت إشارات إلى أن بعض موظفي المسجد ساعدوا في تهريب السلاح وإخفائه. وأعلنت وقتها السلطات السعودية أن المؤن والذخائر كانت تكفي لصمود المجموعة ثلاثة شهور، كما أعلنت وقتها عن ضبط مخزون أسلحة كبير يتبع الجماعة في مناطق قريبة من المسجد الحرام.

المطالع للأحداث يجد أن ردّ فعل الأمن السعودي لم يكن سريعًا، بل كان مشوشًا في ظل غياب الأميرين القويين فهد وعبد الله عن المملكة في ذلك التوقيت. وضاعت الساعات الأولى في التداول مع كبارالعلماء عن كيفية تصرف قوات الأمن قبل بدء عملية الاقتحام للحرم المكي لتحريره بالقوة. وقد وجدت الحكومة السعودية نفسها محرجة ومكبلة في مواجهة العملية، وبدت كما لو أنها مصابة بالشلل. وتحدث بعض المحللين بأنها تعاملت مع حادثة الحرم على أنها محاولة انقلابية تستهدف الإطاحة بالنظام السعودي بأسره، الأمر الذي خلق جوًا عامًا من الريبة في كل أنحاء المملكة والعالم بأسره. وكان لا بد قبل الشروع في أي عمل عسكري من استصدار فتوى تبيح التدخل بالقوة وإدخال الأسلحة إلى داخل الحرم المكي لإنهاء الحصار، وتمكنت السلطات من الحصول على أصوات 32 من كبار العلماء لاستخدام القوة ضد حركة جهيمان.

في البداية، جرت مفاوضات مع جهيمان ومهديه القحطاني وجماعتهما بأنهم إذا استسلموا سيتم النظر بأمرهم وفق الشريعة بعد احتجازهم، وإلا سيتم محاصرتهم وقتلهم، ولم يبد جهيمان ولا مهديه أدنى اهتمام بهذه المفاوضات بعد أن زين له شيطانه أنه بسيطرته على الحرم قد اقترب من تحقيق أمله.

بدأت محاولات محمومة لاستعادة المسجد على يد أفراد الحرس الوطني بالتعاون مع وحدات من الشرطة والقوات الخاصة والمباحث. وفشلت المحاولة فشلًا ذريعًا، ولكن قوات الحرس الوطني السعودي استبسلت في محاولة متتالية لاقتحام المسجد الحرام وفك أسره وتخليص الرهائن رغم تكبدهم خسائر فادحة في صفوفهم؛ نتيجة تمترس أنصار جيهمان على منائر ومآذن المسجد المحاط بأرض

مكشوفة، فكانت أي قوة تتقدم تكون هدفًا سهلًا، واستشهد في بضع ساعات ما يقارب السبعمائة قتيل وجريح في صفوف القوات السعودية.

وحقًّا كانت عملية إعادة السيطرة على المسجد باهظة التكاليف وبالغة التعقيد، فرغم أن المسلحين التابعين لجهيمان أخفقوا في كسب أي تعاطف أو تأييد فقد قاتل أكثرهم حتى الموت، ليتحول مشروع إعلان دولة المهدي إلى مشروع انتحار جماعي.

وتحكي الكثير من المصادر أن السعودية استعانت بقوات كوماندز فرنسية. حيث تشير مصادر رسمية إلى قيام القوات الفرنسية وقوامها 40 مقاتلًا باستخدام غازات تسببت بشلل المسلحين، ثم اقتحام البوابات بعد تفجيرها. وقد انحصر الدور الذي لعبته القوات الفرنسية بالدعم الاستشاري فحسب، ويذكر في هذا السياق اسم الكابتن بول باريل على أنه قائد أو استشاري عملية الاقتحام والتي خططت ونفذت عملية ضخ المياه وصعقها وقد فشلت هذه العملية، وكذلك محاولة التسميم بالغاز وقد فشلت أيضًا..

ولم يكن هناك من سبيل كما تروي مصادر عدة غير المبادرة بقبول عرض الرئيس المصري السادات بإرسال فرقة قوات صاعقة وقناصة مصرية لتحرير المسجد (رغم قطع العلاقات مع السعودية) وتمكنت القوات الخاصه المصرية من قنص المراقبين المسلحين على الأبراج واقتحمت الحرم وأنهت الموقف في مدة قياسية وأخرجت الباقين أحياء ومنهم جهيمان العتيبي. ولما استيأس جهيمان وأتباعه من انضمام أي من المصلين بالحرم لهم، سمح للمصلين بمغادرة الحرم المكي تاركين جهيمان وجماعته لمواجهة مصيرهم الذي جاء سريعًا؛ حيث تمت محاكمة الزنديق ورفاقه، وصدر حكم المحكمة بقطع رءوس 61 من أفراد الجماعة، وكان جهيمان من ضمن قائمة المحكومين بالإعدام.

وتشير التحقيقات إلى أن أسامة بن لادن مؤسس تنظيم القاعدة لم يرتبط بالجماعة بشكل مباشر، ولكنه يعرف أنه اطلع على أفكارها من خلال بعض

أعضاء الجماعة الذين كانوا يقيمون معه في ذلك الوقت في مدينة جدة. وزعمت بعض المصادر وجود صلات لعائلة بن لادن في الحادثة، فقد تناقلت الألسن أن أخًا غير شقيق لأسامة بن لادن يُدعى محروس بن لادن (اعتقل على إثر الحادثة بتهمة التعاطف مع الحركة.. مصادر أخرى تقول بأنه شارك في العملية)، لكنه بُرئ وأطلق سراحه في ما بعد. وذكرت بعض التقارير أن محروس بن لادن ربما كان عميلًا مزدوجًا.

كما تؤكد مصادر أخرى أن شركة بن لادن ساعدت الحكومة في عملية المداهمة من خلال تقديم مخططات مفصلة للبناء باعتبارها الشركة التي رعت توسعة المسجد الحرام عام 1973؛ مما ساعد قوات المداهمة على تتبع بعض العناصر المسلحة الذين حاولوا الهروب عبر أقنية المياه، والقيام بضخ المياه في تلك الأقنية لإجبارهم على الخروج منها.

والثابت أن أسامة بن لادن علق في إحدى خطبه على الحادثة بقوله: «كان يمكن حل تلك الأزمة بغير قتال، كما اتفق العقلاء في ذلك الحين، وإنما كان الموقف يحتاج إلى بعض الوقت وخصوصًا أن الموجودين في الحرم بضع عشرات، وأسلحتهم خفيفة، أكثرها بنادق صيد، وذخيرتهم قليلة وهم مُحاصَرون، ولكن عدو الله فعل ما لم يفعله الحجاج من قبل، فعاند وخالف الجميع، ودفع بالمجنزرات والمصفحات إلى داخل الحرم، وما زلتُ أذكرُ أثر المجنزرات على بلاط الحرم ولا حول ولا قوة إلا بالله، وما زال الناس يتذكرون المآذن يكسوها السواد بعد قصفها بالدبابات، إنّا لله وإنا إليه راجعون»!!

وباليقين، يتشابه فكر القاعدة وأسامة بن لادن مع جماعة جهيمان في التطرف الديني والاجتراء على حمل السلاح وسفك الدماء في غير مواضعها الشرعية، وكذلك طريقة تجنيد الشباب والتأثير فيهم بقيم دينية سلفية تبدو للوهلة الأولى شديدة المثالية، والالتزام بمبادئ مثل: السمع والطاعة، والخضوع التام للنص،

وعـدم تشـجيع الأتباع على اسـتخدام العقل وعلوم المنطـق في تمحيص الأحكام والاستدلالات.

و قد كتب المفكر الروسي ياروسلاف تروفيموف كتابًا بعنوان عنوان (حصار مكـة، الانتفاضة المنسـية في أقدس الأماكـن الإسـلامية وولادة القاعدة) اعتمد فيـه على مقابلات شـخصية، ووثائق كانـت محظورة وسرية مـن وزارة الخارجية الأمريكية وغيرها. وخلص المؤلف فيها إلى أن الأسلوب الذي تم التعامل به مع «الحركة الجهيمانية» هو الذي أفضى في نهاية الأمر إلى ولادة القاعدة.

وقـد تعطلـت الصلاة في الحرم المكي الشريف لمـدة 15 يومًا حتى تم إصلاح التخريب المروع في قدس الأقداس.

باكستان والجماعة الإسلامية من المودودي إلى طالبان..

لا توجد قوة إسلامية سياسية تضاهى جماعة الإخوان المسلمين شهرة وتاريخًا وتأثيرًا مثل الجماعة الإسلامية الباكستانية أو كما تُعرف بالأردية (جماعة إسلامي) وقد تأسست الجماعة في تاريخ لاحق لتأسيس الإمام البنا جماعة الإخوان المسلمين، وكما ارتبطت الأخيرة باسم البنا ميلادًا وتأثيرًا ارتبطت جماعة إسلامي باسم أبي الأعلى المودودي.

وتاريخ المودودي يحتاج إلى قراءة متأنية، ولم لا وهو صاحب اليد العليا في تشكيل العقل السلفي في جانبه السياسي؟ وقد ولِد الرجل في جنوب الهند في عام 1903 م لأسرة شديدة التصوف وتنتمي إلى الطريقة الششتية الأكثر انتشارًا في شبه القارة الهندية.

وقد حرص الوالد الصوفي على تربية ولده على القيم الإسلامية وباليقين رغم بعد فكر المودودي بعد ذلك عن التصوف وأهله فإن ما غرسه والده فيه من الماضي الإسلامي الصوفي العظيم للهند سيكون له أبلغ الأثر في صياغته لنظريته

في الإسلام السياسي، والغريب في بدايات المودودي قيامه وهو لا يزال شابًا صغيرًا بترجمة كتاب قاسم أمين المثير للجدل والمعنون (المرأة الجديدة).

كان الرجل في بداياته من المهتمين بالشأن السياسي لا بالدراسة الدينية، مؤيدًا لحزب المؤتمر بقيادة غاندى. وقد عمل صحفيًا في أمر المطبوعات الصادرة عن الحزب، وكانت كتاباته كلها تتمحور حول فكرة القومية الهندية وضرورة استقلال الهند بكل طوائفها الدينية. ولكن لم يلبث المودودي على هذا النهج طويلًا، ففى منتصف العشرينيات من القرن الماضي حدث تحول حاد في شخصيته، وانخرط في صفوف حركة الخلافة التي قادها الزعيم الإسلامي الكبير محمد على جناح وتحول إلى مدافع شرس عن الهوية الإسلامية والخلافة. ولم أجد في تاريخ الرجل محطة أسبق من تلك المحطة تشي باهتمامه بالشأن الإسلامي، وقد تطور هذا الاهتمام سريعًا؛ حيث ارتبط بجمعية (علماء هند)، وأصبح رئيسًا لتحرير صحيفتها (مسلم). وبدأ في هذا التاريخ الانخراط في الدروس الدينية وحلقات العلم.

وفي عام 1924، شن المودودي هجومًا شديدًا على حزب المؤتمر الذي سبق أن انضوى تحت لوائه يومًا، وكذا كتب رسائل عدة في انتقاد القومية الهندية وكل أفكار المهاتما غاندي. والمتأمل في كتابات المودودي في هذه الفترة وشديد إنكاره لفكرة القومية يجدها مواكبة لقيام الزعيم التركي أتاتورك بإلغاء الخلافة الإسلامية واعتماد خطاب ينهض على دعائم قومية ويتخلى تمامًا عن الرابطة الإسلامية. وأحسب أنها تشكل في جانب منها ردة فعل قبل ما كان يعتقده من قبل، ثم زادت الأحداث سخونة إثر قيام نشطاء مسلمين باغتيال زعيم هندوسي متعصب، فاشتعلت في عام 1925 اشتباكات لم تشهد الهند لها مثيلًا من قبل وطالت كل أرجاء البلاد، وقد أثرت هذه الفتنة على المودودي، فأصدر في نفس العام كتابه الشهير (الجهاد في الإسلام) وهو الكتاب الذي قدمه لعلماء الهند ورسم له مكانة مميزة بينهم، وهذا الكتاب يُعد علامة فارقة في هجر المودودي تمامًا لكل القناعات القومية.

وقـد انتقـل بعدهـا للإقامة في حيـدر آباد آخر الإمـارات الإسـلامية في الهند البريطانيـة، وبـدأ في اسـتلهام ومراجعـة تـراث المفكريـن الهنـود المسـلمين مثل أحمـد سرهنـدي، وولي الله دهلـوي. وانطلق المودودي لتأسـيس حـزب منفصل للمسـلمين يقـوم على القطيعـة الكاملة مع الثقافـة الهندية الهندوسـية، وبدأ يبث أفكاره في مجلة «ترجمان القرآن» التي ظل يصدرها حتى وفاته.

والقـارئ لتاريخ الهنـد في ثلاثينيات القرن الماضي يجد أن حدة الاسـتقطاب بـين المسـلمين والهنـدوس تعالـت وتيرتها بشـدة وصـارت تنذر بخطـر عظيم، وتحالف المودودي مع الزعيم محمد عليّ جناح الذي كان يقود الرابطة الإسـلامية والتـي كانـت تمثـل المسـلمين بالهند، وجـاء عـام 1935 فاصلًا في تاريـخ الهند، حيـث أُجريت أول انتخابات لتشـكيل إدارة كلية هندية محـدودة تحت الانتداب البريطانـي وأسـفرت الانتخابـات عن فوز كاسـح لحـزب المؤتمر بقيـادة غاندي وانفراده بتشكيل الحكومة.

أصيـب المودودي بحالـة من الإحباط الشـديد دفعته إلى بحث أسـباب هذا الإخفـاق وخلـص إلى ضرورة إعـادة بناء المجتمع المسـلم، ولذا نهض بتأسـيس الجماعة الإسـلامية (جماعة إسـلامي) بمدينة لاهور مع سبعين عالمًا على رأسهم: محمـد منظور نعماني، وأبو الحسـن الندوي، وطفيل محمد. وقد اختار المؤسسـون المودودي رئيسًـا للجماعة التي سيكون لها شأن عظيم في المرحلة المقبلة في صياغة تاريخ الهند وباكستان والعالم الحديث. وقد اجتهد المودودي في نشر أفكار الجماعة الإسـلامية واتخذ من مدينة بات كوت مركزًا لها واستمر في سعيه الحثيث في ضم الأنصـار والمريديـن حتى حدث انشـطار البـلاد إلى الهند وباكسـتان عام 1947 بعد الاسـتقلال عن بريطانيا، وانقسمت -بدورها- الجماعة الإسلامية لقسمين، واختـار المودودي الإقامة في باكسـتان في حين أزمع النـدوي أمره على الإقامة في الشـطر الهندي، وسـارع المودودي لنقل مقر الجماعة إلى مدينة لاهور ذات التأثير الكبير والتاريخ الإسلامي الضارب في الجذور.

وبدأ المودودي فور تولي محمد علي جناح رئاسة الدولة الوليدة (باكستان) في ترسيخ مفهوم أن باكستان دولة مرجعيتها الأولى والأخيرة هي الإسلام، في حين كان علي جناح ينظر لباكستان الوليدة كدولة قومية علمانية لا إسلامية، وهنا كان واضحًا لكل متابع لهذه الحقبة من التاريخ أن الصراع على هوية باكستان قد بدأ منذ اللحظة الأولى لميلادها.

وهكذا سرعان ما اشتعل الصراع بين الزعيم السياسي محمد علي جناح والزعيم الديني أبو الأعلى المودودي على هوية باكستان منذ اللحظة الأولى لميلادها، وتسارعت وتيرة الصدام على خلفية دعوة المودودي للجهاد ضد الهند مساندة للمجاهدين الكشميريين، في حين قبل جناح وقف إطلاق النار مع الهند في كشمير مما فجر الصراع بين الرجلين وأدى إلى اعتقال المودودي لمدة عامين ولم يطلق سراحه إلا بعد ضغوط وتظاهرات عنيفة قادها أنصار الجماعة الإسلامية، وما إن نال المودودي حريته حتى فجر قنبلة بدعوته لحملة واسعة لإقالة وزير الخارجية ظفر الله خان على خلفية انتمائه إلى الفرقة القاديانية بحسبانها منشقة عن الإسلام، وتلا ذلك تصويبه لسهام الهجوم الذي كان أبرزها تحريم قسم الجنود الولاء للدولة ما لم تعلن الدولة تخليها عن نهجها العلماني والتزامها الإسلام كمرجعية وحيدة للحكم. وتطورت الأمور سريعًا وانتهى الأمر باعتقال المودودي مجددًا ولكن هذه المرة صدر الحكم بإعدامه، ولكن سرعان ما ألغت المحكمة العليا الحكم.

وفي عام 1956، حدث تطور مهم تمثل في صدور الدستور الباكستاني ينص على إسلامية البلاد، وهو ما عده المودودي نقطة انطلاق نحو أسلمة جميع قوانين ومؤسسات الدولة. ولا شك أن متابعة كتابات المودودي في هذه الفترة في مجلة (ترجمان القرآن) يلمح تصورًا انقلابيًّا في تفكيره يهدف إلى إزاحة أي صورة لمدنية الدولة، وفي نفس الوقت خطا خطوة بقبول خوض الجماعة الإسلامية للانتخابات البرلمانية التي تلت إقرار الدستور، بما ترك الباب مواربًا لاندماج الجماعة في الدولة الباكستانية ومؤسساتها الديمقراطية.

ثـم جـاء الحدث الأهم الـذي قلب كل الموازيـن والمتمثل في اسـتيلاء الجيش الباكسـتاني بقيـادة الجنرال أيوب خان على زمام السـلطة عـام 1958، ولا يخفى أن الولايـات المتحدة الأمريكيـة هي من أعطت الضوء الأخـضر لهذا الانقلاب انطلاقًـا مـن عقيدتها القائمـة على أن انضباط المؤسسـة العسـكرية في دول العالم الثالـث هو وحـده الكفيل بتحقيـق التنمية الاقتصادية ومواجهة المد الشـيوعي، وخصوصًا في حالة باكستان القريبة جغرافيًّا من الاتحاد السوفيتي.

مـن اللحظة الأولى ناصب الجنرال أيوب خان المودودي وجماعته مـر العداء، واعتبر أن خطاب جماعة إسلامي عائق أمام وحدة كل طوائف الشعب الباكستاني، وتقمص أيوب خان شخصية كمال أتاتورك في عدائه للخطاب الإسلامي وأطلق صيحته المشـهورة: (نحن لسنا مسلمين فقط، نحن أيضًا باكستانيون). وقد وجد المودودي أن عداء أيوب له ولجماعته سـافر إلى أبعد مدى فآثر أن يتلمس وسـائل أخـرى لمقاومته، وذلـك بالدخول في تحالفـات حزبية هدفها إسـقاط أيوب، إلا أن اشـتعال أوار الحـرب الهندية الباكسـتانية عام 1965 شـهد تقاربا بين الجماعة والعسـكر مرده لجوء أيـوب خان للمودودي لإعلان الجهـاد المقدس ضد الهند، ورغـم قناعـة المـودودي بأن خـان أبعد مـا يكون عن اسـتخدام مفـردات ولغة الخطـاب الديني فـإن حرج الموقف المتـأزم على جبهات القتال أدى إلى مسـاعدة المودودي للمجهود الحربي الباكستاني بصورة كانت مؤثرة للغاية.

ولم يلبـث أن تداعـى سريعًـا نظـام أيـوب خـان وتزامن سـقوطه مـع ظهور أزمـة تلوح في الأفق هي أزمة انفصال باكسـتان الشرقية التي سـتعرف بعد ذلك ببنجلادش، والتي لعبت الهند دورًا رئيسـيًّا في إشـعالها، وأدى ذلك إلى خسـارة باكسـتان الحرب ضد الانشـقاق. ووقـت أن كانت المعركة تضـع أوزارها كانت سماء السياسة الباكستانية تستقبل نجمًا جديدًا لامعًا هو ذوالفقار علي بوتو.

وكـما جـددت السـاحة السياسـية نجومهـا وجـد المـودودي عـام 1972 أن الجماعـة في حاجـة لضخ دم جديد، فقدم اسـتقالته من الجماعة وتفـرغ للكتابة في

مجلة «ترجمان القرآن»، وتولى القيادة بعده طفيل محمد. وتوفي المودودي بعد ذلك بسنوات في مستشفى بأمريكا، ونقل ليدفن في لاهور وشيَّعه مليون باكستاني.

وترك المودودي تراثًا علميًّا مثَّل علامة فارقة في تشكيل الفكر والعقل السلفي الحديث وصياغة نظرية الحاكمية.

المودودي ونظرية الحاكمية وتأثيره على سيد قطب

كلمة «سياسة» لم تَرِد في القرآن الكريم مطلقًا، ورغم ذلك شكلت آيات القرآن الكريم سندًا لكثير من الساسة في بناء نظرياتهم السياسية، وشكل ذلك الأمر أكبر معضلة في تاريخ المسلمين منذ أول جدال سياسي استخدم فيه الذكر الحكيم بين إمام المتقين علي بن أبي طالب والخوارج، وقد تنبه الإمام لحيلة الخوارج في تغليف باطلهم بآيات من القرآن، فأمر ابن عباس قائلًا: (لا تجادلهم بالقرآن فإنه حمال أوجه، تقول ويقولون، ولكن جادلهم بالسنن فإنهم لا يجدون عنها محيصًا).

وكما لم يرد مصطلح السياسة في القرآن مطلقًا، كذا لم يرد مصطلح الحاكمية في القرآن والسنّة النبوية، بينما ورد مصطلح الحكم أكثر من مئتى مرة في القرآن الكريم، والمتتبع يجد أن مصطلح الحاكمية لم يكن له وجود قبل النصف الثاني من القرن العشرين، حيث يرجع للمودودي فضل ابتكار هذا المصطلح، وإلى سيد قطب الامتياز في تعريب أفكار المودودي في هذا الصدد وتبنيها ونشرها، فنستطيع أن نقول إن المودودي هو الأب التاريخي لفكرة الحاكمية لله بينما يعد قطب الأب العربي لها.

ولا ريب أننا لا نستطيع أن نفصل المودودي وكذا قطب عن واقع البيئة السياسية والاجتماعية التي عاشا فيها، فحتمًا أثرت هذه البيئة في وعيهما وتفكيرهما. فنجد أن هذه البيئة دفعت المودودي إلى الانقلاب على توجهات غاندى القومية، ثم ليخوض حربًا شرسة ضد هذه القومية، وقد كان العامل الرئيس الذي قلب فكره بهذه الطريقة هو ما استشعره من محاولة تغريب الشخصية الإسلامية وتذويبها في القومية الهندوسية، وزاد الأمر تعقيدًا معضلة التناقض الشديد بين ماضى المسلمين الإمبراطوري المجيد في الهند مقارنة بحاضرهم التعيس المحاصر بين أكثرية هندوسية ذات قوة متصاعدة واحتلال بريطاني لا يكن الود للمسلمين ولا ينظر إلى مصالحهم رؤية عادلة. لذا سعى المودودي حثيثًا للانفصال عن الهند، وبدأ في استخدام مفهوم الحاكمية والجاهلية بكثافة شديدة واستمر في نهجه بعد الانفصال، وهو الأمر الذي أوقع بينه وبين محمد علي جناح مؤسس باكستان، فالأخير كان يرى باكستان دولة المسلمين في حين أن المودودي كان يراها دولة إسلامية، والفارق كبير.

وانتقل المودودي منطلقًا من هذا الفهم إلى أن الباكستان بحسبانها دولة إسلامية فلابد أن تقوم على حاكمية الله وحده، فالأرض كلها لله تعالى، والحكم والتشريع مختص به الله وحده، وليس هناك مجال لأن يكون لأي شخص ولو كان نبيًا أن يأمر أو ينهى من غير أن يكون له سلطانه من الله عز وجل. وأن أي مجتمع يفرط أو يتهاون مع حاكمية الله هو مجتمع جاهلي.

وقسم المودودي الحاكمية إلى قسمين: الحاكمية السياسية والحاكمية القانونية؛ فجعل الأولى لله عز وجل باعتباره الحاكم الأعلى، وأن الأمة تنوب عن الله -عز وجل- في الخلافة على نهج النبوة (نفس العبارات والمصطلحات التي تتردد في الشارع المصري الآن). والحاكمية القانونية فهي أيضًا لله عز وجل وجعل الرسول -صلى الله عليه وآله وسلم- ممثلًا لهذه الحاكمية. وإذا تهاون المجتمع في إقامة الحاكمية الإلهية فيحكم عليه بالجاهلية. ولقد كان المودودي شديد القسوة في إطلاق هذا الوصف وتعميمه على حواضر إسلامية عدة تأسيسًا على عدم إقامتها

الحاكميـة الإلهية، مشـيرا إلى أن الحضـارة التي ازدهرت في قرطبـة وبغداد ودلهي والقاهرة لا دخل للإسلام فيها ولا صلة، وتاريخها ليس إسلاميًّا، بل الأجدر أن يكتب بمداد أسـود. وتمادى المودودي في توسعة دائرة الجاهلية.. فاعتبر أن العالم الإسلامي يعاني من الانحطاط والجاهلية منذ عهد الخليفة عثمان بن عفان وبعده، حيث قام الحكم على قواعد الجاهلية لا قواعد الإسلام.

ولا شـك أن طروحـات المـودودي كانـت صادمـة وأثـارت ردود أفعـال إسـلامية عنيفة ضده، وكانت جماعة الإخوان المسلمين في طليعة من تصدى لهذه الطروحـات في كتاب (دعاة لا قضاة) للمستشـار حسـن الهضيبي المرشـد العام للإخوان بعد حسن البنا الذي أكد فيه رفض الإخوان لفكرة الحاكمية لله، ويقول فيـه: (نحـن على يقين أن لفظة الحاكمية لم ترد بأيـة آية من الذكر الحكيم، ولم نجد حديثًـا قـد تضمن تلك اللفظـة، ولا حاجة لنا بعد كتاب الله وأحاديث الرسـول بأن نتعلق بمصطلحات يضعها بشرٍ غير معصوم). وطرْح الهضيبي يتفق مع فكر حسن البنا الذي كان ينظر إلى أن جماعة الإخوان هي جماعة من المسلمين لا جماعة المسلمين، ومن ثمَّ فإن الخارج عنها أو غير المنضوى تحت لوائها ليس بكافر. ولذا كان تشـبع سـيد قطب بأفكار المودودي نقطة تحول قاسـية عن نهج البنا في تفكير عدد كبير من مريديه من أعضاء جماعة الإخوان المسلمين.

ولقد سـطر سـيد قطـب هـذه الآراء في كتابه الشـهير معـالم في الطريق، وهذا الكتاب وبحق كتاب قتل صاحبه كما تقول زينب الغزالى عندما سئلت عن سبب إعدام سـيد قطـب، وقريب منه تعبير جمـال عبد الناصر حين قـرأ الكتاب فقال: (كتاب لا يمكن إلا أن يكون وراءه تنظيم سري).

ختامًا، لا يتسـع المقام ولا السـطور لمزيد من إلقاء الضـوء على الحاكمية لكن يقينًـا أنها مثلت معضلة كبرى لدى الإسـلاميين منذ طرح المودودي لها ثم تناول سـيد قطب لها من بعده، وإن كانت تيارات الفكر السـياسي الإسلامي في مختلف البلاد عملت على إيجاد مخرج للتوفيق بين الحاكمية المطلقة لله والمسـئولية البشرية

في فكرة الاستخلاف، فالحاكمية لله والخلافة للبشر مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾، لذلك كان الاتجاه المعتدل لنظرية الحاكمية لله يعتمد أكثر على فكرة استخلاف البشر في الأرض، ويعطي مساحة أكبر للإنسان خليفة الله في أرضه.

الإسلام السياسي في إندونيسيا

البداية مع الاستقلال..

أكتب هذه السطور من ربوع جمهورية إندونيسيا الساحرة، التي تقع في جنوب شرق آسيا وتتشكل من 17.508 جزيرة، ومساحتها الكلية نحو 1،919،440 كيلومتر مربع وعاصمتها مدينة جاكارتا، يبلغ عدد سكانها 240 مليون شخص أكثر من 90 ٪ مسلمون، وهي رابع دولة من حيث عدد السكان في العالم ، وأكبر دولة في عدد المسلمين.

دخلها الإسلام عن طريق أهل التصوف والتجار المسلمين في القرن الثامن والتاسع الميلادي، وقد كان لانتشار الإسلام أثره السريع في قيام ممالك إندونيسية متعددة في تلك الجزر، مثل مملكة «بنتام» التي أسَّسها الملك حسن الدين في جاوا الغربية، ومملكة «متارام» التي أقامها رجل عسكري يُدعى «سنافاتي» في شرق جزيرة جاوا؛ وبذلك أصبحت جزيرة جاوا مركز إشعاع كبير للدِّينِ الإسلامي، وانتقل منها إلى غيرها من الجزر، وكان هناك أيضًا مملكة «آتشيه» في شمال سومطرا، ومملكة «ديماك» في وَسَط جاوة، والتي أقامها رمضان فاطمي عام 832هـ، وكذلك مملكة «بالمبانغ» في جنوب سومطرا.

والمتابع للشأن الإندونيسي يجده من أغنى ساحات عالمنا الإسلامي بالحركات والتيارات وأثراها؛ حيث شهدت إندونيسيا في بداية القرن الماضي ما عرف بثورات أو حركات (دار الإسلام) التي ظهرت في أجزاء متفرقة منها بعد نيلها الاستقلال من المستعمر الهولندي والياباني في الأربعينيات والخمسينيات من القرن الماضي. وذلك في سولاويزي وآتشيه بشمال سومطرا وجاوا الوسطى، وبعض المناطق الأخرى.

وترسخ لدى أتباع هذه الحركات الإسلامية أن القوميين واليساريين بزعامة سوكارنو اختطفوا الاستقلال وغيبوا حق مسلمي إندونيسيا الذين يشكلون غالبية السكان في تأسيس دولة إسلامية. ومعظم هذه الحركات كان يقودها قائد كاريزماتي من خلفية دينية عصرية تمتد جذورها إلى أسرة مدنية تجارية تسكن إحدى المدن الإندونيسية ويعود أصلها إلى جمعية المحمدية الإسلامية المنتشرة في ربوع إندونيسيا.

وكان الظهور المؤثر للتيار الإسلامي على الساحة الإندونيسية في جزيرة جاوا الوسطى بقيادة الزعيم سيكارماجي ماريدان كارتوسو ويرجو المولود في تشيبو بجاوا عام 1905، وهذا الرجل يُعد بطلًا للكثير هنا في إندونيسيا؛ لأنه سعى لتطبيق الشريعة الإسلامية مباشرة دون الحديث عن مراحل وتدرج يراه هؤلاء المريدون تأخيرًا للحق.

كان كارتوسو ويرجو ناشطًا وطنيًّا معروفًا بين مسلمي جزر أرخبيل الهند الشرقية، وذلك قبل الحرب العالمية الثانية. وقد شارك في حشد تنظيم متطوعي حزب الله الذي كان ذراعًا لمجلس شورى مسلمي إندونيسيا (أو ماشومي اختصارا) خلال الاحتلال الياباني، ثم ساعد على تحويل ماشومي إلى حزب سياسي إسلامي بعد نهاية الحرب.

وقد حاول أن يسعى لإعلان دولة إندونيسيا الإسلامية في عام 1945، لكنه أقنُع من قبل بعض القيادات البارزة في البلاد آنذاك بضرورة توحيد الصف

والعمل مع العلمانيين من التيار القومي بزعامة أحمد سوكارنو - أول رئيس للبلاد - حتى تمام طرد المستعمرين.

ومن رحم هذا التنظيم ظهرت البوادر الأولى للتيار الجهادي الإسلامي، وبعد التحرير بدأ كارتو تقوية جذوره وتدعيم هيكلة تنظيمه السياسي والإداري في منطقة جاوا الوسطى المهمة، ثم كان الصدام مع الحكومة القومية الإندونيسية أمرًا لا مفر منه.

بتاريخ 7 أغسطس 1949، أعلن كارتوسوويرجو تأسيس دولة إندونيسيا الإسلامية، وهو ما كان سببًا في اندلاع مواجهات عنيفة مع الجيش الإندونيسي لمدة 13 عامًا. وكانت المناطق والأقاليم التي يسيطر عليها كارتوسوويرجو تسمى بـ «دار الإسلام»؛ ومن هنا ظهر مصطلح حركة أو تيار دار الإسلام على حركات الإسلام السياسي التي ستظهر فيما بعد بإندونسيا، وقد أُلقي القبض على كارتوسوويرجو في عام 1962، لتكون نهاية الحركة المعتمدة على كاريزمته الشخصية.

لم تختلف نهاية حركات دار الإسلام التي كانت تندلع بعد ذلك عن الحركة الأولى، ومع مرور الأيام اختفت القيادات المعروفة ووجوه هذا التيار عن الأنظار؛ فبعضهم لقي حتفه، وآخرون استسلموا للحكومة، وفريق ثالث منح عفوًا من قبل الدولة لإنهاء عوامل بقاء هذا التيار، وفريق رابع اختفى عن أنظار الدولة، كما خرج آخرون إلى دول أخرى كماليزيا وغيرها.

وذهب سوكارنو، وجاء سوهارتو..

تبنى سوكارنو رفيق الكفاح لناصر ونهرو وتيتو سلسلة من السياسات الخارجية المقاومة والمناهضة للإمبريالية الأمريكية، وعلى الرغم من أن سوكارنو أصبح علمًا من أعلام التحرر في العالم الثالث فإنه لم يستطع أن يواجه بقوة تحديات التنمية في بلاده، فاستغلت الدول الغربية المعادية لتحركاته التحررية هذا الأمر وألبت ضده بعض قادة الجيش. وانتهى الأمر بتنحية سوكارنو عام 1968 م بيد أحد جنرالاته وهو سوهارتو، ووضع تحت الإقامة الجبرية في منزله حتى وفاته عام 1970 م.

وسعى سوهارتو إلى إعادة العلاقات السياسية مع الدول الغربية وعمل في بداية حكمه على تجميد العلاقات مع الصين. كما دخل في مواجهات طويلة مع التيار الإسلامي امتدت لعقد كامل من الزمان، وذلك بعد أن أقدم سوهارتو على تطبيق ما سمّاه بنظام العهد الجديد؛ ومن ضمنه إعطاء الجيش وحزب غولكار الوطني الحاكم صلاحيات سياسية -انتخابيًّا وإداريًّا- واسعة، والتضييق على أي نشاطات سياسية أخرى. وبمعنى آخر صارت الممارسة الديمقراطية مقيدة للغاية.

ولم يسمح سوهارتو إلا لثلاثة أحزاب بالوجود في الساحة السياسية: حزبه الحاكم، وحزب أدمج في ظله الأحزاب الإسلامية: وهو حزب التنمية المتحد، بالإضافة إلى الحزب الديمقراطي الإندونيسي الذي أدمج فيه أيضًا بالإجبار كل الأحزاب اليسارية والعلمانية.

وقبيل انتخابات عام 1977، كان حزب التنمية المتحد الإسلامي قد ضم أعدادًا كبيرة من المعارضين من داخل وخارج التيار الإسلامي، وكانت توقعات الجميع أنه رغم التضييق على الأحزاب الإسلامية فإن حظها في الانتخابات القادمة

سـيكون كبيرًا. ولذا ومع توقع الحكومة أن يكسـب حزب التنمية عددًا كبيرا من المقاعد، تحرك الجنرال على مويرتوبو - مستشـار الرئيس سوهارتو وكبير مسئولي وكالة المخابرات الحكومية (كانت تعرف آنذاك باسـم باكين)، وكان مسئولًا عن العمليـات السرية للرئيس سـوهارتو- محاولًا اسـتغلال ما بدا أنـه ظهور جديد لتيار حركة «دار الإسـلام» بالخطة المجربة والفاشـلة دومًا في كل أقطار الإسلام. حيث تمكن من خلال وكالة باكين الاسـتخبارتية من إقناع الأعضاء السـابقين في حركة دار الإسـلام بأن يعودوا للاتصال بكوادرهم وقياداتهم، بعد أكثر من عقد عـلى حـل تنظيمهم. وكانـوا حينها قد أدمجـوا في الجيش وأجهـزة الدولة وغالبية هؤلاء من جاوا.

وكان مويرتوبو يعتقد أنه إذا عملت وكالة باكين الاسـتخباراتية على تشـجيع المتحمسـين لحركـة دار الإسـلام بالظهـور من جديـد، فإن هذا سـيخيف عموم مسلمي إندونيسـيا من أن يعلنوا انتماءهم السياسي الإسلامي المعتدل، حسب ما خـطط وصرح به مويرتوبو.

كما أن سـببًا آخر هامًّـا كان يؤمن به جنرالات آخـرون في وكالة باكين، يعود إلى الأجواء الإقليمية إثر سـقوط جنوب فيتنام بيد الشـيوعيين ووجود شيوعيين آخرين في ولايتي بورنيو الماليزيتين المتاخمتين لحدود أقاليم كاليمنتان الإندونيسية؛ الأمـر الذي أنذر بإمكانية امتداد الأثر الشـيوعي الأحمر إلى إندونيسـيا مع وجود بقايا للتيار اليسـاري بين المثقفين والطلبة وغيرهم. فكان الاعتقاد بين جنرالات الأمـن الإندونيسـيين أن إحيـاء تيار حركة دار الإسـلام هو الأسـلوب الأفضل لمواجهة المد الأحمر (نفس العدو الشيوعي في خطة السادات التي قتلته).

وسـواء كان بسـبب الأموال أو بالإجبار، فقد وقع العديد من قادة حركة دار الإسـلام في إغـراء إحياء حركتهم الـذي كان طُـعمًا لهم في نفـس الوقت، بعد أن اسـتنفد غرض مخابرات باكين من تحريكهم. ففـي منتصف عام 1977، أعلنت الحكومة أنها اعتقلت 185 شـخصا بتهمة الانتماء إلى تنـظيم «كوماندوز الجهاد»

الذي لا يزال مجهولًا إلى اليوم، وقالت الحكومة آنذاك إنه يسعى لإحياء ما عمل من أجله كارتوسوويرجو في إعلانه تأسيس «دولة إندونيسيا الإسلامية». وفي الحقيقة، لم يكن تنظيم «كوماندوز الجهاد» إلا صناعة مخابراتية على يد مويرتوبو.

وكان ممن اتهموا بالانضمام إلى حركة الجهاد الحاج إسماعيل برانوتو المشهور باسم هيسبران، والحاج دانو محمد حسن. وكلاهما كان من المقربين من زعيمهما السابق كارتوسوويرجو. وكان هذا الصدام هو التمهيد لظهور مصطلح الجماعة الإسلامية على الساحة الإندونيسية.

■ ظهور مصطلح الجماعة الإسلامية..

سارعت الحكومة الإندونيسية في الترويج لوجود الجماعة الإسلامية على أراضيها، لتكسب معركتها مع الكوادر القديمة للزعيم كارتوسو ويرجو بعدًا عالميًّا لهذا المصطلح المستخدم في أرجاء المعمورة بما له من دلالة قاسية، وسرعان ما تبنته له وسائل الإعلام الغربية ونشرته عالميا. وقد بدأ استخدام هذا المصطلح من قبل الحكومة الإندونيسية خلال محاكماتها في الثمانينيات لمن اتهموا بالانطواء في ظل تنظيم كوماندوز الجهاد، والمتابع للشأن هنا في إندونيسيا يميل إلى أن الحكومة ضخمت من حجم هذا التنظيم، وأطلقت عليه هذا الاسم الذي اقتبسته من أدبيات حركة دار الإسلام في إطار حديثهم عن مفهوم «الجماعة الإسلامية» التي تقيم الدولة الإسلامية.

ويمكن أن يلاحظ أيضا استخدام هذا المصطلح في سجلات محاكمات الثمانينيات تلك، مع أن المتهمين هم أعضاء سابقون في حركة دار الإسلام لم يطرحوا جديدًا، لذا لم تستطيع الحكومة ومدعوها تقديم أي دليل على وجود تنظيم أو حركة جديدة بقيادة وفكر مغاير وأهداف معروفة باسم «الجماعة الإسلامية».

الجدير بالذكر أن هذه العدوى انتقلت بعد ذلك بسنوات عدة إلى حكومة سنغافورة المجاورة التي اعتقلت منذ أحداث الحادي عشر من سبتمبر 2001 المئات من مواطنيها المسلمين بتهمة الانضمام إلى هذه المنظمة المجهولة.

ثم توقفت لسنوات الحكومة الإندونيسية عن استخدام المصطلح، لكن سرعان ما عادت لاستخدامه مرة أخرى خلال محاكمات الزعيم الإسلامي غوث توفيق في مدينة ميدان في شمال جزيرة سومطرا، الذي اتُهم بأنه زعيم جناح تنظيم كوماندوز الجهاد في ميدان.

وكان غـوث توفيق أحد مقاتلي حركة دار الإسـلام بجاوا الغربية، وقد انتقل مـع آخريـن مـن الحركة بعـد انهزامها في جـاوا الوسـطى في بداية السـتينيات إلى إحدى قرى سومطرا الشمالية. وبحسب التهمة القضائية المرفوعة ضده، فإنه عاد ليتحرك، واسـتدلت على تحركه بدعوته أستاذا شرعيا من جزر الفلوريس بأقصى الـشرق الإندونيـسي اسـمه عبد الله عمر لحضـور اجتماع في منزل قيـادي بارز في ميـدان!. وحسـب التهمة المقدمة من قبـل المدعي ضد غوث توفيـق، فقد تناول الاجتماع انتهـاكات حكـم سـوهارتو للشريعة الإسـلامية وسياسـاته العلمانية. وتـم اقتراح انضمام الحاضرين لما سُـمي بالجماعة الإسـلامية، يلتزم أعضاؤها كليًّا بأحكام الشرع، وأن يقسموا على ذلك.

وقد علمت السلطات الإندونيسية عبر جواسيسها بالاجتماع، واعتُقل توفيق في عام 1977 هو وصاحب المنزل الذي عقد فيه الاجتماع.

أمـا عـالم الشريعة عبـد الله عمر فإن خلفيته أيضا مشـابهة لسـابقيه. فقد قضى عامين في جاوا الوسـطى بإحدى القرى العلمية الشرعيـة التابعة للتيار العصري (واسـمها غونتـور) بـين عامـي 1967 و1968، ثـم تابـع دراسـته في الجامعـة الإسـلامية بميدان، وتوجه للتدريس بمدرسـة دينية بعد ذلك في بينانغ لامبونغ بمنطقة لابوهان باتو بشمال سومطرا (1973-1975). وعاد إلى موطنه الأصلي بجـزر الفلوريس قبيل انتخابات عام 1977، وقد حوكم في النهاية بتهم متعددة مرتبطة بتنظيم كوماندوز الجهاد وأفراد مجموعة مدرسة نغروكي التي كان يديرها عبد الله سنغكر ورفيقه أبو بكر باعشير.

وحسـب المحاكمات فقد اعترف عبد الله عمر بأنه توجه إلى مدرسـة نغروكي؛ ليحتمي مع من يلتقي بهم من خريجي مدرسة غونتور السابقين (باعشير وسنغكر منهـم أيضًـا)، وذلك بعد أن قـرأ في الصحف نبأ اعتقال مجموعات من الشـباب بتهمـة الانضمام إلى تنظيم الجماعة الإسـلامية، وخلال بقائـه هناك تتمحور التهم

الموجهة إليه باشتراكه مع مجموعة نغروكي في أعمال عنف، ثم سرعان ما أُعدم مع غيره في عام 1989.

وفي نفس الوقت، ظهر زعيم إسلامي جديد من تلاميذ غوث هو تمثار زوبيل - الذي كان ناشطًا في منظمة طلابية محلية - وقد قام الأخير ببناء علاقات خاصة مباشرة له مع رجال حركة دار الإسلام في سولاويزي الجنوبية وآتشيه، ثم اعتُقل هو وآخرون في عام 1977. وحُكم على تمثار زوبيل بالإعدام في عام 1978 (خُفف بعد ذلك) بتهمة تفجير كنيسة ميثودية؛ وهو ما اعتبر شابًا مدفوعًا بتاريخ رجالات حركة دار الإسلام. وأطلق سراحه فيما بعد سقوط سوهارتو كغيره من السجناء السياسيين، إلى أن ظهر مرة أخرى في أغسطس 2000 ضمن المجموعة التي أعلنت تأسيس «مجلس مجاهدي إنونيسيا».

■ باعشير وصحوة التيار الإسلامي..

شهدت فترة نهاية الثمانينيات والتسعينيات غضبًا شديدًا ومكتومًا في قلوب الإندونيسيين من المنتمين إلى التيار الإسلامي، وكذا من غير الإسلاميين من الكارهين لحكم سوهارتو. وذلك بعد أن أعلن سوهارتو سماه بـ «القواعد الأساسية»، وإجباره لجميع المنظمات والهيئات على قبول «المبادئ الخمسة» كأساس وأيديولوجية تعلو على الإسلام والمسيحية وغيرهما (أعلن الرئيس الأسبق سوهارتو هذه المبادئ في أغسطس 1982، وقدمت للبرلمان في 1983، وأُقرت من قِبله في فبراير 1985).

في نفس الوقت، عاد أبو بكر باعشير للنشاط من جديد بعد خروجه من السجن بتشكيل مجموعات دراسية صغيرة، بدأ ذلك بتجميع المعتقلين السابقين من مجموعة مدرسته في نغروكي في اجتماع شهري بهدف معلن هو لمّ شمل الأعضاء السابقين لجماعته الإسلامية الذين فرقتهم عمليات الاعتقال في السنوات الماضية، وارتبطت إعادة إحياء التنظيم بهيكلة على غرار تنظيم الإخوان المسلمين من أسر وشعب متدرجة، وكانوا يبايعون باعشير على طاعته ما دام لا يخالف قوله ما جاء في الكتاب والسنة بقسم يشبه ما درج عليه الإخوان. وقد تلقوا توجيهات تربوية وتنظيمة من باعشير حول كيفية تشكيل مجموعات صغيرة تتكون من 8-15 شخصًا في قراهم وأحيائهم السكنية، تحيي الشريعة الإسلامية فيما بينها وتسعى لجعل الإسلام منهج وإسلوب حياة. والحقيقة أن الجانب الدعوي لهذه المجموعات كان علنيًا، فالأعضاء كانوا مطالبين علنًا بالالتزام بالشرع في حياتهم، كما جاء في كتاب منهجي كتبه أبو بكر باعشير معنون باسم «الأسرة». ومع أن الظاهر أن الاسم مستلهم من فكر حركة الإخوان المسلمين ومؤسسها حسن البنا لكن تظل هناك خصوصية لمنهج أبي بكر باعشير تجعله مستفيدًا من أدبيات وفكر الإخوان لا امتدادًا لهم. وهذا ما تؤكده مشاهدات الساحة الإندونيسية اليوم.

كان تنظيم الأسر الذي شكله باعشير تجربة ضيقة الدائرة وقصيرة الأجل، فبعد أن عمل على أن يلتزم المنضمون له بالإرشادات التي وجههم إليها -كتفادي المنظمات والهيئات غير الإسلامية في معاملاتهم، بما في ذلك المدارس غير الإسلامية والمحاكم وكل ما هو مخالف للشريعة-، وبعد أن كان التنظيم يجمع مبالغ قليلة من الأعضاء باسم «الإنفاق» لمساعدة الفقراء والمحتاجين من الأعضاء ولتسيير أنشطتهم، جاءت نهاية هذا الهيكل «الأسري» سريعًا في بداية عام 1985 عندما هرب باعشير إلى ماليزيا في بداية عام 1985 وتم اعتقال أبرز الأعضاء. بعد أن أصدرت المحكمة حكما يطالبه بالمثول أمام الشرطة. حينها قرر الرجل ألا يواجه حكم وشرطة سوهارتو ولا يستسلم في نفس الوقت للسجن، بل قرر الهجرة، معلنًا للأتباع أنه يتبع منهج النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- في الهجرة من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة، وكانت جهة قصده ماليزيا المجاورة. وقامت مجموعة باعشير بالعديد من الاجتماعات في منفاهم بماليزيا، قرروا فيها مطالبة أعضائهم في صولو بجاوا -موطن مجموعتهم الأصلي- بأن يعملوا على تجميع أفراد يعملون في ماليزيا في شركات يمتلكها رجال أعمال ماليزيون متعاطفون معهم، على أن يكون 20 ٪ من راتب كل فرد مخصصًا لعملهم السياسي، كما قرروا إرسال سنغكر وباعشير إلى إحدى دول الخليج لجمع تبرعات لعملهم. لكن المجموعة لم تستطع جمع الكثير، وكان هدفهم الكبير المعلن هو تأسيس دولة إسلامية في إندونيسيا. المهم أن الرابطة بين مجموعة نغروكي في المنفى بماليزيا ومن بقي منهم في إندونيسيا ظلت قوية طوال سنوات «الهجرة»؛ بسبب علاقة الأساتذة بطلابهم أولًا، وبسبب علاقة القرابة ووجود أقرباء للمنفيين تركوهم في موطنهم الأصلي، وكثير منهم منضمون إلى نفس مجموعة باعشير؛ خصوصا بعد انتشار ظاهرة المصاهرة بين عوائل تيار الدولة الإسلامية عبر أكثر من جيل. كما أن باعشير وسنغكر استمرا في إرسال توجيهاتهما إلى الأتباع في جاكرتا وغيرها، وظل هذا الوضع قائمًا حتى سقوط سوهارتو فانقلب الحال.

■ حلم دار الإسلام..

أُجْبر الجنرال القوي سوهارتو على الاستقالة في مايو 1998، بعد ما يزيد على ثلاثين عاما يحكم إندونيسيا بيد من حديد، باليقين صار ذلك حدثًا يؤرخ به مرحلة فاصلة في تاريخ إندونيسيا الحديث؛ ومثَّل تنحي سوهارتو انفراجة واسعة للتيار الإسلامي، ليعلن عن نفسه ويظهر بقوة على السطح، وكان أول المسارعين للظهور من مكمنه في ماليزيا زعيم التيار الإسلامي أبو بكر باعشير. فعاد الشيخ مسارعًا بعد 15 عاما من العيش في منفاه بماليزيا، وعادت قيادات إسلامية كثيرة كان قد استقر بها المقام في ماليزيا وباكستان والسعودية ؛ وفي الفترة ما بين 5-7 من أغسطس لعام 2000 كان الحدث المهم حينما اجتمع شمل المجموعة المسمى مجموعة نغروكي بعد تفرق دام سنوات طويلة في مؤتمر معلن كبير في مدينة جوغجاكرتا سمي بـ«كونجرس المجاهدين» الذي يعتقد المراقبون أنه جمع كل من له صلة بتيار «الدولة الإسلامية» أو «دار الإسلام» في إندونيسيا لأول مرة في تاريخها ؛ وفيه ظهر إلى العلن للمرة الأولى ما يعرف اليوم بـ«مجلس مجاهدي إندونيسيا»، الذي لو قرأنا قائمة قياداته لوجدناها تكشف لنا تماما خريطة زعماء التيار الإسلامي من كل التوجهات عبر السنوات الماضية.

فسرعان ما اختير أبو بكر باعشير ليكون «أمير المجاهدين»، وتوليه رئاسة مجلس «أهل الحل والعقد» ليكون الهيئة الشرعية للتنظيم المعلن حديثا عملا على تطبيق الشريعة والهدف المعلن وجعل إندونيسيا دولة إسلامية.

وتشكل هذا المجلس من:

- **جمعيـة نهضة العلماء**: ويقدر عدد أعضائها بـ 35 مليون عضو، والمعروفة بالتيار التقليدي وهي تعتمد التوجه السلفي، وتنتشر في القرى والأرياف أكثر من غيرها وتشتهر بالقرى والمدارس العلمية.
- **الجمعيـة المحمديـة**: ويقدر عدد أعضائهـا بـ 28 مليون عضـو، المعروفة بالتيار الحديث (أو العصري حسـب السياق الإندونيسي الخاص)، ومن أبرز أبنائها اليوم رئيس مجلس الشعب د / أمين رئيس.
- **تيـار الحركـة الإسـلامية المعـاصرة المتأثر بفكـر الإخوان المسـلمين**؛ وهو الأحـدث لكنه الأسرع انتشـارًا، والأكثر احتضانًا للشـباب الإسـلامي الصاعد وطلبة وطالبات الجامعات والمعاهد والثانوي.

بالإضافـة إلى تجمعات تعليميـة أو دعوية أقل تأثيرا، كاتحـاد المبلغين، وجمعية الإرشـاد وبقايـا مجلس شـورى مسـلمي إندونيسـيا المتمثل في بعـض الأحزاب الصغيرة، وديوان الدعوة الإسلامية الإندونيسي.

وقـد أدت سلسـلة من التفجيرات اسـتمرت لسـنوات بدءًا مـن عام 2002 وضربـت بالتحديـد جزيرة بـالي إلى حدوث حالـة خوف كبيرة من الإسـلاميين كانـت قـد هدأت قليلا بعد سـوهارتو. ونسـبت جميـع التفجـيرات التي وقعت منذ ذلك التاريخ إلى الجماعة الإسـلامية، وأيضا شـملت تلـك التفجيرات فندق ماريوت عام 2003 وانفجار السفارة الأسترالية عام 2004 وغيرها.

وفي المقابل، أكدت الجماعة المحظورة في إندونيسـيا مسئوليتها عن التفجيرات السـابقة، وأنهـا جـاءت للـرد عـلى العلاقـات الحكوميـة الغربية (وعلى رأسـها الولايـات المتحـدة وأسـتراليا) واعتقـال زعامـات للتيـار الإسـلامي كأبي بكر باعشـير، والمجازر التي تقع بحق المسلمين في إندونيسيا.. في المقابل فإن الحكومة ماضيـة هي الأخرى في ملاحقة ومتابعة هذه الجماعات، عبر زيادة حدة الأحكام القضائيـة الصـادرة بحقهم، وتعزيز قـدرات الأمن الداخلية، وفتـح الباب أمام

الولايات المتحدة وأستراليا؛ لتلعب دورًا استخباراتيًّا وأمنيًّا أكبر في البلاد. مقابل صمت أمريكا وحلفائها عن ملف انتهاكات حقوق الإنسان.

باليقين خريطة الإسلام السياسي في إندونيسيا شديدة التنوع والتباين، خريطة تتسارع فيها الأحداث بما ينذر بانفجارها في أي وقت على نحو لا يتوقعه أحد. الحكومة الإندونيسية تعتنق فكرة وأيديولوجية محاربة فكرة الإسلام السياسي، لكن تظل فكرة إقامة دولة إندونيسيا الإسلامية حلمًا يجمع شتات التيار الإسلامي.

التيارات الإسلامية في المشهد الجزائري

طور الظهور:

الحركة الإسلامية الجزائرية من أخطر الحركات الإسلامية في تاريخ الإسلام السياسي الحديث، ومن أكثرها زخمًا وتنوعًا ودموية، وكيف لا وقد تمثلت فيها جميع التيارات الإسلامية من الإخوان المسلمين والسلفيين والجهاديين وجماعات التبليغ وحتى الطرق الصوفية التي تضرب بجذورها في أرض وتاريخ الجزائر؟ وقد تحقق الميلاد العسر للجبهة بعد خريف الغضب الذي انفجر في شهر أكتوبر 1988، وشهد صدامات مروعة بين السلطات الجزائرية والحركة الإسلامية المسلحة المحظورة بقيادة الجهادي مصطفى بو يعلى؛ تطورت المواجهات بين الطرفين سريعًا، وحدثت أعمال شغب وتساقط مئات القتلى والجرحى، وشكلت هذه المواجهات صدمة عنيفة للشاذلي بن جديد رئيس الجمهورية، ولكنه سرعان ما سارع بالتواصل مع قيادات الإسلاميين مختلفي التوجهات والمشارب، وعُقد اجتماع في مقر الرئاسة التقى فيه مع قيادات التيارات الإسلامية التي كانت مغلولة الحركة بقوة القانون واسعة التأثير شعبيًا، وهم: عباس مدني وعلي بلحاج وأحمد سحنون، وانتهى الأمر سريعًا إلى تحالف الشاذلي بن جديد وقادة الإسلاميين

لإعادة الهدوء إلى الشارع الجزائري مقابل وعد من الشاذلي لهم بالسماح لهم بالعمل السياسي الحر.

وهكذا أنقذ الإسلاميون الشاذلي بن جديد من ورطته، ورد الرجل لهم الجميل وكان ميلاد الجبهة الإسلامية للإنقاذ في مارس 1989؛ وبالنظر إلى التنوع في توجهات التيارات الفكرية التي يمثلها مؤسسو الجبهة، فقد صارت في حقيقتها تمثل تحالفًا سياسيًّا لتيارات إسلامية يجمعها أهداف مشتركة أظهرها كما نص بيان تأسيسها: إحلال الإسلام مكان الأيديولوجيات المستوردة.

والواقع أن تعلق الجزائريين بالدين الإسلامي كان العامل الأول الذي كتب للجبهة الوجود القوي المؤثر فور الميلاد، والحقيقة أن الجبهة بدأت من اليوم الأول لنشأتها في إعلان هدفها الرئيسي وهو إنشاء الدولة الإسلامية، واعتبار أن ذلك واجب إلزامي وهدف استراتيجي.

ومضى الشاذلي بن جديد في ترتيب الملعب ليتسع للإسلاميين، فاستطاع الرجل أن يمرر التصويت على الدستور الذي فتح الباب للتعددية الحزبية، وفيه قبرت المبادئ الاشتراكية، وعليه تقدمت عشرات الأحزاب السياسية للتسجيل، وكان في المقدمة الجبهة الإسلامية للإنقاذ التي اكتملت أركان الشرعية لها في أغسطس التالي. وأصبح واضحًا للعيان أن الجمهورية الجزائرية تدخل مرحلة جديدة قوامها التعددية الحزبية وخروج القوات المسلحة من المعادلة السياسية وعودته إلى ثكناته - نظريًّا على الأقل -.

■ طور التمكين..

منذ اللحظة الأولى لدخول التيارات الإسلامية الجزائرية تحت مظلة جبهة الإنقاذ المعترك السياسي وهي تتحين الفرصة لتحقيق هدفها ومبتغاها وهو إعلان الدولة الإسلامية وفق فهمها الخاص، وبدأت الأضواء تسلط على قادة الجبهة وتقوم بفرز أفكارهم، وبالأخص في حقيقة تمسكهم بالديمقراطية وقيمها، وبالفعل كانت هناك أفكار تعتمل في عقول قيادات الجبهة تشكل عداء سافرًا للديمقراطية وتكشف عن مكنون قلوب عدد من قادة الجبهة من اعتبارهم أن الديمقراطية مجرد وسيلة شيطانية يتعامل بها المسلم في سبيل تمكين الإسلام. ويكفي أن تتابع مقالات علي بلحاج في جريدة «المنقذ» لسان حال الجبهة في تلك الفترة فتجد الرجل يقول: (إن الديمقراطية وسيلة قادة الأحزاب السياسية لمغازلة الناس ومجاراة طموحاتهم حتى وإن كان على حساب العقيدة والدين والاستقامة والرجولة، أما بالنسبة لنا أهل السنة والجماعة فإن الحقيقة لا تقاس بعدد المناصرين، بل بالحجة التي أتت بها العقيدة، فالحقيقة لا تقررها الأغلبية حتى وإن كانت مسلمة، كما أن الميزان ليس مؤتمرا أو برلمانًا بل الأخذ بالحقيقة الإلهية حتى وإن كنا وحدنا الذين نفعل ذلك).. ويردِّد بلحاج في مقال آخر بجريدتهم: (الديمقراطية مؤسسة غير إسلامية وواجبنا أن نعارض اليهود والمسيحيين وعدم مجارتهم في أعرافهم وتقاليدهم..). ولم تكن هذه التصريحات وغيرها لعدد من قيادات الإسلام السياسي الجزائري إلا وقودًا لحالة الترقب والخوف من تسلم الجبهة مقاليد السلطة بالبلاد، وقد تسرب مبكرًا هذا الإحساس للجيش الجزائري الذي ربض مؤقتًا في ثكناته مراقبًا عن كثب تحركات الوافد الجديد المغتر بقوته على الساحة السياسة الجزائرية، في حين كان الإسلاميون لا يضيعون فرصة لزيادة مخاوف العلمانيين منهم حتى جاء عام 1990؛ وهو عام التمكين للتيار الإسلامي كما أطلق عليه قادته.. وارتفعت رائحة الحريق مع قرب

موعد الانتخابات وكانت تظاهرة السلام الحاشدة في أبريل 1990 التي جاءت قبل أسابيع من الانتخابات البلدية إيذانا ببدء فصل جديد يحمل قدرًا مروعًا من الإثارة الدامية. حيث كانت هذه المظاهرة الأكبر في تاريخ الجزائر وأشاعت لدى الإسلاميين بوادر أمل بدنو ميلاد الدولة الإسلامية، وشكلت الخطابات التي ألقاها زعماؤها، لاسيما بلحاج جرس، إنذارًا مدويًا للقوى المدنية وللقوات المسلحة التي كاد أن ينفد صبرها، وهو ما توجس منه بعض الزعماء الإسلاميين المعتدلين وعلى رأسهم القيادي أحمد بن سحنون الذي حذر من مخاطر مثل هذه التظاهرة، وأشار إلى أنها ستكون سببًا لحريق لا يعلم منتهاه أحد، وكان ردّ الشيخ عباس مدني: (إننا نحب الشيخ سحنون ولكننا نحب الحقيقة أكثر..)، وهكذا تسارعت الأحداث نحو صدام أصبح معلومًا للكافة أنه قادم لا محالة. ولم يعد هناك إلا توقيت انفجاره.

■ نزول الدبابات..

جاء انتصار جبهة الإنقاذ الكاسح في الانتخابات البلدية التي جرت في يونيو 1990 ليقطع أن الصدام في الطريق قريبٌ جدًا، حيث فازت الجبهة بنسبة 55 ٪ في ظل تراجع عنيف لجبهة التحرير الوطني وباقي الأحزاب الأخرى، واستكملت الجبهة الصورة بمحاولات محمومة مستميتة لقطف ثمار النصر الذي حصدته الجبهة انتخابيًا وبسرعة قياسية، إلى الحد الذي اعتبره خصومها نوعا من الإقصاء الفاشي.

وظلت العلاقة هادئة نوعا ما بين الجبهة وقمة السلطة متمثلة في الشاذلي بن جديد، وإن لم تخل من محاولات بين الطرفين تسعى لجر الآخر ناحيته، واستمر ذلك نحو عام حتى تحول الأمر إلى صراع علني بين الطرفين، وأعلنت بعد ذلك الجبهة تغيير استراتيجياتها نحو تغيير قمة السلطة، وتصاعدت التصريحات بطريقة لاهثة مروعة بين الطرفين، وأصبحت المعركة بين الرئيس والجبهة معركة حياة وموت، وتمزق ما يسمى بشعرة معاوية تمامًا إلى غير رجعة، وتحول الهدف الرئيسي إلى إسقاط الشاذلي الذي لم يعد أخًا في نظر زعيم الجبهة عباس مدني، بل أصبح مسمارًا مزروعًا في كعب الجزائر يكفي اقتلاعه لكي تعود الحياة إلى طبيعتها - على حد قوله -؛ ولم يكن أمام الشاذلي بعده إلا التلويح باللجوء الجيش الجزائري لحسم الأمر المضطرب بهذا الخيار المُر، وخصوصًا بعد أن أعلنت الجبهة العصيان المدني، ورفعت شعار (لا عمل ولا دراسة حتى سقوط الرئاسة). اندفعت الأمور إلى الهاوية بعد إعلان عباس مدني في التظاهرة الكبرى يوم 4 يونيو 1991 قائلًا: (إذا تحركت الدبابات فإن الشعب سوف يلتهمها)؛ وبالفعل تحركت الدبابات.

وأي متابع للشأن الجزائري كان على يقين من حدوث الصدام المروع بعد نتيجة الدور الأول للانتخابات التي شهدت الاكتساح الهائل لجبهة الإنقاذ،

وما سبقه وتلاه من تحرشات بين الرئاسة ومن ورائها الجيش وبين الجبهة وكل التيارات الإسلامية المتحالفة معها.

المثير أن الشاذلي بن جديد كان أول من دفع الثمن فور نزول الدبابات للشوارع، فقد كانت خارطة الطريق التي رسمها الجيش تقضي بعزله عن منصبه لتهاونه في الحفاظ على الهوية المدنية والحريات العامة التي هددتها جبهة الإنقاذ، وقرر الجيش تولية محمد بوضياف الملقب بقديس الثورة الجزائرية، وأحد رموزها التاريخية، وذلك بعد غياب عن الجزائر لمدة ثلاثين عامًا قضاها في منفاه الاختياري بفرنسا؛ وقد كان بوضياف أحد المعارضين الشرسين لجبهة الإنقاذ منذ خطواتها الأولى في مضمار السياسة الجزائرية، وكان يصدح بأن جبهة الإنقاذ ليست سوى مجموعة خارجة على القانون، وأنه لا يجوز السماح بنشوء أحزاب على أساس ديني، فالدين ملك الجميع، كما كان بوضياف شديد العداء للأحزاب العرقية كالأحزاب التي تنطلق من أرضية الهوية الأمازيغية.. وكان دوما ينادي أن تكون الأحزاب بأساس من البرامج والأهداف لا الدين والأعراق.

المهم أن بوضياف لم يمكث في سدة الحكم إلا 166 يومًا، حيث اغتاله أحد حراسه المدعو الملازم مبارك بومعرافي، وستكشف التحقيقات انتماءه إلى الجبهة الإنقاذ لتدخل البلاد في دوامة العنف وبحور الدماء...

■ حمام الدماء..

دخلت الجزائر بسرعة مروعة لأتون الحرب الأهلية، وضربت البلاد حالة مفزعة من العنف والاقتتال وكل طرف يتهم الآخر بقيادة ركب الإرهاب المسلح. وشهد المسرح الجزائري عام 1994 انسحاب الجنرال القوي خالد نزار وزير الدفاع بعد أن أتم مهمته الرئيسة بإقصاء التيار الإسلامي عن سدة الحكم، الذي سيتم ملاحقته حتى وقتنا الراهن بدعاوى قضائية دولية بتهم التورُّط في الاختفاء القسري لجزائريين خلال الأزمة الأمنية العنيفة التي شهدتها الجزائر.

ثم جاء الرئيس الجديد الأمين زروال فانشغل بفتح قنوات اتصال مع جبهة الإنقاذ لوقف حمام الدم إلا أن هذه المحاولات فشلت أو أفشلت في تقديري، وانتهت هذه المفاوضات بوقفها من جانب التيار الإسلامي على خلفية اتهامهم لزروال والحكومة الجزائرية بارتكاب مذبحتي: سجن الفراوقية وسجن زركاشي، وسرعان ما ظهرت على الساحة الجزائرية تنظيمات مسلحة ومدربة بشكل شبه عسكري كالجيش الإسلامي للإنقاذ وعدد من الجماعات الإسلامية المسلحة. وازدحمت الساحة بتنظيمات وتشكيلات مختلفة، ولم تكتفِ الحكومة الجزائرية بمواجهتهم عسكريًا لكن استطاعت بدهاء كبير أن توقع بينهم الفرقة وتكشف أوارق مفاوضتها السرية مع عدد منهم، والأهم اللعب على تناقضتهم الفكرية الكبيرة الواسعة. وتمزقت وشائج التيار الإسلامي كأظهر ما تكون بتوزيع بيان تنظيم التكفير والهجرة الجزائري بزعامة أحمد أبو عمرة المعنون: (الحجج الجلية في كفر أتباع الجبهة الإسلامية وكل من زاول الانتخابات ودخل في دين الديمقراطية)!! واعتبر هذا التنظيم الشيخ عليّ بلحاج بالاسم رجلًا منافقًا كذوبًا.

وبتحليل طبيعة من انخرط في صفوف التيارات الإسلامية التي مارست العنف على الساحة وقتئذ تجدها نشأت وترعرعت في الرحم الأفغانية، وعادت

إلى الجزائر والقناعة تملؤها أن العلمانية الجزائرية في حقيقتها مشروع تغريبي صليبيٌ مُعادٍ للإسلام، ولقي هذا الطرح للأسف قبولًا كبيرًا لدى البسطاء والمُهمشين، وتطورت مسيرة هذه المليشيات المسلحة وقدراتها حتى سيطرت على الساحة في ولايات عديدة على رأسها الجزائر العاصمة، البليدة، بومرداس، جيجل، المدية، عين الدفلة، تيبازة.. وتشكلت أغلب هذه الميلشيات من الشباب العاطلين عن العمل والباحثين عن الزعامة من دون أدنى مؤهلات، وبرزت أسماء جديدة لقادة التكفيريين مثل مدني مزراق والشريف قواسمي وعبد السلام جامون الشهير بالدباح، وتعاظمت قدرات هذه الجماعات التكفيرية وخرجت عن السيطرة حتى من زعماء جبهة الإنقاذ من سلفيين وأخوان مسلمين، بل وتمادت هذه الجماعات في إصدار فتاوي التكفير بحق قيادات جبهة الإنقاذ، واختلط الحابل بالنابل وصار القتل لغة الحوار اليومية في أنحاء بلد المليون شهيد..

■ مَن يقتل مَن في الجزائر؟

تطور المشهد الجزائري الدامي بشكل درامي سريعًا، دب الخلاف بين أبناء التيار الإسلامي وتطايرت فتاوي التكفير والتفسيق بين أبناء التيار الواحد، صارت الانشقاقات هي الطابع الغالب على الساحة. بادر جمال الزيتونى الأمير القوي لجيش الإنقاذ إلى تكفير شيوخ جبهة الإنقاذ وإهدار دمائهم، وتطور الأمر في المسار الدامي باغتيال الزيتوني بعد إعلان مجموعة من الجماعات المسلحة أنه صار يتبنى منهج الخوارج في تحليل دم المسلمين فكان لزامًا عليهم تحليل دمه! وخلفه قيادة دموية هو عنتر الزوابري الذي توسع في منهج التكفير وأعمال القتل تجاه أفراد السلطة وكذا خصوم الجماعة من التيار الإسلامي. وحدثت نقلة نوعية في عمليات الترويع والإرهاب بدأت بخطف طائرة الإيرباص الفرنسية من مطار الجزائر، ثم حملة تفجيرات في قلب فرنسا عن طريق مجموعاته هناك أسفرت عن قتل 9 وإصابة 150. وتطورت الأمور لاختطاف رهبان فرنسيين وقتلهم في ولاية تبحرين، وهو الأمر الذي تبعه تدخل فرنسي محموم لإحداث انشقاق داخل التنظيم بمعاونة السلطة الجزائرية.

تحقق ذلك الأمر بعزل زوباري وتعيين حسان حطاب الذي ما لبث أن تم عزله وتعيين نبيل صحراوي الذي استقرت له الإمارة شهورًا، لكن سرعان ما تم عزله لصالح الأمير الجديد عبد المالك دوردكال وشهرته أبو مصعب عبد الودود، وهو لا يزال الأمير المتربع على الجماعة إلى الآن.

وشهدت كل هذه المراحل حالة محمومة من القتل العشوائي المروع حتى صار السؤال: من يقتل من، ولماذا؟

وكان لزامًا أن تصل الجزائر إلى نقطة نهاية لهذه المذابح المروعة بعد أكثر من عشر سنوات كانت عسيرة على الشعب الجزائري سميت بحق «العشرية

السوداء»، شهدت تخريبًا وتدميرًا للمنشآت العمومية من تنفيذ الجماعات الإرهابية. وتداول خلالها السلطة عدد من الرؤساء من محمد بوضياف وصولًا إلى زروال.

وجاء عام 1999 وفيه انتخب عبد العزيز بوتفليقة رئيسًا رابعًا للجزائر خلال هذه الفترة المؤلمة، وضع الشعب الجزائري كل الآمال فيه ليجد مخرجًا سلميًا لهذه الأزمة، وقد حاول بوتفليقة منذ وصوله إلى سدة الحكم إيجاد حلول فعالة لإعادة السلم والأمن للبلاد، وكان هذا من أبرز الوعود التي قالها للشعب عند انتخابه، وبعد فترة وجيزة من توليه الحكم أصدر بوتفليقة قانون الوئام المدني. الذي ساعد في التخفيف من مستوى العنف مع تسليم المسلحين لسلاحهم لا سيما الجناح العسكري للجبهة الإسلامية للإنقاذ، وفي الطريق الموازي وجه بوتفليقة بعض الاتهامات إلى المؤسسة العسكرية التي تسببت في اندلاع العنف بعد توقيفها المسار الانتخابي، إلا أنه في ذات الوقت لم يستطع خلال مدة رئاسته الأولى المساس بتوازنات الجيش الحساسة أو تجاوز الخطوط المرسومة له، أما في مدة رئاسته الثانية فعمل إلى تعزيز صلاحياته الرئاسية مستغلًا توجهات دولية تدعو إلى ضرورة تجنب دخول الجيش الحياة السياسية، إلا أن إخفاق قانون الوئام المدني في معالجة الأزمة جذريا جعل الرئيس بوتفليقه يتخذ خطوة أخرى إلى إعلان ميثاق السلم والمصالحة الذي عده بمثابة الخطوة الثانية بإلغاء المتابعات القضائية في حق كل الأفراد الذين سلموا السلاح. طرح هذا المشروع في استفتاء شعبي في منتصف 2005، وكانت نسبه المشاركة قد وصلت 80 ٪ بينما فاق عدد المصوتين بنحو 97 ٪ وهكذا يؤكد بأن الشعب الجزائري صار تواقًا إلى نبذ العنف، إلا أن جبهة الإنقاذ رفضت هذا الميثاق ورأى قادتها أنهم بموجب هذا القانون يتحملون أوزار العنف، ويظهرهم أنهم المتسببون الوحيدون في الأزمة. هذا الرفض حال دون إنهاء العنف بصورة نهائية إلا أنه بدأ ينحسر تدريجيًا وإلى زوال قريبًا بمشيئة الله..

الحركة الإسلامية في السودان

نميـــري والترابـــي ومحـــجـــوب:

في الســودان كانت العلامة والنبراس لتيارات الإســلام الســياسي هي حسـن الــترابي المولـود عـام 1932، كان الرجـل وبحق هو ســاحر الجماهير، الممسـك بزمـام القلـوب، والقـوة الدافعة للحركـة الإسـلامية. وفي الوقت الـذي كانت الرحم الأم في مصر تخوض محنتها الثانية في منتصف الستينيات من القرن الماضي كان حسـن الترابي يؤسـس جبهة الشرعية الإسـلامية، ومن اللحظة الأولى تبنت الجبهة خطاب الإخوان المسـلمين المصريين ووجهة نظرهم في التنظير، وفي نفس الوقت الذي قلدت الحزب الشيوعي في التنظيم. وما بين تنظير الإخوان وتنظيم الشيوعيين كان لجبهة الترابي نكهتها المميزة.

طرح الترابي نظريته في الحل الإسـلامي على أسـاس من كون الإسـلام قادرًا على تأمين مخطط شـامل للتطور الاجتماعي، والسياسي، والاقتصادي في مواجهة كل الأنظمة البديلة التي تطرح نفسـها على السـاحة من الاشـتراكية والشيوعية. واجتذب الترابي بطرحه السـهل وفصاحته قلوب كثيرٍ من السودانيين، وسهل له ذلك طبيعة الشعب السوداني شديد التعلق والإخلاص للدين، الذي كان يرسم

طريقًا لبلورته على أرض الواقع عن طريق انخراط جمهرة كبيرة من السودانيين في الحركة المهدية، أو في الطرق الصوفية التي يتكاثر مريدوها في السودان، خصوصًا الطريقة القادرية والرفاعية والأحمدية والشاذلية والميرغنية والختمية والتيجانية، واستطاع الترابي في خلال عشر سنوات أن يستقطب عددًا كبيرًا من مريدي الطرق الصوفية المنتشرين في كل ولايات السودان، كما تمكن من الحضور بشكل ملحوظ في صفوف طلبة الجامعات السودانية.

وفي الوقت الذي كان الترابي وجماعته يتغلغلون في مفاصل السودان أطاحت حركة الضباط الأحرار في مايو 1969 بقيادة جعفر نميري بالجمهورية، وأعلنت مجلسًا قياديًا ثوريًا، على غرار النسق الذي سبقهم فيه الزعيم جمال عبد الناصر، وتكاد أن تتشابه الظروف، فكما دخل ناصر في صدام مع الإخوان والشيوعيين في آن واحد، كان ذلك هو نفس مصير نميري ورفاقه الذين ما لبثوا أن اشتعل الصراع بينهم وبين الإخوان والشيوعيين، كما واجه نميري موقفًا صعبًا فرضته طبيعة السودان التي شاءت الأقدار بأن يكون مربعا لأقوام مختلفي اللغة والأديان والمنابت. من هؤلاء من ترعرع أسلافهم فيه، ومنهم من وفد أسلافهم إلى رُباه وطاب لهم المكان فاستقروا فيه وأقاموا. لهذا أصبحوا جميعًا أصحاب حق أصيل في البلاد. وقد يكون ذلك مصدر خير داني النتاج، كما قد يصبح ذريعة شر واقتتال، وصدق الله: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ (الأنبياء: 35).

كان الصدام مع الشيوعيين سريعًا وداميًا وكان الضحايا في هذا الصراع كثرًا على رأسهم أحد أصحاب الفكر الخلاق في تاريخ السودان الحديث، وهو المرحوم عبد الخالق محجوب زعيم الحزب الشيوعي السوداني الذي كان ذا حضور مؤثر في المحافل الشيوعية العالمية. ألف عددًا من الكتب القيمة، وحاول فيها طرح وإيجاد صيغة سودانية للماركسية بدلًا عن التطبيق الحرفي للصيغة السوفييتية أو الصينية، ورفض بشكل قاطع التبعية للحزب الشيوعي السوفييتي على النقيض من عدد كبير من الأحزاب الشيوعية الأخرى، كما كان يرفض الربط

بين الشـيوعية والإلحاد، وأن الشـيوعية مذهب اقتصادي ومنهج للحكم الرشيد لا يمكن بحال اعتبارها بديلًا عن الإسلام.

وانتهـز النميري فرصة انقلاب هاشـم العطا يوليو 1971 الذي اسـتولى على السـلطة لمدة ثلاثة أيام قبل أن يسـترد النميري السـلطة، فاتهم الحزب الشـيوعي بتدبير الانقلاب نظرًا لاشـتراك عدد من الضباط المنضمين إلى الحزب الشـيوعي فيـه وعلى إثـر ذلك تمـت تصفية عدد كبـير من قيـادات الحزب الشـيوعي وعلى رأسـهم محجوب، الذي انتهت حياته على حبل مشنقة سـجن كوبر في السـاعات الأولى مـن صباح الأربعـاء 28 يوليـو 1971م، وبموته لم يعد الحزب الشـيوعي السـوداني لسـابق نفوذه أبدا بعد إعدام أغلب قيادات الحزب. وانتهى فصل من الفكر في الحياة السياسية والاجتماعية السودانية.

■ النميري والترابي بين تسييس الدين وتديين السياسة..

في عـام 1977، بدأ النميري التحـرك في الاتجاه المعاكس، لم يتعلم الرجل من خطيئة السـادات الكبرى فأراد أن يسـتخدم تيار الإسـلام السياسي للقضاء التام على الحزب الشـيوعي الـذي كان قد ناله الإجهاد، ولكـن انتهى الأمر أن انقلب السحر على الساحر..

لم يتعلـم نميري مـن درس مصر، واقترف خطيئة السـادات الكبرى، فأخرج السـبع من محبسـه، معلنًا للشـعب الحاجة إلى مصالحة وطنية. وسـعيًا في الحقيقة وراء إضفاء شرعيةٍ أكبر وأعمق لنظامه، دخل نميري في تفاهمات مع الترابي بعد أن أطلق سراحه من السـجن، سـمح لـه وجماعته بدخـول الانتخابات، وزادت حرارة العلاقة فنصب الترابي نـائبًا عامًا للسـودان! وسـبحان مقلب الأحـوال، سجين بالعشية صبيحتُه نائب عام؛ لكنها السياسة وتقلباتها كساقية لا تكف عن الدوار. ترفع وتخفض وتقيم وتكسر.

لم يكـن هـذا الانقـلاب في المواقـف سـهلًا على عـدد كبير من رفـاق الترابي، فبالأمـس القريـب تعـرض محور الـترابي - المهـدي (وبالمناسـبة كانـت تربطهما مصاهـرة) الذي أطلقـوه لمحاربة السـلطة لهجوم عدد من الإخـوان، فقد اعتبره البعـض احترابًـا بين مسـلمين غير سـائغ التبرير، والمذهـل أنه بعد أقـل من عام وببرجماتيـة منقطعـة الوصـف والنظير يدلـف القطبـان إلى موادعـة وتحالف مع نميري عدو الأمس القريب، لم يستطيع الترابي أن يبرر تقلباته لكثير من أنصاره، فكيـف لمـن كان يحارب النظـام أن ينقلب بين عشـية وضحاها نائبًـا عامًا في ظل نفس النظام؟ والحق يقال إن الرجل خطيب مفوه لاذع العبارة شديد الميل يصفق خلـف كلماته أبـواب الرجوع، فتصير ردته عـمّا صدح به تقلبًا غـير مهضوم على العقـول السـوية. فـأنّـىٰ للرجل الـذي كان يقصف نمـيري وانقلابـه فيودعهم السـجون أن يجلس على مائدة واحدة معه يدير ويقول، ورغم عدم تغير مضمون

حكم نميري الذي كان يصمهم بأنهم غير شرعيين ومجرد انقلاب. وبسبب ذلك الانقلاب المنهجي انفصلت مجموعة من الإخوان عن الترابي وفريقه، قادهم الصادق عبدالماجد ويوسف نور الدائم، واحتفظ المنشقون عن حسن الترابي بلقب الإخوان المسلمين، وارتبطوا بالتنظيم الدولي، لكن هذا الانقسام لم يعره الترابي اهتمامًا، بل اجتهد الرجل لتوجيه أنصاره بعدم الرد على هجوم المنشقين أو الدخول معهم في صدامات أو مجادلات تذهب بعيدًا، وهذه ميزة سياسية في شخصية الترابي، إذ يبقي دوما شعرة معاوية مع أي تنظيم إسلامي مهما تعاظم بينهم الخلاف، وحتى لمن يبلغ الشطط في خصومته له كحال المجموعة الإخوانية التي تزعمها الشيخ سليمان أبو نارو التي شطت حتى كفرت الترابي وإخوانه، وحقيقة لم يكن وزن المنشقين مؤثرًا بصورة عامة على قدرة الترابي على إمساك الزمام والتحكم في مفاصل تيار الإسلام السياسي بالسودان، وكان الرجل وبحق صاحب نظرية ميكيافيلية في (تسييس الدين) و(تديين السياسة)..

كما استخدم الترابي سياسة النفس الطويل مع القوى والحركات الوطنية الأخرى مهما بلغت مساحة الخلاف معها، فقد اجتهد في سوق عقول مريديه بعيدًا عن الفكر الجهادي أو التكفيري أو الوقوع في فخ المفاصلة، أي فصل نفسها عن المجتمع الجاهلي. وباليقين أن ذلك التوجه يتماشى مع روح التسامح السائدة في السودان المتعدد الديانات والأعراق بصورة لا نظير لها على وجه الأرض. وقد تعلم الترابي من درس التيارات الإسلامية في مصر التي أسرفت وأبدعت في القول بالتكفير. وإن ظل الرجل يدخر في جعبته بعض فتاوى التكفير عند لزوم الأمر واشتداد الظرف.

المهم بدأ تنفيذ اتفاق نميري - الترابي لأسلمة السودان، ففي عام 1983 ألقى نميري عصاه السحرية فأعلن أن الشريعة الإسلامية صارت هي قانون البلاد، واستخدم المد الجارف الذي يهتف في كل أرجاء السودان «الإسلام هو الحل» وسيلة للحشد لمواصلة المجهود الحربي في جنوب السودان بعد تجدد القتال.

سرعـان ما شـكّل النميري محاكم الطـوارئ الخاصة بما ظنـه تطبيقا للشريعة، لتندفـع تلـك المحاكم في طريـق بتر الأيـدي في قضايا سرقات لم يسـتوف أغلبها الأركان الموجبـة المتفـق عليهـا للحـد، والتشـهير بالنـاس رجـالا ونسـاء بتهمة كوميديـة ما أنزل الله بها من سـلطان هي: الشروع في الزنـا، كانت بالقطع محاولة فجة لتطبيق الشريعة، عاونه فيها من بعيد الترابي، الذي كـان حريصًا على أن يدبر الأمور ولا يبوء بإثمها.

وتبرئة للإسـلام العظيـم من تلك القوانـين المزعومة أصدر المفكر السـوداني محمود محمد طه منشـورا عنوانه «هذا أو الطوفان» انتقد فيه ما كان يجرى وقتها، وفحوى المنشـور أن «قوانين سـبتمبر المسـماة قوانين إسلامية تشـوه الدين وتهدد الوحـدة الوطنية للبـلاد». وعندما وقع المنشـور في أيدي جلاوزة نميري سـارع ومستشـاروه بتدبير محاكمة صورية للمفكر محمـود محمد طه. وكانت التهمة هي الـردة، وهي التهمة التاريخية التي لا يستغني عنها كل طاغية في مواجهة العقول الحرة، وجرت وقائع المحاكمة العجيبة.

■ الشهيد طه وسقوط النميري..

قُدم المفكر السوداني محمود محمد طه للمحاكمة بتهمة الردة، قاطع طه المحاكمة منذ البداية، ورفض أن يترافع المحامون المتطوعون عنه، في التهمة التي كيفها نظام النميرى والترابى ضده، وآخر ما قاله: أنا أعلنت مرارًا رأيي في قوانين سبتمبر 1983 من أنها مخالفة للشريعة، ومخالفة للإسلام، وأنها استغلت لإرهاب الشعب، كما أن القضاة الذين يتولون المحاكمة تحتها غير مؤهلين تمامًا، تستعملهم السلطة التنفيذية لإضاعة الحقوق وتشويه الإسلام.

الرجل ببساطة اتُهم بالردة عن الإسلام وهو يدافع عن سماحته ونقائه في وجه من يريدون أن يمتطوه لتحقيق مآربهم، لم يعترف طه بالمحكمة، ليقينه بأنها انعقدت لتنطق بحكم سابق التجهيز، وهذا ما حدث بالفعل، لم يحاول النظام حتى أن يجمل صورته أو يضع بعض الرتوش والأصباغ، بل كان أعمى شديد القسوة في تحقيق مراده، فقد عقد القاضي الهُمام جلسة واحدة ليس لها ثانية، وفي الثانية لم يتوان الرجل بل نطق بالحكم، ولم تستغرق المحاكمة الهزلية سوى 13 يومًا، اعتقل طه في يناير 1985، وصدر الحكم في 7 يناير، وفي 15 يناير صدر تأييد الحكم ورفض الطعن عليه، وتحدد للتنفيذ صباح الجمعة 18 يناير 1985!!.

اقتيد الشهيد محمود طه إلى ساحة سجن كوبر لينفذ فيه حكم الإعدام على رؤوس الأشهاد، كان الثبات هو التعبير المرتسم على وجهه، كانت عيونه متحدية، وفمه صارمًا، ثابت لا يرتجف، ولم تبد عليه مطلقا أية علامة من علامات الخوف الذي يستولي على أي نفس تُساق إلى الموت، بدأ الحشد المغرر به في الهتاف، بينما كان على المنصة مجندان يلبسان زيًا رملي اللون، يضعان عُقدة الحبل على رقبة محمود طه. فجأة تراجع الحراس للوراء، ثم سحبت أرضية المنصة. ارتفع الشهيد إلى ربه، واشتعل الهدير في الساحة «الله أكبر» ثم بدأ الحشد الكبير الغارق في غيبوبته في تكرار الهتاف بشكل جماعي: «الإسلام هو الحل»

الرجال الذين استبدت بهم الحماسة عانقوا وقبّل بعضهم بعضًا. ولم يفهم هؤلاء العوام الذين هللوا لإعدام طـه في ذلك اليوم أن الرجل الصالح نفى تمامًا أنه ارتد عن الإسلام، وكان هذا شرعًا يكفيه لدرء الاتهام الملفق له، ولم يستوعب هؤلاء البسطاء أن الرجل الذي يتدلى جسده أمامهم كان مصلح ديني مستنيرًا وليس مهرطقًا ولا زنديقًا، أو مرتدًا عن الإسلام حتى يكبروا على نحره، فهو ببساطة كان مفكرًا صلبًا في الحق ومؤمنًا صادقًا وقف في وجه التطبيق الوحشي المشوه للشريعة الإسلامية. والمدهش أنه بعد مرور 76 يومًا من تنفيذ الحكم سقط حكم نميرى. وقبل أن يسقط الرجل اصطدم مع الحليف اللدود حسن الترابي، ففي أيامه الأخيرة أراد الترابي أن يغسل يده بعدما استيقن بذكائه أن النميري يتهاوى، فلم يكن بد من الصدام. وعاد الترابي وإخوانه إلى السجون مرة أخرى.

ومثل لهم سقوط النميري مخرجًا سريعًا من غياهب سجن كوبر بالخرطوم لينهض الترابي سريعًا لتأسيس حزبه الجديد الجبهة الوطنية الإسلامية، ويشارك في الانتخابات البرلمانية يحدوه الأمل في تحقيق صدارة السباق، لكن الصاعقة التي زلزلت كيانه وإخوانه أن حل حزبهم ثالثًا في السباق بنسبة لا تتعدي 18 بالمائة من الناخبين.

سريعًا، وبدهائه المعتاد استطاع الترابي إعادة تدوير الهزيمة، فقد تزامنت الانتخابات مع الطامة الكبرى المتمثلة في إعلان صندوق النقد الدولي إفلاس السودان، وما صاحب ذلك من انهيار للاقتصاد واشتعال للحرب في الجنوب، هنا أطلق الترابي دعاته ومبشريه الذين جاسوا خلال الديار لإقناع البسطاء بان المنقذ من الأزمة ومستنقع السقوط في كل الأصعدة هو منهج الترابي ومن معهم في فهم الإسلام، وخلال عامين حقق الترابي خطوات ملموسة للإمام في استجلاب المؤيدين، وحانت الفرصة للترابي ليعيد ترتيب اللعبة من جديد حينما أعلنت الحكومة في يونيو 1989 تعليق تطبيق القانون الإسلامي كمقدمة للمصالحة مع الجنوب. هنا صدرت الإشارة واستولى أتباع الترابي في الجيش على مقاليد الأمور بقيادة العميد عمر حسن أحمد البشير قائدًا اللواء الثامن مشاة. الذي شهدت فترة رئاسته الممتدة حتى كتابة هذه السطور تقلبات وانقلابات مع الترابي وجماعته..

■ وجاء البشير وتمطى الترابي..

في صبيحة يوم 30 يونيو 1989، أعلن التلفزيون السوداني عن استيلاء بعض من الضباط التابعين للجيش السوداني على الحكم بقيادة العميد عمر حسن أحمد البشير، لم يكن واضحًا في بادئ الأمر للمراقبين هوية الانقلاب الجديد ولا توجهات قادته، ساعد هذا الغموض في أن ينال الانقلاب تأييدًا واسعًا - داخليًّا وخارجيًّا- ومن دول كثيرة بالمنطقة لاسيما مصر، التي لها بالقطع وزن كبير في المنطقة عامة، وفي الشأن السوداني على سبيل الخصوص، ولا يخفى أن مصر كانت في حالة عداء دفين مع الصادق المهدي رئيس الوزراء وقتها. قامت الحكومة الجديدة بعدد من الاعتقالات الواسعة، واعتقلت لأيام ضمن من اعتقلت الدكتور حسن الترابي نفسه، الذي ظهر وفيما بعد أنه مهندس الانقلاب ورأسه المدبر. فلم يمضِ إلا قليل من الوقت حتى أظهرت الحكومة هويتها الإسلامية شيئًا فشيئًا، وظهرت تصريحات من قادتها تؤكد تلك الهوية وانتماءها إلى تيار الإسلام السياسي في السودان. وظهر الأمر أكثر بعد إطلاق سراح الترابي وتقلده لمناصب مهمة في الدولة كان آخرها رئيس المجلس الوطني (البرلمان).

وبعد أن أسفر النظام عن وجهه الحقيقي، لاقى معارضة كبيرة من أغلب الدول، كما كان لإعلان تطبيق الشريعة الإسلامية أثر كبير في إنشاء التجمع الوطني الديمقراطي المعارض، وفي الوقت الذي استعرت فيه الحرب في الجنوب بصورة ضارية. كما رعت الدول الكبرى التجمع الوطني خصوصا بعد انضمام الحركة الشعبية لتحرير السودان إليه، ومارست ضغوطا كثيرة لإسقاط حكومة السودان. ولكن ورغم الضغوط الدولية التي واجهتها حكومة البشير والترابي فإنها صمدت في وجه كل محاولات الإسقاط عقوبات الإنهاك العسكري والحصار الاقتصادي المفروضة عليها، بل صعدت من نبرات العداء تجاه الدول

الغربيـة، محتمية بتوجهها الديني، ودغدغة مشـاعر البسـطاء من سـواد الشـعب السـوداني المؤمـن بفطرته، والذي كان يتوق لرفع راية الإسـلام وتطبيق الشريعة الإسـلامية، والتزمت حكومة البشـير الترابي بموقفها المعادي للغرب والرافض للتدخل الأجنبي إبان غزو العراق للكويت ونشـوب حرب الخليج الثانية وتمت محاصرة السـودان ومقاطعته اقتصاديًا من قبل العديـد من الدول خصوصًا دول الخليج وأوروبا والولايات المتحدة مما أدى إلى تدهور الاقتصاد السوداني بصورة كبيرة.

ولم يطـل الأمـر طويـلًا بتحالف البشـير ومعلمه الـترابي، فقد بـدأت تتجمع نذر الشـقاق المفضي إلى الفـراق، ثم إلى التقاطع. ووقعـت الواقعة واندلع صراع الرجلـين عاصفًـا عنيفًا كما كان تحالفهما قويًا حميـمًا، وكان ذلك بعد أن تسرب إلى صحافـة الخرطوم بـأن الترابي الذي كان يشـغل منصب رئيس المجلس الوطني (البرلمان) سيستقيل من منصبه ليتولى أمانة حزب المؤتمر الوطني الحاكم «بمفهوم تحول الحزب من وضع حزب الحكومة إلى حكومة الحزب»، وفعلًا جرى انتخاب الترابي للمنصب الجديد في فبراير 1998 وسط إشارات بتصدعات هنا وهناك في الجسد الحاكم في البلاد، وإشارات لا تخطئها العين عن أزمة مكتومة بين القطبين.

وتشـاء تصاريـف القدر بعد 3 أيـام من هذه الخطـوة أن يلقى نائـب الرئيس السـوداني آنـذاك الفريق الزبير محمـد صالح مصرعه في خادث سـقوط طائرة في جنـوب البـلاد لينشـأ فراغ في المنصـب، قرر الحزب الحاكم سـده فدفع 3 أسـماء للبشـير لاختيار واحد منهم للمنصب وهم: الدكتور حسـن الترابي، وعلي عثمان محمـد طـه، والدكتـور علي الحـاج محمد، وذلك حسـب الدسـتور، وقام البشـير باختيـار علي عثـمان طه نائبًا لمنصب النائب الأول، ولكن الترابي اسـتقبل الخطوة بحسـبانها تشكل بداية إعراض ورفض له بشكل أو آخر من قبل الرئيس البشير. وبداية لرحلة انسـلاخ بعضهما عن بعض، وعليه احترس زعيم الإسـلاميين عن خطوة التخلي عن البرلمان والتفرغ للأمانة العامة للحزب؛ وبدأ يتحرك في اتجاهين لإعادة سـطوته التي بدأت تتهاوى؛ وفي المقابل لم يكتفِ البشـير بإشارته المرسلة

إلى الترابي، ولكن بدأ يشـعل الأرض من تحته داخل كوادر الحزب، وفي ديسـمبر 1998 فاجـأ عشرة من قيـادات الصف الأول المؤتمر الوطنـي في اجتماع لمجلس شـورى الحزب بمذكرة تحدثت لأول مرة عن هيمنة الترابي على الأداء في الحزب بصـورة تقدح في هيبـة الدولة وطالبت بتقليص صلاحياتـه كأمين عام للحزب، وتحويـل بعضها إلى رئيس الجمهورية ورئيس الحزب البشـير، وصار اللعب على المكشـوف، وقرر الترابي فيما بعد اسـتعادة منصبه رئيسًـا للبرلمان بصورة درامية، حيث كان قد استقال في ديسمبر نفسه وجرى قبولها، ولكن جماعة أنصاره أعادته مرة أخرى إلى الكرسي، لتتصاعد الانقسامات.

■ تكسير العظام بين البشير والترابي..

بمجرد أن تدثر الترابي بكرسي رئيس البرلمان، بدأ يحضر نفسه لمعركة تكسير عظام جديدة مع البشير عبر زيارات إلى ولايات السودان، خصصها لاستقطاب أنصار له في المعركة المقبلة التي قدر أن تكون ساحتها المؤتمر العام للحزب في أكتوبر 1999، وفعلًا في هذا المؤتمر وجه ضربة قوية للرئيس البشير واستعاد مركزه بصفة أساسية على الموقعين على مذكرة العشرة حيث جرى إبعادهم عن المكتب القيادي وهيئة الشورى وعلى رأسهم الدكتور إبراهيم أحمد عمر ما اضطر البشير إلى ترضيته لاحقًا وتعيينه في منصب مساعد رئيس الجمهورية.

ولم يتوقف الترابي الموصوف بالعناد عند ذلك الحد، لكنه كثف من خلال البرلمان حملات استدعاء لوزراء حكومة البشير وفتح من خلالها ملفات ساخنة. ثم نظم مؤتمرًا للحكم الاتحادي أصدر توصية بانتخاب الولاة بدلًا من الانتخاب عبر كليات بواسطة رئيس الجمهورية البشير، وألحق الترابي التوصية بمقترح للبرلمان بتعديلات دستورية تحمل إلى جانب المقترحات الدستورية مقترحًا آخر بضرورة فصل منصب رئيس الوزراء عن رئيس الجمهورية، وكان رئيس الوزراء المعني بالفصل هو الرئيس البشير نفسه. فاشتعلت المعركة بين الرجلين القويين وانتقلت إلى خانة المعركة العلنية. وعليه تدخل البشير بقوة وضرب ضربته القاضية، وأبطل مفعول مقترح التعديلات قبل أن يمر في البرلمان، وذلك بعد أن أصدر قرارات في 12 ديسمبر 1999 عرفت باسم قرارات الرابع من رمضان حل بموجبها البرلمان، ومن ثم أُقصي الترابي من منصبه، وجمد مواد الدستور التي تتعلق باختيار الولاة عبر كليات انتخابية مما يعني تعيينهم من قبل الرئيس البشير، وقد حاول الترابي الطعن في قرارات الرابع من رمضان ولكن المحكمة الدستورية أيدتها. وانفتحت المعركة بين الطرفين على كل الأبواب واللعب على المكشوف بين الرجلين، والنبش في الملفات «المستورة». وفي الخامس من مايو

2000 دعا الرئيس البشير إلى اجتماع كبير لأنصار حزب المؤتمر الوطني قصد أن يقام داخل دار الحزب وعبر الاجتماع الذي عرف باسم ذي دلالة إسلامية: «نفرة رمضان» وجه البشير هجومًا عنيفًا على الترابي واتهمه لأول مرة صراحة بالعمل على إسقاط نظام الإنقاذ، وكشف أن الزعيم الإسلامي يجري في هذا الخصوص اتصالات بضباط في الجيش والأمن والشرطة وتحريضهم ضد الحكومة.

واستمر عمر البشير في الطرق بمعوله على رأس الترابي، وأصدر البشير في اليوم التالي قرارًا بحل الأمانة العامة لحزب المؤتمر التي يرأسها الترابي، وقبل أن تطوق مجموعة من الأمن دار الحزب وتفرض عليه حظر الدخول. ليفقد الأخير آخر مناصبه ومعاقله الرسمية، لم يشفع له استئناف تقدم به لدى مسجل تنظيمات الأحزاب ضد القرار. استمر البشير في تصعيده ضد الترابي فدعا إلى اجتماع لمجلس شورى الحزب الحاكم في 26 يوليو 2000 انتهى باعتماد قرارات إقصاء الترابي من الأمانة وعاد وانتخب الدكتور إبراهيم عمر رئيسًا لمجلس الشورى بصفة مؤقتة. واستجاب الترابي لخطوة البشير التصعيدية بأن أعلن المفاصلة النهائية مع خصمه بتشكيل حزب موازٍ باسم «حزب المؤتمر الوطني الشعبي» فتمايزت الصفوف وارتبكت ساحة أنصار التيار الإسلامي بشدة حيال الاختيار بين الانضمام إلى البشير الحاكم أو إلى الترابي الزعيم المعارض، وسادت لأشهر وسط الإسلاميين سياسة «سيفي مع معاوية وقلبي مع علي». وفي خضم التمايز خطا الترابي في 19 فبراير 2001 خطوة سافرة في غرابتها وحدتها، إذ أعلن أن حزبه وقّع مذكرة تفاهم مع قرنق. بالطبع اعتبرها البشير بمثابة خيانة وعمل عدائي ضده بالتضامن مع «عدو البلاد الأول» قرنق الذي يدير حربًا طويلة ضد الخرطوم من جنوب السودان، وعليه بعد مضي 24 ساعة من إعلان مذكرة التفاهم عبر مؤتمر صحافي طوقت قوة منزل الترابي في ضاحية المنشية قبل أن تقتاده إلى سجن كوبر الشهير. مكث الترابي هناك زهاء العام ونقل من بعد إلى منزل حكومي في ضاحية كافوري المجاورة لكوبر وسمح لزوجته وإحدى كريماته بالإقامة معه وترتيب زيارات لبقية أعضاء الأسرة، وبعد توقيع اتفاق

الترتيبات الأمنية بين الحكومة وحركة قرنق في سبتمبر أطلق سراح الترابي. وخرج الترابي الممتلئ حقدًا على البشير ليدير صراعه من جديد مع البشير.

الترابي ولعنة التكفير:

منذ أن ظهر التمرد في دار فور أشارت الحكومة إلى أن حزب الترابي هو المؤجج لنيران القتال هناك عبر حركة العدل والمساواة المتمردة في دار فور، وهي الحركة التي يقودها الدكتور خليل إبراهيم المعروف بانتمائه السابق إلى حزب الترابي، ولكن الترابي ظل ينفي الاتهام الحكومي الموجه إلى حزبه. وأعلن أن تمرد دارفور «هو تمرد ضد سياسة المركزية التي تتبعها الحكومة، وضد التهميش الذي يعاني منه الريف السوداني بسبب تلك السياسات».

فصول الصراع في قصة الترابي والبشير ليست فصولًا عادية، بل تكتسب خصوصية لكونها تدور رحاها بين رجلين من نفس فسطاط الإسلام السياسي، يستخدمان نفس الشعارات ويستهلكان نفس البضاعة، فهي قصة تحالف تحول إلى خصومة ثم صارت عداء، ووصل الكيد بينهما مبلغًا يعد مثلًا يدرس في انشقاقات الإسلاميين، ووصل الأمر إلى أن طالب الترابي الرئيس عمر البشير بتسليم نفسه إلى المحكمة الجنائية الدولية التي كانت تستعد وقتها لإصدار مذكرة توقيف بحق الرئيس السوداني لمحاكمته بتهمة ارتكاب جرائم حرب في دارفور.

وإذا أردنا أن نكون منصفين فلا بد من إبداء الدهشة والاستغراب من موقف الترابي الذي تحولت حياته السياسية إلى عمل دؤوب مستعر هدفه الانتقام من عمر البشير، فقصة هذا الثنائي التي وصلت إلى ذروتها في أواخر القرن العشرين عندما كانا يحكمان السودان في متلازمة جعلت البشير يمشي سنة وراء أخرى في ظل الترابي رجل البلاد القوي.

ومنذ متى يدافع الترابي عن «العدالة الدولية»، ومنذ متى يتضامن مع أمريكا وبريطانيا وفرنسا ضد الحكومة المركزية في الخرطوم؟ ومهما حاول الترابي أن يجعل لوجهة نظره وجاهة قدسية وأن ثباته على مبادئه هو الذي دفعه إلى مطالبة

البشير بالاستسلام للمحكمة، إذ يبدو أن الترابي نسي أو تناسى أنه كان في وقت من الأوقات السياسي السوداني الأشد تطرفا، والصديق الصدوق لأسامة بن لادن حين كان يقيم في الأراضي السودانية. وباليقين الترابي شخصن القضية وخلط بين دوافع الثأر من البشير ومستقبل السودان، ونستطيع القول بكثير من الاطمئنان إن الترابي المعروف بقدراته الخطابية والكلامية ما كان ليصبح من المدافعين عن المحكمة الجنائية ولا من المطالبين بمثول رئيس السودان أمامها لو أن مذكرة التوقيف تناولت أشخاصا آخرين غير عمر البشير، الذي نجح في تحجيم الترابي وجعله زبونًا دائما على السجون.

والفاجع الذي يهيل التراب على تاريخ الترابي عندما تجد الشيخ يدعو الدول الكبرى إلى غزو السودان بهدف اعتقال البشير، لأول وهلة تحسب الترابي متحدثًا رسميًا أميركيًا أوبريطانيًا. باليقين شخصية الرجل متقلبة لا تكاد تستقر أو تهدأ، اجتهد في السنوات الأخيرة أن يقدم نفسه زعيم للإسلاميين على مستوى العالم كله للخروج من إحباطاته السياسية على الساحة السودانية.

وعندما اندلعت ثورة 30 يونيو 2013 في مصر، تقمص الترابي هذا الدور وندد بما سماه الإطاحة بالرئيس المصري محمد مرسي ووصفها بأنها: (انقلاب على الدستور والشرعية) في حين أصدرت حكومة الخرطوم ردا اتسم بالحذر. وردد الترابي: أن مرسي وقع ضحية لائتلاف بين الجيش والمسيحيين والليبراليين الذين يؤمنون بالديمقراطية لأنفسهم ولكن ليس للآخرين.

وليس هذا المنهج بمستغرب من الترابي وقد تعودناه ساحر الغرائب والأعاجيب، فهاهو الرجل الذي كان الأب الروحي للانقلاب الذي قاده البشير في السودان في 1989، يأتي اليوم ليصف ثورة الشعب المصري بأنها انقلاب، ولله في خلقه شئون.. وسيحمل لنا قابل الأيام عددًا من انقلابات الترابي الذي سيظل له السبق بين الإسلاميين المعاصرين في قدرته الفريدة على لعب جميع الأدوار ممتطيًا صهوة الدين رافعًا شعار الجهاد. وكان الرجل الداهية صاحب السبق في

تحويـل الحرب في الجنوب من حرب أهلية سياسـية إلى حـرب جهادية دينية، وفي تلـك الحرب صار المحاربون الجنوبيون كـفارًا يخضعون لضرب الرقاب، وتحول المحاربون الشـماليون أبرارًا مجاهدين. إنها لعبة احتـكار الدين والحقيقة التي برع فيها الترابي، الذي تمكن بعصاته السحرية من أن يلوث خصومه ويرميهم بالكفر وصبـح عندها هـدر دمهم حـلالًا لا لبس فيه.. مـارس الرجل ومـازال يمارس غوايته مع الجميع، الحلفاء كالبشير قبل الأعداء كقرنق.

الإخوان المسلمون وسنة العاصفة

منذ نشأة الإخوان المسلمين في مصر عام 1928 ولمدة عقدين من الزمان لم تواجه بأزمات حقيقية مما يعصف بقواعد البنيان، اجتهد حسن البنا في اتخاذ كل التدابير لتحقيق التمكين والتمتين لها، حتى صارت إحدى القوى الفاعلة في الشارع المصرى الذي يحسب لها ألف حساب، دخلت في سبيل ذلك في تحالفات مع السرايا، وتفاهمات مع الأمن والقلم السياسي، واستمر هذا الوضع الذي جنت به الجماعة كثيرا من الأعضاء والمريدين، صحيح تعرضت في خلال العقدين لبعض التضييق من الحكومات الوفدية أو السعدية، لكنه من النوع الذي لا يعدو أن يكون من قبيل التحرش السياسي بين غرماء الساحة السياسية، ومن دون أن يؤدى ذلك الى تدمير لمقدراتها ولا لقدرتها على التحرك على أرض الواقع.

وما شيد البنا بنيانه في زهاء عشرين عامًا تعرض لزلزال مروع في عام واحد هو عام 1948، وفيه جاءت حرب فلسطين واكتسبت كتائب الإخوان المسلمين المقاتلين هناك تحت قيادة البطل القائم مقام أحمد عبد العزيز شهرة واسعة، وفي نفس الوقت بدأت نذر الشر قبل الجماعة تتجمع في القاهرة، فقد حولت حرب فلسطين ومن قبله الاستعداد لها الجماعة من مجرد هيئة دعوية إلى منظمة ذات طبيعة شبه عسكرية، فأعلن البوليس في يناير 948 م أنه اكتشف بمحض الصدفة

مجموعة من الشبان تتدرب سرًّا على السلاح في منطقة جبل المقطم، وأنه بمداهمة المجموعة - التي قاومت لبعض الوقت - ضبط البوليس 165 قنبلة ومجموعات من الأسلحة، وقال زعيم المجموعة سيد فايز (وكان اسمه جديدًا تمامًا على البوليس السياسي رغم أنه كان أحد القادة الأساسيين للجهاز السري): إن السلاح يجرى تجميعه من أجل فلسطين وإن الشباب يتدرب من أجل فلسطين..

و في 22 مارس من العام نفسه 1948 قتل اثنان من الإخوان، المستشار أحمد بك الخازندار، وذلك بسبب إصداره حكمًا قاسيًا على أحد عضوين من الجماعة سبق أن اتهم بالهجوم بالقنابل على مجموعة من الجنود الإنجليز في أحد الملاهي الليلية، ويكتشف البوليس الصلة بين الشابين ومجموعة المقطم وجهاز سرى مسلح داخل جمعية الإخوان المسلمين، ويُقبض لوقت قصير على الشيخ حسن البنا نفسه، ولكنه لا يلبث أن يُفرج عنه لعدم توافر الأدلة.

وفي 20 يونيو 1948، تشتعل النيران في بعض المنازل الكائنة في حارة اليهود، وفي 19 يوليو يتم تفجير محلي شيكوريل وأركو وهما مملوكان لتجار من اليهود، ويكون الأسبوع الأخير من يوليو والأول من أغسطس هما أسبوعي الرعب بالقاهرة حيث تتوالى الانفجارات في ممتلكات اليهود، وتهتز المرة تلو الأخرى شوارع قلب العاصمة بتفجيرات عنيفة راح ضحيتها الكثيرون، وخلال أسبوعين دمرت محلات بنزايون وجاتينيو وشركة الدلتا التجارية ومحطة ماركونى للتلغراف اللاسلكى. وفي 22 سبتمبر دمرت عدة منازل في حارة اليهود ثم وقع انفجار عنيف في مبنى شركة الإعلانات الشرقية، وتتوالى الأحداث سريعًا، وفي 15 نوفمبر من العام نفسه تضبط سيارة جيب وضعت يد البوليس على اثنين وثلاثين من أهم كوادر الجهاز السرى، وعلى وثائق وأرشيف الجهاز بأكمله بما فيها خططه وتشكيلاته وأسماء الكثيرين من قادته وأعضائه، وكان حسن البنا قد أمضى معظم شهر أكتوبر وبضعة أيام من نوفمبر مؤديًا فريضة الحج ليبتعد قليلًا عن احتمالات القبض عليه، فما إن عاد البنا حتى تعرض

للقبض عليه لوجود دليل ضده في سيارة الجيب المضبوطة، ولمسئوليته المباشرة عن حادث نسف شركة الإعلانات قبل مغادرته مصر.

أفرج عن حسن البنا سريعًا لعدم وجود دليل قطعي قبله في قضية تفجير مبنى شركة الإعلانات الشرقية، لكن الرجل بحسه الدقيق أصبح على يقين أنه قد دخل في مواجهة تكسير العظام وتقليم الأظافر مع القصر والحكومة، وأنها قد تنتهي بإقصائه هو جماعته من المشهد السياسي، بل وهدم ما شاد بنيانه في خلال عشرين عاما من الجهد والتعب، كما كان الرجل يواجه وضعًا حرجًا مع مريديه المشحونين بأقصى مشاعر الكراهية والتحريض ضد الحكومة بسبب ما آلت إليه قضية فلسطين، حاول الرجل بذكائه المتقد أن يتخذ موقفًا وسطًا يعبر به الأزمة التي تعصف بسفينة الجماعة وتكاد تضربها في مقتل، حاول البنا أن يلعب بآخر أوراقه المتمثلة في نفوذه وسط طلاب الجامعة، ليخفف قبضة الحكومة عن عنق الجماعة وليطرح أوراقًا جديدة للتفاوض على طاولة المفاوضات، خرج البوليس كالعادة ليردعهم، ولكن الجديد أن معركة مسلحة اندلعت بين الطرفين أمام فناء كلية طب القصر العيني أحد مراكز القوة بالنسبة لطلاب الإخوان، واستخدم البوليس الرصاص، واستخدم الإخوان المتفجرات بدائية الصنع، والتهب المشهد واشتعل الحريق بصورة لم تشهدها الجامعة من قبل، وتكاملت أركان الصورة السوداء عندما ألقيت قنبلة على حكمدار العاصمة اللواء سليم زكي الذي كان يقود المعركة من سيارته فأصابته إصابة مباشرة، وقضى الرجل إلى ربه في الحال، وسرعان ما خرج بيان الحكومة المصرية ليدق طبول الحرب على الإخوان ويتهمهم صراحة بإثارة الفوضى وتكدير السلم العام ومن قبله قتل الحكمدار، وعلى أثر ذلك وبيد حازمة صدر قرار من الحاكم العسكري (كانت الأحكام العرفية مازالت معلنة بسبب حرب فلسطين) بإيقاف صحيفة الجماعة.

وهنا أدرك البنا أن الآزفة قد أزفت، وحاول كالغريق أن ينقذ الجماعة من مصير راهن الجميع أنه صار محتومًا، كان وضع البنا في تلك اللحظات شديد الصعوبة بالغ الحرج كأن السماء قد أطبقت عليه، حيث تقطعت خطوط

الاتصـال بينه وبين السرايـا والحكومة في نفس الوقت الذي تفلتت فيه سيطرته علـى كوادر الجماعة الغاضبة في الشـارع، ورغم ذلك لم يـألُ الرجل جهدًا فاتصل بكل أصدقائه ووقف على أبواب خصومه، ولعب بكل أوراقه، فحاول الاتصال بالملـك، وبإبراهيـم عبد الهـادي رئيس الديـوان الملكي، وبعبـد الرحمن بك عمار وكيـل الداخلية وصديقه الشـخصي والصديـق المقرب للجماعـة، لكن الحكومة ومـن قبلهـا القصر كانت قد أجمعت أمرها فبدأوا يتلاعبون بالبـنا؛ ففي السـاعة العاشرة من مسـاء يوم 8 ديسـمبر اتصل به عبد الرحمن عمار وأكد له أن شـيئًا ما سيحدث لتحسين الموقف وإنقاذ الجماعة، واطمأن الشيخ بعض الشيء، وقبع هو ومجموعة مـن أنصاره في المركز العام ينتظرون بأنفـاس متلاحقة وآمال متضاربة خطة الإنقاذ وخارطة تعويم الإخوان.

■ حلّ الجماعة..

دقت ساعة الحسم وحسن البنا ورفاقه بالمركز العام للإخوان المسلمين يتحلقون حول الراديو بأنفاس لاهثة وقلوب مضطربة، لا يدرون ما يفعل بهم ولا يستطيعون أن أن يتنبأوا بنية السرايا والحكومة قبلهم، فما بين تطمينات ترفع سقف الآمال، وتوقعات تعصف بكل الأحلام، لكن حقيقة الأمر الذي دُبر وتم له الإحكام أن دولة النقراشي باشا رئيس مجلس الوزراء المشهور بصرامته قد أضاء الضوء الأخضر للإجهاز على الجماعة. ولم يطل الانتظار وجاء صوت الراديو يصدح معلنًا عليهم قرار مجلس الوزراء بحلّ جماعة الإخوان، والأدهى والأمر أن قرار الحل تم بناء على مذكرة أعدها صديق الجماعة المقرب عبد الرحمن بك عمار نفسه؛ هنا أرتج على الحضور واضطرب البنا، واستيقن الجميع أن الخطب الجليل قد حدث، وعندما حاول البعض الخروج من مقر المركز العام وجدوه محاصرًا بأرتال من البوليس، الذي اقتحم المقر سريعًا ليلقي القبض على كل من فيه باستثناء حسن البنا، والذي تُرك طليقًا بحجة أنه لم يصدر أمر باعتقاله، والحقيقة أنه تُرك حرًا بنية إحراقه وتقزيمه، وفهم الرجل الرسالة، فكانت حريته هذه هي عين عذابه، فقد استيقن الرجل أنه لم يترك خارج الأسوار إلا لغرض أريد به.

و قد اشتملت مذكرة عبد الرحمن عمار المرفوعة إلى مجلس الوزراء بشأن طلب حل جماعة الإخوان المسلمين على قرار اتهام طويل سُطر فيه كل أعمال العنف التي اتهمت بها الجماعة، بل وحتى تلك التي قارفتها بإيعاز من السلطات ولخدمة مصالحها! وبناء على هذه المذكرة أصدر الحاكم العسكري العام محمود فهمي النقراشي باشا قرارًا عسكريًّا شديد الصرامة من تسع مواد تنص مادته الأولى على: «حل الجمعية المعروفة باسم جماعة الإخوان المسلمين بشعبها أينما وجدت، وغلق الأمكنة المخصصة لنشاطها، وضبط جميع الأوراق والوثائق والسجلات

والمطبوعـات والمبالـغ والأمـوال وكل الأشـياء المملوكة للجمعيـة، والحظر على أعضائهـا والمنتمين إليها بأية صفة كانت مواصلة نشـاط الجمعية، وبوجه خاص عقـد اجتماعات لها أو لإحدى شـعبها أو تنظيم مثل هـذه الاجتماعات أو الدعوة إليهـا أو جمع الإعانات، أو الاشـتراكات أو الـشروع في شيء من ذلك، ويعد من الاجتماعـات المحظورة في تطبيق هذا الحكم اجتماع خمسـة فأكثر من الأشـخاص الذيـن كانـوا أعضـاء بالجمعية المذكـورة، كما يحظر عـلى كل شـخص طبيعي أو معنوي السـماح باستعمال أي مكان تابع له لعقد مثل هذه الاجتماعات، أو تقديم أي مساعدة أدبية أو مادية أخرى».

وتنص المادة الثالثة على: «كل شخص كان عضوًا في الجمعية المنحلة أو منتميًا إليهـا أوكان مؤتمنًـا على أوراق أو مسـتندات أو دفاتر أو سـجلات أو أدوات أو أشـياء أن يسـلمها إلى مركز البوليس المقيم في دائرته خلال خمسـة أيام من تاريخ نشر هذا الأمر».

أمـا المادة الرابعة فتنص على: «تعيين مندوب خاص مهمته تسـلم جميع أموال الجمعيـة المنحلة وتصفيـة ما يرى تصفيتـه، ويخصص الناتج للأعـمال الخيرية أو الاجتماعية التي يحددها وزير الشئون».

كان قـرار الحل واسـعًا محكمًا بصورة قاسـية، لا يكاد يغـادر صغيرة ولا كبيرة في شـأن الجماعة إلا أحصاها، ودارت ماكينة الحكومة والبوليس تفتت في جسـد الجماعـة، وافتتحت لهم المعتقـلات، وحاول البنا جهد طاقتـه كالغريق أن يوقف طوفان المحنة، لكنه كان عاجزًا بالفعل، فقد سبق السيف العذل، فالحكومة التي هادنها وهادنته كانت تضرب بعنف وقوة مصممة على تصفية الإخوان؛ ورفض النقراشي كل محاولات البنا للالتقاء به.

وجـاءت آخر أيـام عام المحنة المزلزلة للإخوان بكـبرى الوقائع التي صعدت المأساة إلى أعلى قممها.

■ قتلُ النقراشي..

وفي 28 ديسمبر 1948، كان الإعصار الذي ما انفك يضربُ الإخوان يلملم آخر ساعاته ويستعد للرحيل، ففي صبيحة هذا اليوم شديد الغيوم قام طالب في الثالثة والعشرين من عمره هو عبد المجيد أحمد حسن بإطلاق رصاصتين محكمتي التصويب على رئيس الوزراء محمود فهمي النقراشي باشا، وقد قضى الرجل إلى ربه من فوره، وكان للخبر وقع القصف في الشارع المصري، وشيع أنصار الحكومة جثمان رئيس وزرائهم هاتفين في صراحة «الموت لحسن البنا».

وهكذا صدرت الإدانة الشعبية بعد الواقعة بساعات قبل حتى البيان الرسمي أو نعي السرايا لفقيد مصر الكبير، وسريعًا تبوأ منصب محمود النقراشي رفيقه إبراهيم باشا عبد الهادي ليندفع الرجل الذي كان يومًا صديقًا لحسن البنا ليدير ماكينة الانتقام من الجماعة إلى أقصى مداها، وخلال أسبوع من توليه تتسع دائرة الاعتقالات في صفوف الإخوان فتشمل 4000 معتقل، في سابقة لم تعرف لها المحروسة مثيلًا في العصر الحديث.

حاول البنا رغم سواد المشهد أن يخفف من خسائر جماعته فكتب مستنكرًا بنفسه هذه الأعمال الإرهابية، واتهم القائمين بها بأنهم «ليسوا إخوانًا وليسوا مسلمين»! وهنا كانت الزلزلة الشديدة للمتهمين جميعًا، فقد كان صمودهم يستمد كل صلابته من «البيعة» التي أقسموا بها بين يدي الشيخ أو من يمثله في حجرة مظلمة، فإذا تخلى زعيمهم القائد والنبراس عنهم وعن فكرة «الجهاد» كما لقنها لهم، فماذا يبقى؟! فقد صمد عبد المجيد حسن قاتل النقراشي ثلاثة أسابيع كاملة في مواجهة تعذيب وحشي ضده، لكنه ما لبث أن انهار تمامًا عندما قرأ بيان الشيخ البنا الذي نشرته الصحف، ويوقع البنا بيانًا بعنوان «بيان للناس»

يستنكر فيه أعمال رجاله ورفاق طريقه، ويدمغها بالإرهاب والخروج على تعاليم الإسلام.

وتتوالى الأحداث لتكتمل فصول المأساة، فبعد يومين من صدور «بيان للناس» قبض على أحد قادة الجهاز السري وهو يحاول نسف محكمة استئناف مصر!، فيضطر الشيخ إلى كتابة بيان جديد على هيئة مقال يتبرأ فيه من القائمين بهذا الفعل عنوانه «ليسوا إخوانًا وليسوا مسلمين» !، يقول فيه: «وقع هذا الحادث الجديد، حادث محاولة نسف مكتب سعادة النائب العام، وذكرت الجرائد أن مرتكبه كان من الإخوان المسلمين فشعرت بأن من الواجب أن أعلن أن مرتكب هذا الجرم الفظيع وأمثاله من الجرائم لا يمكن أن يكون من الإخوان ولا من المسلمين»، وليعلم أولئك الصغار من العابثين أن خطابات التهديد التي يبعثون بها إلى كبار الرجال وغيرهم لن تزيد أحدًا منهم إلا شعورًا بواجبه وحرصًا تامًا على أدائه، فليقلعوا عن هذه السفاسف ولينصرفوا إلى خدمة بلادهم كل في حدود عمله، إن كانوا يستطيعون عمل شيء نافع مفيد، وإني لأعلن أنني منذ اليوم سأعتبر أي حادث من هذه الحوادث يقع من أي فرد سبق له اتصال بجماعة الإخوان موجهًا إلى شخصي ولا يسعني إزاءه إلا أن أقدم نفسي للقصاص وأطلب إلى جهات الاختصاص تجريدي من جنسيتي المصرية التي لا يستحقها إلا الشرفاء الأبرياء، فليتدبر ذلك من يسمعون ويطيعون، وسيكشف التحقيق الأصيل والدخيل، ولله عاقبة الأمور».

فماذا بقي من الشيخ الذي أيقن منذ حل جماعته وتركه خارج السجن أنه لم يترك إلا ليتم حرقه على نار هادئة؟ وعول الرجل الذي تعود الصراعات على قدرته في تعويم السفينة وتجاوز الإخفاق، إلا أن حادثة قتل النقراشي باشا، ثم محاولة نسف المحكمة أضاعت جهد الرجل ومن قبله ما شاده هباء. وفهم الرجل أن استراتيجية إحراقه تحولت من النار الهادئة إلى إدخاله نفسه إلى أتون المحرقة. وتيقن الرجل أنه يسير في طريقه للنهاية التي دبرت له، وبالفعل اقتربت الساعة المحتومة.

■ قتلُ حسن البنا..

دقت ساعة النهاية في حياة البنا، واستيقن الرجل أنه قد أحيط به وأنه في طريقه لمصيره المحتوم، غلقت كل الأبواب أمامه وضاقت عليه الأرض بما رحبت؛ بدأ رجاله في السجون يتلمظون ضده ويبعثون له برسائل يهددونه، ومن بقي خارج السجون متناثرون تقطعت بهم الأسباب وضاعت فرص الالتقاء بعد تضييق عنيف من حكومة إبراهيم عبد الهادي الذي مارس التنكيل بالبنا بأعصاب هادئة. فقد استطاع رئيس الوزراء الداهية أن يقطع كثيرًا من علائق الرحم بين البنا وكوادره، واستدرجه ليتهم أخلص خلصائه الذين أقسموا له على المصحف والمسدس يمين الطاعة التامة في المنشط والمكره، يتهم من كان يسميهم بالأمس القريب «رهبان الليل وفرسان النهار» بأنهم «ليسوا إخوانًا وليسوا مسلمين»، بل ويضطر إلى كيل المديح للحكومة التي تنكل به وتوصد أبواب جماعته بل وتسوم رجاله سوء العذاب، ويقول إنها حريصة على أمن الشعب وطمأنينته «في ظل جلالة الملك المعظم»، بل ويحرض الشعب على التعاون مع الحكومة «للقضاء على هذه الظاهرة الخطيرة»، «رهبان الليل وفرسان النهار» أصبحوا في آخر بيان للشيخ ظاهرة خطيرة، أضحوا «أولئك العابثين» وجهادهم أصبح «سفاسف»، ولا يبقى للرجل ما يقوله، سوى أنه سيطلب تجريدهم من جنسيتهم المصرية «التي لا يستحقها إلا الشرفاء الأبرياء»!!. وهنا أجمعت السرايا أمرها وانتهت معها الحكومة إلى القرار المرتقب بأن مسلسل حرق البنا قد انتهت فصوله ولم يبق إلا مشهد الختام.

وجاء المشهد سريعًا قاصفًا في مساء السبت الثاني عشر من فبراير عام 1949، وأمام مقر جمعية الإخوان المسلمين من شارع الملكة نازلي (رمسيس حاليًا) قُتل حسن البنا، أطلق عليه مجهولان ستة أعيرة نارية قبل أن يفرا في سيارة سوداء، وبعد حادث الاغتيال لم يكن هناك سوى رقم السيارة 9979 التي أطلقت النار

على الرجل الذي كان يسير في الشارع المظلم وحيدًا كأنه كان يعرف أنها الليلة وقد سئم الانتظار، وسرعان ما ابتلع ليل القاهرة السيارة بجناتها بعيدًا عن مسرح الجريمة، لتكشف التحقيقات التي أعيد فتحها بعد ثورة يوليو أنها كانت مخصصة لانتقالات الأميرالاي محمد عبد المجيد مدير المباحث الجنائية والذي صدر ضده الحكم بالسجن خمسة عشر عامًا في فترة شهر العسل بين ثوار يوليو والإخوان. المهم أن أصابع الاتهام وقت الحادث كانت تشير في اتجاهات متباينة تحاول أن تعرف.. من قتل حسن البنا؟ وبعد أسابيع قليلة حُفِظ التحقيق وقُيدت القضية ضد مجهول، لكن رقم السيارة السوداء ظل يتنقل بين الناس ومعه الكثير من علامات الاستفهام بشأن واحدة من أكثر الجرائم السياسية غموضًا في العالم العربي، جريمة اغتيال مؤسس جماعة الإخوان المسلمين حسن البنا.

66 يومًا كانت تفصل بين ليلة اعتقال أعضاء الجماعة وليلة اغتيال حسن البنا، تلك كانت أيامه الأخيرة عاشها ينتظر أن يتم التخلص منه بين لحظة وأخرى، كل الشواهد كانت تؤكد له ذلك، حسن البنا كان يدرك تمامًا أنه رجل مقتول، تم اعتقال كل مَن حوله من جماعة الإخوان المسلمين وهو نفسه شخصيًّا طلب أن يُعتقل وألح عليهم في اعتقاله ورفضوا.

حتى إن أدبيات الإخوان تحكي أن البنا تنبأ باغتياله قبل أيام، حينها قال للشيخ الباقوري: إني سأختفي، سأله: ماذا تقصد فإني لا أفهم؟ أجاب: قد أغيب غيبة طويلة، ومن يدري فلعلنا لا نجتمع بعد ذلك. وبالفعل قتل الرجل الأب لكل تيارات الإسلام السياسي في القرن العشرين، قتل ومضى بأسرار مبهمة، ونيات متضاربة، وقبل ذلك كله بسيرة يصوره فيها البعض أنه من التابعين، بل ودرة المصلحين، ويراه البعض فيها شيطانًا رجيمًا، ويتعقل البعض فيه، ويقول: إن للرجل محامده وله نقائصه.. ويقيني أنه عند الله تجتمع الخصوم.

انتقام المفكر ومحنة الإخوان الثانية

في 29 أغسطس عام 1966، توقفت سيارة سوداء أمام سجن استئناف القاهرة وهبط منها رجل طويل القامة وتوجه إلى الداخل ليفتح باب زنزانة صغيرة ويخرج منها رجل ستيني أصلع له شارب أصابه بعض الشيب يُدعى سيد قطب، الذي سأل الرجل الذي فتح باب الزنزانة سؤالًا من كلمة واحدة: الآن؟ فردّ الرجل: نعم. ولم يصدق قطب ما انتهى به الحال من منظر لثورة يوليو ومرتقب لتعيينه في مقعد وزير التربية والتعليم، إلى رجل يقتاد إلى حبل المشنقة لتنفيذ حكم الإعدام الصادر قبله من أيام قليلة، فرفع يديه إلى السماء ليصرخ: اللهم اجعل دمي لعنة في عنق عبد الناصر.

والحقيقة أن دم قطب لم يتصبح لعنة على نظام الزعيم ناصر، بل تطايرت لعنته فأصابت بشررها بلادًا وعقولًا وتجاوزت حقبًا وحدودًا؛ ففي سنوات السجن - المحنة الثانية في تاريخ الإخوان بعد محنة حل الجماعة ثم اغتيال البنا في أواخر الأربعينيات - عمل قطب على إحداث تطوير جذري في الاستراتيجيات التي كان قد تبناها البنا خلال العقود السابقة. كذلك فهو أحدث قطعا هاما مع فكره السابق هو نفسه، والذي ركز بالأساس على قضية العدالة الاجتماعية والوجه

الاقتصادي التقدمي للإسلام، الذي يمثل في رأيه النظام القادر على بناء «المجتمع المتوازن» في مواجهة كل من الشيوعية والرأسمالية.

وبالقطع، فإن القضية التي شغلت بال قطب أكثر من غيرها هي الفشل الذريع للمنهجية التدرجية الإصلاحية طويلة النفس التي اتبعها حسن البنا، والتي قامت على أساس التسلل إلى نسيج المجتمع من أسفل بالتربية الاجتماعية والثقافية إلى حين تأسيس المجتمع وصولًا إلى الدولة والحكومة الإسلامية. لم يكن ما وصل إليه قطب، كما صاغه في كتابه الأشهر «معالم في الطريق»، أقل من انقلاب جذري عميق في المفاهيم؛ انقلاب قضى على حرية الإنسان وجعله يناصب مجتمعه العداء، وأعاد السياسة (أي الصراع على سلطة الدولة) إلى جوهر الصورة بشكل غير مسبوق في تاريخ الفكر الإسلامي المصري، وإن كانت له سوابق في الفكر الإسلامي الحديث عند الباكستاني أبو الأعلى المودودي كما عرضنا له من قبل.

وقد تم على يد قطب الدمج الكامل، إلى حد التطابق، بين الفكرة الإسلامية والسياسة (أي الحكم). فلا الفرد المسلم ولا المجتمع المسلم هما أهم أركان الفكرة الإسلامية. ذلك أن مناط تلك الفكرة وموضع تحققها في المجتمع البشري هو حاكمية الله وعبودية الإنسان. وهو ما يعني تحكيم شريعة الله في المجتمع، بحيث لا تخرج الأوامر والنواهي والتكاليف والتوجيهات عن شريعة الله كما نُزّلت في القرآن وموُرست في السنة النبوية. كتب قطب: «ينبغي أن يكون مفهومًا لأصحاب الدعوة الإسلامية أنهم حين يدعون الناس لإعادة إنشاء هذا الدين، يجب أن يدعوهم أولا إلى اعتناق العقيدة - حتى لو كانوا يدعون أنفسهم مسلمين، وتشهد لهم شهادات الميلاد بأنهم مسلمون - يجب أن يعلموهم أن الإسلام هو (أولًا) إقرار عقيدة (لا إله إلا الله) بمدلولها الحقيقي، وهو ردّ الحاكمية لله في أمرهم كله، وطرد المعتدين على سلطان الله بادعاء هذا الحق لأنفسهم، إقرارها في ضمائرهم وشعائرهم، وإقرارها في أوضاعهم وواقعهم». وعلى هذا

الأساس، ولأن المجتمع المسلم هو الذي يُحكم بالشريعة وليس الذي يتكون من أفراد مسلمين، وصل قطب إلى نتيجة خطيرة هي أن المجتمع المعاصر جاهلي: «نحن اليوم في جاهلية كالجاهلية التي عاصرها الإسلام أو أظلم. كل ما حولنا جاهلية. تصورات الناس وعقائدهم، عاداتهم وتقاليدهم، موارد ثقافتهم، فنونهم وآدابهم، شرائعهم وقوانينهم. حتى الكثير مما نحسبه ثقافة إسلامية، ومراجع إسلامية، وفلسفة إسلامية، وتفكيرًا إسلاميًّا، هو كذلك من صنع هذه الجاهلية».

ولا ريب أن مصطلح الحاكمية التي جرت على البلاد الإسلامية ويلات لا حصر لها يرجع للمودودي فضل ابتكاره، وإلى سيد قطب فضل الامتياز في تعريب أفكار المودودي في هذا الصدد وتبنيها ونشرها. وكما أشرنا سابقًا.

■■■

ولقد سطر سيد قطب هذه الآراء في كتابه الشهير معالم في الطريق، وهذا الكتاب وبحق كتاب قتل صاحبه كما تقول زينب الغزالي عندما سئلت عن سبب إعدام سيد قطب، وقريب منه تعبير الزعيم جمال عبد الناصر حين قرأ الكتاب فقال: (كتاب لا يمكن إلا أن يكون وراءه تنظيم سري).

المهم أن طروحات المودودي الباكستاني التي تبناها وبلورها قطب كانت صادمة وأثارت ردود أفعال إسلامية عنيفة ضدهما، وشكل تشبع سيد قطب بأفكار المودودي نقطة تحول قاسية عن نهج البنا في تفكير عدد كبير من مريديه من أعضاء جماعة الإخوان المسلمين.

وكان أهم ما وصل إليه قطب في معالمه أن المجتمع المعاصر مجتمع جاهلي، فيقول: «نحن اليوم في جاهلية كالجاهلية التي عاصرها الإسلام أو أظلم». واشتط الرجل في رسم استراتيجية محاربة جاهلية القرن العشرين التي يراها، فنجدها تبدأ وتنتهي عند قطب من «العصبة المسلمة» أو «العصبة المؤمنة»،

وهي الجماعة من المؤمنين المتبنين بشكل كامل لفكرة ومنهاج حاكمية الله، وهم بالضرورة أقلية في المجتمع الجاهلي؛ إذ لا بد أن تعيش تلك العصبة المؤمنة حالة من العزلة الشعورية تنفصل من خلالها نهائيا عن بيئتها الجاهلية وتتصل بشكل كامل ببيئتها الإسلامية. ثم يتوجب على تلك العصبة المؤمنة عند نقطة معينة من التمكين أن تمارس الجهاد لتحقيق حاكمية الله على الأرض. وهو ما يعني عمليًّا الاستيلاء على سلطة الدولة كنقطة بداية لبناء المجتمع الإسلامي الحقيقي. وقد لقى هذا الفكر المتشدد هوى في نفوس عدد من شباب وقواعد الإخوان المسلمين القابعة من سنوات في السجون. ويرجع هذا إلى أسباب أهمها ما أثبتته التجربة من فشل في منهج التدرج، حيث ظهر للإخوان أن انتشار الدعوة الإسلامية من أسفل وتسربها إلى قلوب الأفراد في المجتمع من دون السعي إلى الاستيلاء على السلطة الدولة يعرّض الحركة الإسلامية المحرومة من مصادر القوة، إلى الإقصاء والتنكيل والتصفية.

ولابد من أن نشير هنا إلى أن الأفكار المتطرفة من هذا النوع أو ذاك لم تنبت في تربة الإخوان بين عشية وضحاها، بل لها جذور قديمة في تاريخ الإخوان. ذلك أن غموض الرؤية السياسية للبنا واضطرابها قد جعل من الجماعة بيتًا لتيارات متلاطمة بين يمين ووسط ويسار.

فعلى خلفية غموض الرؤية ظهرت في الجماعة منذ سنواتها الأولى تيارات راديكالية اتهم بعضها البنا نفسه بالتفريط والميوعة في المواقف، وسعى بعضها الآخر إلى استخدام العنف كوسيلة أساسية لتحقيق الغايات. كان أول هذه التيارات ذلك الذي قاده في منتصف الثلاثينيات الشاب أحمد رفعت الذي عارض سلطة المرشد الأول وانتقد بعنف مهادنة الإخوان للسلطة ومواقفها المائعة من القضية الفلسطينية. ثم في أواخر الأربعينيات، ظهر أن «التنظيم الخاص» أو ما يُطلق عليه «الجهاز السري»، الذي أنشأه البنا بنفسه ليمارس بعض العمليات الجهادية، قد خرج عن السيطرة ويبدأ يتوسع في عملياته العنيفة خارج أوامر البنا. المهم أن فكر قطب وجد فيه عدد من شباب الإخوان ضالتهم المنشودة، حيث

مكنهـم مـن إفراغ مشـاعرهـم الغاضبة من الحكومـة الجائـرة في نظرهـم في قالب وإطـار فقهي إيماني محكـم، وحررهم من قيود النظرة العمليـة النفعية التي وضع أسسها حسن البنا بمنظوره التدرجي. فظهرت الموجة الثانية للإخوان، واشتهروا بـ «القطبيون».

وقد كانت مأسـاة سـيد قطب الكبرى ومن سـار على درب فـكره، تتمثل في خطأ اسـتعارة رؤيـة أبو الأعلى المودودي مؤسـس الجماعة الإسـلامية بالهند عن المفاصلـة الكاملـة بين مجتمع يوصـف بالإيمان وآخـر يـُنعت بالكفـر ؛ فما انتهى إليـه المودودي رغم حدته وتطرفه كان لا بد من وضعه في قالبه التاريخي ليكتمل صحيح فهمه، فالرجل كان يعاني من كون المسلمين أقلية مهمشة في الهند محرومة من ابسط حقوق المواطنة، وتتعرض هويتهم الثقافية والدينية للتدمير والملاحقة. وكذا خطيئة تأثر الكثيرين ومنهم قطب نفسـه بأفكار ابن تيمية (مع عدم مراعاة أيضـا الاختـلاف في الواقـع التاريخـي) الـذي نادى بكفـر الحاكم المغـولي لدولة الخلافة الإسـلامية لقناعة ابن تيمية بكذب ادعاء المغول للإسـلام وأنهم يريدون أن يتسلطوا على بلاد المسلمين بهذا الادعاء الكاذب من وجهة نظره.

لكـن الوضع في مصر والبلاد الإسـلامية مختلف تمامًـا، ولا يمكن تطبيق هذه الأفـكار عـلى إطلاقها بالتأكيد فإن فكرة «المفاصلـة» لا مكان لها في بلاد الأغلب الأعم فيها مسـلمون، ولا يقبل فيها سوى قبول التنوع والتعدد في إطار الإسلام الشامل أو المواطنة التي تعطي الجميع حقوقا متساوية، الذي لا يميز بين مكوناته على أسـاس الديـن أو العرق أو الطبقـة الاجتماعية أو اللـون والجنس فيما يعرف بالدولة الوطنية الحديثة.

ومن زنزانته الضيقة في ليمان طره أحيانًا ومن سرير المرض بمستشفى السجن أحيانًـا أخـرى، صاغ سـيد قطب نظريتـه القائمة عـلى المفاصلة الحـادة، وانقلب بشـدة على الفكر الاشتراكي الذي كان أحد رواده، بل اعتـبره ثقافة تزاحم ثقافة الإسلام، ودولة تكاد تضع نفسها في موضع الخالق، الرازق، المدبر.

المهـم أفرغ الرجل مراراته كلها في كتابه الأشـهر «معـالم في الطريق». وفي عام 1964 أفرج الزعيم ناصر عن سـيد قطب اسـتجابة لوسـاطة ملحة من الرئيس العراقي عبد السلام عارف، وفي العام نفسه نشر قطب كتابه المعالم، وفورًا بادرت هيئـة الرقابـة على المطبوعـات لمصادرتـه، إلا أن المفاجـأة أن الزعيـم ناصر وجه بالسماح بتداول الكتاب!

حمـل الكتاب الـذي صار عمدة المصنفـات عند جماعة الإخـوان، وخصوصًا القطبيـين منهـم أحكاما شـاملة وصارمـة، عبرت عنها لغـة يقينية قاطعـة تفتقد المرونة والحذر اللذين يميزان النصوص السنية في مختلف المسائل العقدية، والحق أن أحكامه ولغـته كانت أقـرب إلى أحكام ولغة الخوارج، منها إلى التيار السـني العام. وما أقسـى أن يتبنى قلم أديب كسـيد قطب لغة كهذه، حيث جاءت اللغة شـديدة الغضب تسمح بسـهولة بسياق يؤدي إلى التكفير، ولم تمر شهور على نشر الكتاب حتى تُوج هذا السـياق المسطور بإعدام صاحب السطور، ليتولد من هذا الزخم كله لغم فكري لم يفلح الخبراء في حل رموزه.

مـضى سـيد قطـب وبقي فكـره، البعض يحمل فكـره على أنه عمـدة الرأي في طريـق التكفـير، والبعـض يهون من أثره ويجعله مجرد سـطور لفقيـه مجاهد حازم الرأي مستمسـك بالطريق القويم وهو وما قاده للشـهادة في سبيل ما اعتقده. إلا أن واقـع الحـال يقطـع بجلاء أن كتابات سـيد قطب خلال نصـف القرن الماضي شكلت النواة الرئيسية للقول بتكفير المجتمع، وترددت عبارته في المفاصلة داخل المجتمع بين دولة كفر وإيمان على ألسنة المنافحين عن التيار الإسلامي، بل وكانت وسـيلة لشـحذ همم البسـطاء وبوصلة لتوجيه العوام للحشـد تحت راية الإسلام السـياسي ؛ وهذا الأمر الذي تنبه إليه عدد من مشـايخ الأزهر الشريف مبكرًا في حياة سيد قطب نفسه ؛ فتقف أمام رسالة هامة خطها رئيس لجنة الفتوى في الأزهر الشريف وقتها وهو الشـيخ عبد اللطيف السبكي، والمسطرة سنة 1965 ضمنها تقريرًا هامًا وتفصيلًا جيدًا في تحليل شخصية وفكر سيد قطب، ونشر هذا التقرير تحت عنوان: «عن كتاب معالم في الطريق وهو دستور الإخوان المفسدين» ويعتبر

هـذا التقريـر أقوى ما قرأته بشـأن نقد فكر سـيد قطب؛ ولكـن العجيب أن هذا التقرير اندثر الآن! فلم يقُم الأزهر بطبعه وتوزيعه، ولم يطالعه الشباب المعاصر! وفي نفـس الوقـت وفي طريق مواز أُعـيد طبع كتب سـيد قطب بأفخم الطبعات، وتداولها الشباب بلا حصانة وعلى مقربة من الأزهر ودار الإفتاء ووزارة الأوقاف، فاندفع الشـباب المتلئ حماسًا والمتعطش لنصرة الإسلام فالتَهَمَ كُتُبَ سيد قطب ؛ وتشـكلت وفق تعاليمها الخلايا السرية والعلنية، وانتشر فكر التكفير العام، ثم اقتـصر الآن على التكفير الخاص للحاكم وحكومته وإسـقاط ولايتهم ؛ ووقعت الواقعـات الفادحة وليسـت واقعة واحـدة، ومع الملاحقة الأمنيـة ضعفت أذرع هذه الخلايا العسـكرية، وسـتضعف بمشـيئة الله حتى تنزوي من أرض الكنانة؛ لكـن الأذرع الفكريـة لا زالـت راسـخة قوية تجمع شـتاتها حتى تسـنح الفرصة لتكرار المأسـاة من جديد، لذا فالصدام مع هذا الفكر مسـتمر وسـيكون أشد من الصدامـات السـابقة ما لم نتـدارك الأمر بالحكمة والموعظة الحسـنة؛ لأن الصدام القادم كما نعايشـه اليوم سـيكون بدعم دولي وضغوط خارجية، والثمن سيكون غاليًـا سـيتجرعه الجميع، وأولهـم المتكاسـلون والخائفون والمتاجـرون بالصالح العام لأغراض شخصية وقتية، ودعاوى حقوقية وهمية. وقد يراهن البعض على التفـوق الأمني الحاصـل الآن في المعالجة، ولكن طبائع الأمور وشـواهد التاريخ تقطع وتقول إن المعالجة الأمنية لا تكفي لوأد فكرة أو لقتل تنظير، وإلا فسيكون الاسـتنفار الأمنـي في حالة طـوارئ إلى الأبد، وهو من المسـتحيل لـدى كل ذي عقل رشـيد، كـما أن العبء الكبير الملقـى على الجهاز الأمني قـد يصيبه بعد فترة بنـوع مـن العجـز أو الفتور ولو في ثغرة مـن الثغور، وهم بشر مهـما كانت درجة تدريبهـم وكفاءتهـم، كما أن وحتى مع هذه الكفـاءة الأمنية إلا أن الفكر المتطرف حـال الضغـط الأمني يكون مثـل السرطان الذي ينتشر في خلايا الجسـم بمجرد تعامـل مشرط الجراح، ثم يتنامى وتزداد دائرة اتسـاعه يومًا بعد يوم. إذن لا مفر من توسيع دائرة تعرية هذا الفكر ومواجهته ونقده بموضوعية وبالأدلة الشرعية الدامغـة، فلا يكون الناس في شـك مـن أمرهم، وفي نفس الوقـت لا بد من فتح

باب الحوار الشرعي مع الفكر والفكرة، لا مع الذين امتطوا هذه الأفكار لترويع العباد وإزهاق الأرواح.

ولزامًا على مجتمع يروم السلامة أن تتحول قضية مكافحة التكفير إلى قضية عامة اجتماعية، يشارك فيها كل أفراد المجتمع كل حسب قدره وقدرته. أما أن تُترك المعالجة لقلة من دعاة يُجملون القول ولا يفسرون أو لا يحسنون البحث في الأصول، أو يُترك الأمر لغلاة الكارهين للطرح الإسلامي ليدلوا بدلوهم فيما لا يحسنون، فإن هذا أيسر طريق يؤدي إلى دعم فكر التكفير. ووقانا الله شر الفتن ما ظهر منه وما بطن.

قراءة في أوراق الدعوة السلفية

يشغل الإخوان المسلمون منذ سنوات طويلة عقول المفكرين والسياسيين، كانت تحركاتهم على رقعة شطرنج الحياة السياسية والعامة ذات أثر بالغ، في حين لم يحظَ السلفيون بهذا القدر من الزخم الإعلامي حتى يكاد كثيرٌ من المثقفين المنغمسين في الحياة العامة لا يحيطون علمًا بتفاصيل بدايات الدعوة السلفية الحديثة في مصر وما كان من تاريخها القريب. وهو ما سنحاول إلقاء الضوء عليه اعتبارًا من اليوم.

ولا ريب أن السلفيين اجتهدوا في العمل الدؤوب في مساحات من الفراغات الواسعة والفضائيات الدعوية التي انشغل الإخوان المسلمون عن ملئها بمشاركتهم الأوسع في النقابات المهنية والحياة العامة والسياسية، وما استتبعه ذلك من صدامات من الحكام والأجهزة الأمنية. وحتى عندما ظهرت مغارة علي بابا التي انفتح خيرها على السلفية مما أفاض به عليهم مشايخ الوهابية، وما تبعه من انتشار للفضائيات الدينية التي هيمن عليها السلفيون طوال عقد من الزمان، لم يمثل التيار السلفي رقمًا صعبًا في المعادلة السياسية بمصر، والأهم أنه لم يحاول، وربما مرد تلك الاستكانة في اعتقادي لرغبتهم في البقاء بعيدًا عن أزمات السياسة وعواصفها، وخصوصًا بعد أن آتت الأيام أكلها وازّينَتْ وصارت

حسابات البنوك تستحق الحرص على رضاء السلطان ودهاقنته، كما لعب الأمن دورًا مميزًا في احتوائهم بل وتوظيفهم لصالح النظام الحاكم، من ناحية أخرى.

وقد أدت العزلة التي ارتضتها غالبية التيار السلفي إلى تشكل صورة نمطية ثابتة عنهم أغفلت تنوعهم الحقيقي، وسقط كثيرٌ من المثقفين في فخ التعامل مع السلفيين بحسبانهم أمام كتلة واحدة غير قابلة للفرز والتصنيف.

ظهر التيار السلفي في تاريخ مصر الحديث على شكل تنظيمات مع بداية العقد الثاني من القرن الماضي. وعلى الرغم من وجود مدراس إصلاحية سلفية سبقته بسنوات طوال، فإنه لم يعتبر نفسه امتدادًا لها، بل سلك معها نوعًا من التجاهل أو القطيعة، خصوصًا مع زعمائها التاريخيين مثل: جمال الدين الأفغاني، والإمام محمد عبده.

نشأ التيار السلفي في كنف الحكومة ودون اعتراض منها، وتمثل ذلك في صورة جمعيات رسمية وأقدمها الجمعية الشرعية، ثم جمعية أنصار السنة، كما نشط القوم في تجمعات غير رسمية تمثلت في الدعوة السلفية، وكذا الحركة السلفية من أجل الإصلاح، بالإضافة إلى جمهور عريض منتشر في كل أرجاء مصر غير مؤطّر في مجمله أو تابع لجماعة بعينها، لكنه في غالبه الأعم يتبع رموزًا دعوية سلفية يدينون لهم بالولاء والطاعة المطلقة، توجهه بسلطة الخطاب والفتوى، وإن اختلفت مواقفها من النظم الحاكمة والممارسة السياسية.

■ الجمعية الشرعية..

كان الكيان الأول والأقدم للتيار السلفي في مصر هو الجمعية الشرعية لتعاون العاملين بالكتاب والسنة المحمدية، والتي أسسها الشيخ محمود خطاب السبكي عام 1912، وكان الغرض المعلن من تأسيسها الدعوة إلى إحياء السنّة وإماتة البدعة. وقد درج أتباع هذه الجمعية على تسمية مؤسسها ورئيسها حتى اليوم بلقب «إمام أهل السنّة»، وكان السبكي عالمًا من علماء الأزهر الشريف؛ وقد صرف جُل اهتمامه بإنشاء المساجد ومكاتب حفظ القرآن، ومدارس لتعليم الأبناء أحكام الدين وسائر المواد المقررة في المدارس الأميرية.

وقد برزت الجمعية بقوة في مجال العمل الاجتماعي، خصوصًا إعانة المنكوبين، وإنشاء المستشفيات لعلاج الفقراء، ورعاية الأرامل والأيتام، والتكفل بنفقة تجهيز الموتى وإنشاء المقابر للفقراء. واختطت الجمعية لنفسها منذ البداية طريق عدم التعرض للشئون السياسية التي يختص بها في نظرهم ولي الأمر. ولذا حظيت بممارسة هادئة للعمل الدعوي والاجتماعي بعيدًا عن ملاحقات الأمن، وتوسعت أعمالها حتى وصلت إلى إنتشاء معاهد إعداد الدعاة والداعيات.

ومع مرور الأيام استوعبت الجمعية الشرعية تيارات مختلفة بل ومتناقضة أحيانًا، وباليقين تأثرت بها بشكل أو بآخر؛ فقد تغلغل التيار السلفي المتشدد والرافض للأشعرية بشكل مطلق في الجمعية في الفترة التي ضمت الدولة جمعية أنصار السنة إليها بين عامي 1967 و1972، بينما تعاظم نفوذ جماعة الإخوان المسلمين في المنتصف الثاني من السبعينيات، وظهر جليًا في ما كانت تنشره مجلة «الاعتصام» الناطقة بلسان حال الجمعية الشرعية، والتي تحولت إلى بوق لفكر الإخوان، واعتُبِرت وقتها إحدى الصحف المعارضة للرئيس السادات، إلى أن تم إغلاقها ومصادرتها ضمن قرارات سبتمبر 1981 الشهيرة. ورغم تغلغل التيار السلفي المعادي للأشاعرة ظلت الجمعية تتبنى رأيًا متوازنًا إلى حد ما تجاه

الصوفية، فلا رفض للتصوف بمجمله إلا ما تضمَّن حسب ما يراه علماء الجمعية انحرافات عقدية أو فقهية.

ورغم تنامي الفكر الرافض للأشاعرة داخل الجمعية فإن غلبة أبناء الأزهر على رئاستها ومجلس إدارتها، وعدم اشتغال الجماعة بالسياسة، جعلها بعيدة عن أية خصومات سياسية أو حزبية مما حفظ للجمعية قدرًا كبيرًا من الوسطية، وهو ما دفع بعض رموز السلفيين في الوقت الحالي إلى الطعن في سلفية الجمعية الشرعية.

■ جمعية أنصار السنّة المحمدية..

شكلت جمعية أنصار السنة المحمدية الكيان الثاني للتيار السلفي في مصر، وقد أسسها الشيخ محمد حامد الفقي من أبناء الأزهر الشريف، وكان الرجل من المترددين على السيد محمد رشيد رضا وكان من قدامى رواد الجمعية الشرعية، لكنه مع مرور الوقت اختلف معهم في بعض مسائل العقيدة وآثر الانفصال عنهم، ويذكر أن الفقي تأثَّر كثيرًا بتراث ابن تيمية وتلميذه ابن القيم، بالإضافة إلى ابن حجر، والشاطبي. وقد أخذ الفقي موقفًا رافضًا لثورة 1919 باعتبار أن الإسلام لا يرضى عن مظاهرات تخرج فيها النساء متبرجات، وأن التحرير لا بد أن يمر من خلال الرجوع إلى سنَّة الرسول -صلَّى الله عليه وآله وسلَّم- ونبذ البدع. وما أشبه بعض السلفية اليوم بآبائهم الأوائل. وقد بدأ في القاهرة الدعوة في أثناء دراسته وبعد التخرج، إلى أن أسس جمعية أنصار السنة المحمدية عام 1926، معلنًا أن الهدف منها محاربة الشرك والبدعة في كل صورها، ومواجهة تسلط الصوفيين على المناحي الفكرية والمؤسسات الدينية. وقد سافر الفقي إلى السعودية، وقضى بها ثلاث سنوات كانت حاسمة في تفكير الرجل ومعتقداته وارتباطاته التي توثقت بمشايخ السلفية الوهابية بالسعودية، وبعد عودته تلقت الجمعية دفعة قوية أسهمت في ارتفاع شأنها وازدياد انتشارها، ثم أصدرت الجمعية مجلة «الهدي النبوي»، التي شارك في تحريرها: الشيخ المحدث أحمد شاكر، والشيخ محب الدين الخطيب، وقد كانا من أركان السلفية المتشددين.

ومع الوقت أصبحت الجمعية أكبر جماعة سلفية منظمة تملك 200 فرع، وتدير أكثر من ألف مسجد، كما أصبح لها امتدادات خارج مصر غير مرتبطة بها إداريًّا، أهمها وأقدمها في السودان، وبعض دول إفريقيا وآسيا، كما ارتبطت بعلاقات وثيقة بعلماء السعودية والخليج ؛ ومن أهم إصداراتها مجلة «التوحيد»، التي توزَّع منها مائة ألف نسخة شهريًّا وتتبنى خطابًا سلفيًّا شديد التعصب.

كما اهتمت بإنشاء معاهد إعداد الدعاة والداعيات ومركز تعليم الأفارقة وهو خاص بتعليم الأفارقة العقيدة الصحيحة والقرآن وفق نظرة مشايخ السلفية. والتي تتلخص في الدعوة إلى التوحيد المطهر من أرجاس الشرك، وإرشاد الناس إلى أخذ دينهم من نبعيه الصافيين: القرآن والسنة.

واتخذت الجمعية منذ تأسيسها موقفًا متحفزًا تجاه المرأة وحقوقها، حيث دعت إلى التمسك بالرجولة وفق مفاهيمهم لاستمرار القوامة على النساء، وذلك كله وفق الرؤية القاصرة والصورة المشوهة لوضعية المرأة.

وللجمعية موقف واضح من تحكيم الشريعة، وترى أن الحكم بغير ما أنزل الله هلكة في الدنيا وشقوة في الآخرة... فكل مشرع غيره في أي شأن من شئون الحياة هو معتد عليه سبحانه، منازع إياه في حقوقه التي ينبغي أن تكون له خالصة. وعلى الرغم من هذا الموقف فإن الجمعية لا تمارس السياسة مطلقًا، وترفض التحزب، وكانت تتخذ موقفًا سلبيًا من المشاركة في الانتخابات قبل الثورة، تغير بعدها وحثت أنصارها سرًا وجهارًا على مناصرة المرشحين السلفيين وكذا التصويت لمرسي بحسبان ذلك نصرًا للإسلام والمسلمين.

■ الدعوة السلفية..

شكلت الدعوة السلفية الكيان الثالث للتيار السلفي في مصر، والتي لم تتخذ حتى اليوم شكل الجمعية الخاضعة لإشراف الحكومة المصرية، وقد تزامنت نشأتها مع فترة تصاعد وتيرة الحركة الطلابية الإسلامية في الجامعات المصرية أوائل السبعينيات في مدينة الإسكندرية على يد طالب الطب محمد إسماعيل المقدم، الذي شكل درسه الأسبوعي بمسجد عمر بن الخطاب بالإبراهيمية نواة لتجمع مجموعة صغيرة لا تتجاوز عشرة من الطلبة المتدينين (أبرزهم: أحمد فريد)، المتأثرين بدروسه عن التوحيد والعقيدة. تأثر المقدم بشيوخ جمعية أنصار السنة وشيوخ السعودية في أثناء سفره، ورفض وزملاؤه الانضمام مع غيرهم من طلاب الجماعة الإسلامية إلى جماعة الإخوان المسلمين.

ومع نمو نشاط الطلاب الإخوان في الجامعة، قدَّم عماد عبدالغفور، الطالب بكلية الطب آنذاك، ورئيس حزب النور ومساعد مرسي السابق، اقتراحًا لتطوير العمل السلفي وبدء النشاط داخل الجامعة عام 1980، فاختارت المجموعة اسم «المدرسة السلفية»، واختير محمد عبدالفتاح (أبو إدريس) مسئولًا عنها. مع منتصف الثمانينيات، توسع النشاط السلفي في المدينة واعتمد اسم «الدعوة السلفية»، التي سرعان ما شكَّلت مجلسًا تنفيذيًّا لها، يضم: محمد عبد الفتاح أبو إدريس قيِّمًا (أي مسئولًا أولًا)، والشيخ ياسر برهامي نائبًا له، وعضوية كل من: الشيخ محمد إسماعيل المقدم، الشيخ أحمد فريد، الشيخ أحمد حطيبة، الشيخ سعيد عبدالعظيم، الشيخ على حاتم. وهؤلاء جميعًا سيشكلون فيما بعد نجوم الدعوة السلفية، كما شكّلت لجان عمل (المحافظات-اللجنة الاجتماعية- لجنة الزكاة- لجنة الشباب).

حظيت الدعوة السلفية عام 1986 بزيارة استثنائية من الشيخ أبي بكر الجزائري صاحب حلقة الدرس المشهور بالمسجد النبوي والزعيم السلفي العابر للقارات، الذي زار كل مقراتها تقريبًا بالإسكندرية، ودعم موقفها في مواجهة الإخوان المسلمين، كما صحب بعضُهم أبرزَ علماء السعودية (الشيخ بن باز- الشيخ ابن عثيمين) لعدة أشهر في المملكة، ما أكسبهم ثقة وتمسكًا بمنهجهم. كما اتصلوا بمشايخ أنصار السنّة المحمدية المؤسسين، وإن اختلفوا مع الجمعية في بعض الآراء الفقهية.

خلال هذه الفترة تمثل نشاط الدعوة السلفية في إصدار مجلة «صوت الدعوة»، ومعهد «الفرقان» لإعداد الدعاة في 1986، ولجان الزكاة والنشاط الاجتماعي، والعمل الدعوي بالمساجد، إلى أن تم توجيه ضربة أمنية للدعوة السلفية وحل كل هذه اللجان والمجلس التنفيذي نفسه في 1994، على خلفية توقيف قيِّم المدرسة الشيخ محمد عبد الفتاح، وتسلمت وزارة الأوقاف معهد «الفرقان»، ومُنع من بعدها مشايخ الدعوة من إلقاء الدروس والمحاضرات، أو حتى السفر خارج الإسكندرية. واستمر النشاط داخل الجامعة حتى عام 2002، ثم توقف لأسباب أمنية أيضًا بفعل اعتقال ياسر برهامي وغيره من شيوخ الدعوة لمدة عام.

واشتهرت الدعوة السلفية برفض الديمقراطية واعتبارها كفرًا، بل واعتبرت أن من يقبلها يضحِّي بعقيدة التوحيد، لأنها قد تأتي برئيس ملحد أو كافر، وتعرض تطبيق الشريعة الإسلامية على الخيار الشعبي. ولكنها عادت وخففت من غلواء رفضها وقبلت المشاركة السياسية والانتخابات من حيث المبدأ، وتعلل ابتعادها عن المشاركة السياسية إلى ما يسميه مُنظِّرها الأول الشيخ ياسر برهامي: (موازين القوى المنحرفة التي لا تعرف معروفًا ولا تنكر منكرًا، وتفرض على المشاركين التنازل عن عقائد ومبادئ لا يرضى أحد من أهل السنة بالتضحية بها». لذا اختارت الدعوة السلفية الابتعاد عن المشاركة حتى تتغير موازين القوى التي لا تتغير إلا بالإيمان والتربية.

ثــم عادت الحركة لتنقلــب تمامًا على مبادئها الأولى في رفض العمل السـياسي ويقـوده منظرهـا برهامي لخوض غمار السياسـة في ميادين البرلمـان وتأييد مرسي في الانتخابات الرئاسـية. وشـارك عدد من رموزها على رأسهم برهامي نفسه في كتابـة الدسـتور المعلّق سريانـه، وكانـوا وراء النصوص المختلف عليهـا وطنيًّا.. ولا تـدخر الدعوة السلفية جهدًا اليوم في ملء الفراغ الذي يتركه جماعة الإخوان المسلمين في الساحة الوطنية.

■ الشـــيـخ حـســـان ورفـاقـــه..

لا يمكن إغفال تأثير المشـايخ المشـاهير من غير المنتسـبين إلى جماعات سـلفية تقليديـة عـلى قطاع كبير من المنتسـبين إلى الفكر السـلفي. وعلى الرغـم من حالة التداخل بين مجال عمل هؤلاء المشايخ ومساحة نشاطهم، وبين الجماعات السلفية التقليدية فإن هؤلاء المشايخ الذين يطلق عليهم مشايخ الوعظ والدعوة يحرصون بشدة على الاحتفاظ باستقلالية عن تلك الكيانات.

ويأتي في مقدمتهم: الشيخ محمد حسان، الشيخ حجازي محمد يوسف الشهير بـ (أبي إسحاق الحويني)، الشيخ محمد حسين يعقوب، الشيخ مصطفى العدوي. تربطهـم صلات جيـدة بالدعوة السـلفية وجمعية أنصار السـنة، وتعتبر مسـاجد ومقـرات الجمعية المنـبر الأول لهم، لكنهم غير مقيدين بأطر الجمعيـة التنظيمية والإداريـة، ويجمعهم جميعًا التأثر بالشـيخ محمد ناصر الديـن الألباني (1914-1999م)، وكـذا تقفـي أثر علماء السـعودية من مشـايخ الوهابية وعلى رأسـهم: عبـد العزيـز بـن بـاز (1912-1999)، ومحمد بـن صالح العثيمـين (1929-2001)، وعبدالله بن جبرين (1933-2009)، والشيخ محمد الأمين الشّنقيطي (1905-1974).

و يُعتبر مشـايخ الوعظ والدعوة هم العصب الحقيقي للتيار السلفي المصري، فحضورهـم الفضائـي الكثيف في عدد مـن القنوات منذ عدة سـنوات، وانتظام دروسـهم وتنقلهم بـين المحافظـات دون أدنى مضايقـات أمنية، بل وبالتنسـيق مـع مباحـث أمن الدولة في كثيرًا من الأحيـان أدى ذلك لجمع مئات الآلاف من الأتبـاع والمتعاطفين بشـكل عام مـع خطابهم الوعظي الـذي يتجنب الخوض في مسائل السياسة، ويركز على التربية ومسائل العقيدة وفق مفهومهم السلفي.

وفي المقابـل، يـبرز تيار آخر من المشـايخ يقـف على نفس الأرضيـة من حيث المنطلقات والمنهج، إلا أنه أكثر صراحة في نقد الحكام الذين لا يحكمون بالشريعة، ويتـخذ مواقف أكثر وضوحًا وأقـل دبلوماسـية فيما يخـص قضايا الجهاد. يُطلَق عـلى هذا التيار (السـلفية الحركية)، ويتركـز في القاهرة، التي تضـم أبرز رموزه: الشـيخ محمد عبد المقصود، الشـيخ فوزي السعيد، الشيخ نشـأت أحمد، د/ سيد العربي.

وقـد تعرض هـذا التيار للتضييـق الأمني بـل الاعتقال والمحاكمـة في قضايا مختلفـة ترتبط بفتاوى تحث على مسـاندة المجاهدين في فلسـطين بالمـال والنفس، بالإضافـة إلى تبريـر أحـداث الحادي عشر من سـبتمبر. كـما أن رموز هـذا التيار يجاهرون بتكفير الحاكم الذي لا يحكم بشريعة الله.

في حين لا تخلو السـاحة السـلفية المصرية من امتداد للسلفية الجامية (نسبة إلى محمد أمان الجامي 1927-1996) أو المدخلية (نسبة إلى ربيع بن هادي المدخلي المولـود في 1932)، والتـي تكونـت من مجموعـة من أهل الحديث في السـعودية بمسـاعدة من نظام الحكم لتقف حائط صد ضد رفض بعض العلماء ورموز تيار الصحوة وعلى رأسـهم: سلمان العودة وسـفر الحوالي الاستعانة بقوات أجنبية في حـرب الخليـج، بالإضافة إلى إصرارهم على إجراء إصلاحـات حقيقية في النظام السـعودي، ويمثل التيار المدخلي المصري الشيخ محمود عامر رئيس جمعية أنصار السنة في دمنهور (قبل أن يتم استبعاده لمواقفه المثيرة للجدل بعد الثورة)، والشيخ محمد سـعيد رسـلان الداعية السلفي الشهير بأشـمون- محافظة المنوفية، والشيخ أسامة القوصي بالقاهرة.

وكما دافع المدخلية في السـعودية عن الأسرة الحاكمة بشراسـة، لم تسلم جماعة أو جمعية سلفية أو إسلامية عمومًا من نقد شديد موجه من رموز السلفية المدخلية في مصر؛ فالمدخلية ترفض العمل الجماعي المنظم جملة وتفصيلًا، ويؤمنون بطاعة الحاكم ولو كان فاسـقًا ظالمًا لا يطبق الشريعة، ولو جلد ظهرك وسـلب مالك !،

لذا اعتبروا الدعوة السلفية (خوارج) وأهل بدع وأهواء، كما شنوا هجومًا ونقدًا لاذعًا على الثنائي (سيد قطب - يوسف القرضاوي)، بالإضافة إلى حرب ضارية على جماعة الإخوان المسلمين.

المهم أنه لا يمكن حصر المنهج المدخلي في هؤلاء المشايخ فقط، خصوصًا مع محدودية شعبيتهم، فخطاب المداخِلة قائم على نزع شرعية (المنهج السلفي) عن الخصوم، والطعن في (طلبهم للعلم وتحصيلهم للحديث)، بالإضافة إلى نعت خصومهم بـ(القطبيين) وتفزيع الدولة منهم واستعدائها عليهم. هذا النهج بدأ يتسرب للعديد من مشايخ جمعية أنصار السنة تحديدًا، وبعض ممارسات لشيوخ من الدعوة السلفية بالإسكندرية، وهو ما أثار تساؤلات وشبهات كثيرة حول مدى استغلالهم من قِبل الجهات الأمنية في مصر لمحاربة مجموعات سلفية أخرى، أو جماعة الإخوان المسلمين.

خاتمة

الشاهد من السطور السابقة أن الرسول -صلى الله عليه وآله وسلم- لم يكن بصدد هدم أو تغيير الأنظمة السياسية القائمة بقدر ما كان يهتم بنشر الدعوة الإسلامية وتعاليم الدين الحنيف، فضلًا عن أن يكون بصدد تشكيل حكومة دينية مشابهة للحكومات اليهودية القديمة التي كان يقودها الكهنة والأحبار، أو حتى مشابهة للحكومات المسيحية التي كان يقودها القياصرة بدعم ورعاية من بابوات الكنيسة في العصور الوسطى. حيث لم يقرّ الرسول -صلى الله عليه وآله وسلم- نظام ازدواج السلطتين الزمنية والدينية، ولم يؤسس سلطة دينية كهنوتية كالكنيسة عند المسيحيين، ولم يَكِل إليها مهمة منح الشرعية للملوك ولا مهمة محاسبتهم أو مراقبتهم.

وقد رفض الكثيرون على مر العصور منذ فجر الإسلام تغييب الخلافة كمظهر ورمز إسلامي اعتادوا عليه، واستبدال النظم المدنية الغربية الحديثة به. ويبدأ يداعب بعض الطامحين الحنين إلى إعادتها، واستنساخها من جديد، رغم أن الثابت أن هذه الخلافة التي سالت على جنباتها دماء الملايين الزكية لم يكن لها يومًا شكل واحد أو نسق متفق عليه. وقد تلقفت بعض القوى والمنظمات

المعادية للإسلام هذا الحنين، للعودة من جديد لاستعمار هذه الدول، والسيطرة على ثرواتها.

وبما أن القوى الاستعمارية لا تعدم حيلة لتنفيذ مخططها، تزامن سقوط الخلافة الإسلامية العثمانية مع رحلة الغرب في البحث عن صديق حليف قابل للإيجار يحقق لها الهدف من السيادة على كل الأصقاع، وبالشكل الذي يرضي تطلعاته وفهمه المغلوط لطبيعة الدولة الإسلامية، وكل ذلك طبقا لسيناريوهات التقسيم المعدة سلفًا للمنطقة. ومن بين السيناريوهات زَرْع الحلفاء والأصدقاء لإشعال الفتن في عموم بلاد المسلمين، على أن تكون هذه القوى واستخباراتها الداعم والمنقذ عند الطلب. ومن السياسة البدء بالعمل الدعوي والخيري. ثم الطرق على الحديد وهو ساخن بالإلحاح على الخلافة لجذب الأنصار والمؤيدين، وتصدير دعوة استكمال مسيرة الدولة الإسلامية الأولى التي بدأها الرسول -صلى الله عليه وآله وسلم-، كرمز لوحدة المسلمين، ومن باب إحياء الخلافة يكون الدخول للسياسة، وعليه يتم استدعاء الأنصار، وعقد التحالفات السياسية لتحقيق الغرض وهو السلطة. وفي النهاية تتشرذم هذه الأمة المنكوبة بأبنائها.

وفي الختام، نسأل الله السلامة لمصرنا الغالية ولكل بلاد المسلمين والدنيا بأسرها.

الفهـــرس

الإسلام السياسي

من عام الجماعة الى حُكم الجماعة

منذ فجر التاريخ الإسلامي كان شكل الحكومة الإسلامية والبحث في مفهوم الفقه السياسي الإسلامي من القضايا الشائكة والمهمة عند علماء المسلمين.

بين طيات هذا الكتاب يطوف بنا المستشار الدكتور محمد الدمرداش العقالي في خبايا وأسرار التاريخ، ينطلق منذ اشتعال الجدل حول شكل الدولة الإسلامية والتي بدأت مع وفاة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وهو ما تعارف عليه "بعام الجماعة"، وحتى الثورة المصرية في يناير ٢٠١١ والتي أسفرت عن حكم جماعة الإخوان المسلمين لمصر، ثم سقوطه بثورة شعبية عظيمة في ٣٠ يونيو ٢٠١٣.

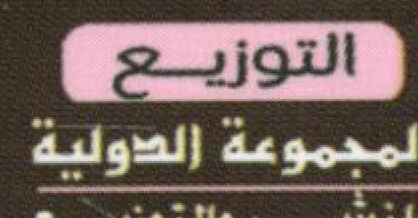
وبين عام الجماعة وتولي الجماعة حدثت أحداث جسام، وسُطرت مئات الأطنان من الكتب والرسائل حول شكل دولة الإسلام. تغيرت الأسماء واختلفت البلدان والتوجهات، وظل الهدف واحد... الصراع على السلطة. وتحت ستار الدين قُننت الفتن، وطارت الرؤوس، هدمت المساجد ودور العبادة .. انتهكت الحرمات وصار الحرام حلالاً والحلال حرام، وصار سفك الدماء وسيلة لتأكيد الإيمان، حتي وصلنا إلى اليوم الذي صار فيه الرويبضة الدعي يفتي بشرعية جهاد النكاح.

يقلب المؤلف في بعض الصفحات الدامية لمن نادى بالخلافة الإسلامية في كل العصور والبلدان، يُلقي الضوء على مرتزقة الحروب وأمراء الفتن الذين جعلوا جُل همهم إزكاء الصراعات الطائفية والمذهبية على مر العصور. يبحث في مرويات التاريخ الإسلامي، يقف على بعض التجارب المظلمة فيه، ليس بغرض تسلية الوقت أو البكاء على اللبن المسكوب، بل الهدف والغاية هو العبرة والعظة مما مر بأمتنا الحزينة التي سودت صفحات في تاريخها بصراع كان الدين هو زاده وهشيمه، والرغبة في
الدينية لفرض شكل مشوه للدولة الإسلامية.

تصميم الغلاف: إيمان صلاح








9789776451421